بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة١)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ٠٦/أيار/٢٠١٩ـ ٣٠/شعبان/١٤٤٠

المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)

الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

الذنب هو "أن نتصرف خلافاً لمصالحنا"./ علينا أن نكون أنانيّين بعض الشيء كي لا نذنب!/ أين العجَب في قضية الذنب والتوبة؟/ ألا يوحي موضوع الذنب والتوبة بأن الله يحب عباده حباً عظيماً؟!

ما هو الذنب؟ أهو مجرد عمل يُغضب الله تعالى؟! أم إنه ضربة للنفس أولاً! بالمناسبة، إن على المرء أن يستغرب أنْ: "إلهي، لقد آذيتُ نفسي، فما بالك أنت انزعجت؟" والجواب: لأن الله يحبك حباً جماً...

أين العَجَب في قضية المعصية؟

نود خلال هذه المحاضرات التحدث عن موضوعين عجيبين جداً في عالم الخلقة والأجواء الدينية؛ أحدهما الذنب، والآخر المغفرة والتوبة. أين موضع العَجَب في قضية الذنب؟... لقد خلق الله تعالى هذا العالم والكائنات في منتهى التنظيم والدقة. دونك قوانين الفيزياء والكيمياء في الكون فانظر كم قد صُمّمت بدقة! بل لم يكن بالإمكان أصلاً أن يجعل الله تعالى خلقة دونما حساب ونظام، وإلا كانت عملَت مخلوقاتُه ذاتها على إبادة أحدها الآخر. في هذا العالم، حيث خلق الله كل شيء بنظام ونسق، أعطى عز وجل الإنسانَ إرادةً واختياراً وحرية. ومن الطبيعي أن يخطئ هذا الإنسان ويخالف القوانين أحياناً. لكن العجيب هو أن يُسمّي الله هذا العمل «ذنباً» أو «معصية» قائلاً للإنسان: «لقد عصيتَني!» فمع أننا لم نُؤذِ ولم نظلم إلا أنفسنا ولم نوجّه صفعة إلا لأنفسنا، يرى الله أنه هو المقصود بهذا الفعل!.. وهو أمر في منتهى الغرابة!

ألا يوحي موضوع الذنب والتوبة بأن الله يحب عباده حباً عظيماً؟!

أصل لفظة «الذَنْب» من «الذَّنَب»، وعلة هذه التسمية هي أن الذنب فعلٌ ذو تبعات سلبية للإنسان؛ فالذنب الذي نقترفُه يجُرّ إلى أعراض سلبية تلحق بنا نحن، لكن الله تعالى يقول: «تعال وتُب من فعلك هذا، واطلب مني المعذرة!» كما أنّ كلمة «عصيان»

تعني عدم الطاعة والاتّباع؛ أي: إني قطعتُ صِلَتي بالله تعالى. وإن لهذا الأمر آثاراً وضعيّة سيئة لي أنا، لكن الله يقول: «لقد عصيتني.. هيّا تُبْ من فعلتك!».. ألا يحكي هذا شدة محبة الله لعباده؟!

ما الحكمة من "توجيه الله الأوامر لنا"؟

أساساً لماذا زوّدنا الله بهذا المنهج – المسمّى بالدين – وفرضه علينا «فرضاً» حتى إذا بدَرَت منا مخالفة له سُمّيَت «مخالَفة لأمر الله»! فالطبيب يزوّد مريضه بوصفة للعلاج، غير أننا - بصفتنا مرضى - لا نكون مضطرين للاعتذار من الطبيب إذا لم نشأ العمل بوصفته؛ ذلك أننا نُلحق الضرر بأنفسنا، لا بالطبيب! لكن الله تعالى قد دخل في صُلب حياتنا قائلاً: «إذا اقترفتَ هذه الأخطاء تكون قد عصيتني!... إذا أضرَرتَ بنفسك فسأستاء منك!... أنا آمرك بما ينفعك!» وكأنه تعالى يقول: « من أجلي أنا كُفَّ عن هذه الأفعال (الذنوب)!» يتوجّب علينا القيام بهذه الأفعال وإن لم يأمرنا الله بها (لأنها في مصلحتنا) فلماذا إذن يُدخل الله أمرَه في القضية؟ أليس هذا من فرط محبته تعالى بالإنسان؟! أيّ حكمة أخرى وراء ذلك يا ترى؟! أليست هذه أعجب ظاهرة في مجال الدين؟! ليس من العجيب أن يأمرنا الله بالصلاة والصوم، إذ من المعلوم أنها أعمال في صالحنا، لكن العجَب هو أن يُطلق سبحانه على عدم إتياننا بهذه الأعمال اسم «الذنب» «ومعصية الله»! أي إن الله ينزعج حين أُضِرّ أنا بنفسي! فموقف الله عز وجل من هذه الأوامر هو أنه يدخل بنفسه في صُلب القضية ويجعل الجنة ثواباً للأعمال التي تنفعنا، ويتوعّد بالنار؛ شأن الأم التي تهدّد ولدَها الجاهل من فرط شفقتها عليه. لاحظوا بأي إصرار وحماس يتحدث الله تعالى في كتابه العزيز! فالذي لا ينظر إلى القرآن الكريم بوصفه رسالة حب من الله تعالى لعباده فإنه - في الحقيقة - لا يفقه معاني كلمات هذا الكتاب ومداليلها. مفهوم الذنب والمعصية ومحلّهما الحساس في منظومة الدين ألا يحكيان محبةَ الله العارمة تجاهنا؟! وإن كان الرد سلبياً فأيّ معنى يمكن أن يحملانه يا ترى؟! هل لنا أن نقول – والعياذ بالله – إن الله أشبه بسلطان جائر يغضب إذا لم نمتثل له فيلقّننا درساً؟!... الله لا هو قاسٍ، ولا ظالم، وتصرفه هذا لا يُفصح سوى عن شدة محبته.

لماذا مفهوم "التوبة" عجيب؟

المفهوم العجيب الآخر في الدين هو التوبة والاستغفار. لكن ما المراد من التوبة؟ التوبة تعني أنك قد خرقتَ القانون بذنب ارتكبتَه وأن تبعاته هي في طريقها إليك. وإن أراد الله تعالى منع هذه التبعات الناجمة عن معصيتك فلا بد أن يُربِك نسَقَ العالم. أتعلم ما سيحدث إذا اضطرب نظام العالم؟ كأن يتّفق، خلال الأربع والعشرين ساعة، أن تختل جاذبية الأرض في ساعاتٍ ما! أو يتعطل قانون تماسك الذرات أو الخلايا فيما بينها! إن نسق العالم بأسره سيختل ويضطرب متأثراً باختلال نظام قطعة صغيرة منه! بالطبع لا بد لنا، إذا عصينا الله، أنْ نلمس أثر عملنا هذا، أما إذا تُبنا إليه فسيحُول اللهُ تعالى بيننا وبين آثار هذه الخطيئة، بل إن الله – في الحقيقة – سيقف بوجه نظام العالم، لكن بطريقة لا تؤدّي إلى أيّ تخلخل في أي نقطة من هذا العالم.

الله يقبل التوبة دائماً، إذن هو باستمرار يأتي بمعجزة!

لماذا موضوع التوبة عجيب؟! لأن الله في قضية التوبة يقف أمام نظام العالم بطريقة لا يضطرب فيها هذا العالم. وفي الواقع فإن معجزة تحصل هنا. فقبول الله للتوبة يعني أنه تعالى يحول دون الضرر الناجم عن معصيتنا.. الضرر الذي يُفترَض، وفقَ نظام العالم، أن يحيق بنا. تصوَّر معجزةَ «كشَقّ القمر» مثلاً؛ فحين ينشق القمر لنصفين لا بد أن يتخلخل نظام المجموعة الشمسية، لكن بما أن الأمر معجزة، فإن نصفَي القمر سيلتصقان ثانية دون أن يتحرّك ساكن! على أن القمر لم ينشق إلا مرة واحدة، أما التوبة فإن الله يتقبّلها على نحو موصول، أي إنه باستمرار يأتي بمعجزة! بل لربما أتى جلّ وعلا على أثر معصيتنا من دون أن نتوب منها فمحاه ولم يذَرْهُ يظهر!

لماذا يستغفر أولياء الله كل هذا الاستغفار؟

إننا أمام قضيتين في غاية الغرابة؛ هما الذنب، والتوبة! إحداهما أن الله يعُدّ الذنب الذي نرتكبه نحن والضربة التي نوجّهها بأنفسنا لأنفسنا، معصية له عز وجل وخروجاً عن طاعته فيخاطبنا: «استغفرني لمعصيتك هذه!» والأغرب هو قوله: «إن تُبتَ إلَيَّ فسأقف أمام نظام هذا العالم ولا أدع أثر ذنبك يظهر لك لا في الدنيا ولا في الآخرة!» مضافاً إلى القضيتين العجيبتين هاتين فإن هناك أمراً آخر هو عجيب أيضاً وهو: لماذا يتوب أولياء الله ويستغفرون كل هذه التوبة والاستغفار؟!... إنهم لم يقترفوا إثماً! ما هو سبب إصرارهم الشديد على الاستغفار بين يدي الله؟ وهذا موضوع آخر سنتطرق إليه في المحاضرات القادمة. إن من لوازم التديّن هو أن يستوعب المتديّن مفهوم المعصية ويعلم أنه بارتكابه هذه المعصية إنما يضر بنفسه، لا أنه يُغضب ربه فحسب! يحسب الكثيرون أنهم بارتكابهم الخطايا إنما يُغضبون الله تعالى ولا يظنون أنهم - في الواقع - بأنفسهم قد ألحقوا الضرر. ولذا فإنهم إذا همّوا إلى التوبة تراهم يطلبون إرضاء الله كي لا يظل مستاءً منهم. وكفى!

لماذا لا ينظر المجتمع إلى الذنب على أنه "كارثة"؟

لا يأخذ المجتمع قضية المعصية بجد. فالكل يحتج على من يخالف الإشارة الضوئية في التقاطع أنْ: «لماذا تُربك نظام المدينة!» أما تجاه المعصية فإنهم لا يحملون مثل هذا الفهم! قد يعود سبب عدم نظر الناس إلى المعصية على أنها كارثة إلى أن الأنظمة التعليمية لا تعلّم هذا للأطفال في صغرهم. فهل يعلّمون التلاميذ خلال السنوات الدراسية الاثنتي عشرة مفهوم الذنب يا ترى؟ ما هو الذنب؟.. هل هو مجرد فعل يُغضب الله تعالى؟! أم إنه حقاً شيء رهيب إلى درجة أن على المرء أن يستغرب أنْ: «إلهي، لقد آذيتُ نفسي، فما بالك أنت انزعَجتَ؟» فيجيب تعالى: «لأنني أحبك حباً جماً.. أعظم من حب الأم لولدها..». الذي يرتكب الذنب هو كمَن يقطع يده أو إصبعه بسكين أو ساطور ملحِقاً الأذى بنفسه. والتوبة هي كما لو قطعتَ إصبعك بنفسك ثم قلت لربك: «إلهي، أصلحه لي!» الاغتياب هو حقاً أكل الشخص للحمِ أخيه في الدين ولقد كشف رسول الله(ص) هذا الأمر لأصحابه في بعض المواطن كي يعوا أثر هذا الذنب القبيح.

الذنب هو "أن نتصرف خلافاً لمصالحنا"

نحن لم نستوعب جيداً إلى الآن أن الذنب يعني الإضرار بالنفس أولاً! يظن الكثيرون أن المعصية هي الدوس على المقدسات والعمل بما يخالف المعتقدات وممارسة سلوك غير إيماني! والحال أن المراد من المعصية بالدرجة الأولى، ليس هذا. فالذنب - قبل أن يكون ممارسة ما يخالف معتقداتنا - هو أن نتصرف بما يخالف مصالحنا! لعلنا نحن من قدّم الدين للناس خطأً من الأساس. فقولنا: «الدين منهاج يقوم على المعتقدات والإيمان» لا يعبّر عن فهم دقيق للدين. فالدين - أولاً - هو منهاج يقوم على مصالح الإنسان، سواء الدنيوية منها أو الأخروية. من هنا فإنه لا بد - كمرحلة أولى - أن نكون أنانيّين بعض الشيء كي لا نذنب! الأنانية - في الأساس - ليست شيئاً قبيحاً. فهذا أمير المؤمنين(ع) ينكر إحسانه لأحد ويصرح بأنّ كل ما قام به كان لنفسه(ع)! فقد روي عنه(ع) أنه قال: «مَا أَحسَنتُ إِلَى أَحَدٍ وَلا أَسَأتُ إِلَيهِ لأَنَّ اللهَ تَعَالى يَقُولُ: «مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْها» (فُصّلت/٤٦)» (متشابه القرآن ومختلفه لابن شهر آشوب/ ج١/ ص١١٨). ولو لم يكن عند أهل البيت(ع) أنانية، بالمعنى الحقيقي للكلمة، أكانوا سيبكون وينتحبون من أجل الجنة والنار كل ذاك البكاء والانتحاب؟! ففي القرآن الكريم أن الله يعاقب الإنسان السيّئ بأن يجعله غير أناني: «وَلا تَكُونُوا كَالَّذينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُم» (الحشر/١٩).

المرحلة الأولى من الالتفات إلى الذنب هي أن تكون أنانياً بمعنى الكلمة!

المرحلة الأولى من عملية الالتفات إلى مفهوم الذنب وإدراك قضية المعصية هي أن يحفظ الإنسان نفسه ويرعى مصالحه، أو لنقل: أن يكون «أنانياً»! وإن علينا في المدارس أن ننشئ الأطفال بطريقة يتنبّهون فيها إلى أن كل اختيار يختارونه سيترك أثراً مستديماً عليهم؛ وهو أن يُترك التلميذ ليختار بكامل حريته بحيث إذا اتفق أن كان اختياره سيئاً أحسَّ بالندم عليه. أي ينبغي ان نضع الأطفال في معرض الاختيار كي يروا تبعات اختيارهم السلبية أو الأيجابية. عندما تسأل الله أن: «إلهي، أعِنّي على أن لا أعصيك»، فكأنك تقول له: «إلهي، أعِنّي كيلا أصنع ما يضرّني». وقد سألوا آية الله بهجت(ره) أن يزوّدهم بذِكر فقال: «الذِكر هو أن تعزم على عدم المعصية! فما إن تعزم على ذلك حتى يعينك الله».

تعالـوا، في شـهر رمضـان المبـارك هـذا، نتصـف ببعـض الأنانيـة، ونهتـم بمصالحنـا، بـل بأعـلى مصالحنـا. فـإن إحـدى ركيـزتَيّ عمليـة الالتفـات إلى المعصيـة هـي أن نلاحـظ مصالحنـا، أمـا ركيزتهـا الثانيـة فهـي أن نلحـظ حرمـة اللـه ومحبتـه لنـا (وهـو مـا سـنتكلم عنـه في المحـاضرات الآتيـة).

ما الذي جعل الله يصطفي آدم(ع) بعد الذي ارتكبه؟

لقـد عـصى آدم(ع) ربـه فـكان أن هبـط مـن الجنـة ومـن ذلـك المقـام الرفيـع: «وَعَـصَى آدَمُ رَبَّـهُ فَغَـوَى» (طـه/١٢١) وفـرّط بميـزات عظيمـة؛ أي فـرّط بثـواب الامتثـال لقول ربـه. ثم يعبّر القـرآن الكريم بـأن الله مـن ثـم اختـاره للنبـوة، وقَبِل توبتـه، وهداه: «ثُـمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّـهُ فَتَابَ عَلَيْـهِ وَهَدَى» (طـه/١٢٢). فما الذي جعـل اللـه عـز وجـل يجتبـي آدم(ع) بعـد أن عصـاه؟ لأنـه(ع) تـاب توبـة في منتهـى الروعـة حـين جعـل السـماوات والأرض تضطـرب لبكائـه وأنينه! مسـجد الإمام الصادق(ع)، ٠٦/أيار/٢٠١٩ ـ ٣٠/شـعبان/١٤٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ٢)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ٠٧/أيار/٢٠١٩ ـ ٠١/رمضان/١٤٤٠
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

الخطوة الأولى على طريق معرفة الذنب هي أن نعرف "أن الذنب يضر بنا نحن"./ يتصور البعض أن المعصية لا تضر به هو، بل تُغضب اللهَ فحسب!/ ثلاثة دواعٍ لإصرار الله الشديد على ضرورة كفّنا عن المعاصي.

إن العقدة (نقطة الإثارة) الرئيسة في القرآن الكريم هي الذنب والكفّ عن المحارم. حتى أثناء خوضه في مواضيع من مثل الكفر والإيمان، أو الشرك والتوحيد يكون موضوع المعصية حاضراً أيضاً؛ لأن الشرك أكبر الذنوب، وأن الكفر ذنب بحد ذاته. وإنْ تكلم عن الإيمان، فالإيمان ذو القيمة في نظر القرآن هو الذي ينهَى عن المنكر ويكون سبباً لحسن السلوك؛ أي السلوك الذي يصب في صالح صاحبه.

ما الذي يجعلنا لا نستمتع بالقدر الكافي من تديّننا؟!

ينبغي للتديّن أن يتجلى بصورة يكون معها جذاباً، ومسلّياً، ومثيراً، ومنشّطاً للإنسان. وليس المقصود من هذا أنه لا بد أن يكون الدين هكذا للجميع؛ فالذي لم يشتغل على نفسه قيد شعرة ولم يجعل لنفسه أي قيمة إضافية لا يكون لدينه تلك القيمة الكبيرة حتى وإن كان مسلياً وممتعاً بالنسبة له. أما إذا أوجَد الإنسان لروحه وفكره قيمة مضافة فلا بد أن يلتذ بتديّنه ولا بد أن يكون الدين بالنسبة له مثيراً باعثاً على النشاط. لماذا لا نصيب من حياتنا اللذة الأوفر؟ نحن الذين نسعى لممارسة الدين لِمَ لا نجني من تديّننا القدر الكافي من المتعة، ومن ثم ترى أفئدتنا تهفوا لنمط حياة اللادينيين؟! لماذا لا يتحسر غير المتدينين على حياة المتدينين؟! مع أن القرآن الكريم يصرح بأن الكفار يودّون لو يخرجونكم من إيمانكم من فرط حسدهم لكم: «وَدَّ كَثيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم» (البقرة/١٠٩).. مَن الذي يحسدونه عادةً؟! إنهم يحسدون الذي يعيش في لذة أكبر!

أحد العوائق أمام استمتاعنا بالدين فهمُنا الخاطئ له

التديـن مثـير ومُسَـلٍّ، كل مـا هنالـك أن علينـا أولاً أن نبـذل بعـض الجهـد لنفتـح لأنفسـنا بـاب الاسـتمتاع بالديـن. علينا أن نكتشـف مـا الـذي يجعلنا لا نجنـي مـن تديّننا القـدر الـكافي مـن اللـذة؟ أحـد عوائـق اسـتمتاعنا بالديـن هـو مـا نحملـه عنـه مـن تصـورات خاطئـة وفهـم مشـوّه تولّـد لدينـا لأي سـبب كان؛ فإمـا أنهـم لم يعلّمونـا الديـن بصـورة صحيحـة، أو أننـا ممـن عندهـم مشـكلة مـع الديـن؛ قـد سـمعنا عنـه أقاويـل، وصدقناهـا. وإن علينـا تصحيـح هـذه التصـورات كي نتمكـن مـن الالتـذاذ بالديـن. هـذه التصـورات الخاطئـة إمـا أن تتصـل بالديـن عمومـاً، أو أن ترتبـط ببعـض أجزائـه.

من المواضيع التي نحمل عنها فهماً خاطئاً موضوع الذنب

مـن المواضيـع التـي نحمـل عنهـا تصـوّراً خاطئـاً وتشـغلنا باسـتمرار هـو موضـوع الذنـب. مـا المـراد مـن الذنـب؟ ومـا الحكمـة مـن بـروز مفهـوم اسـمه «الذنـب»؟ ولمـاذا وُضـع العـذاب عقابـاً للمذنـب؟ مفهـوم الذنـب هـذا هـو مـن عجائـب عـالم الخلقـة! فإننـي أرتكـب خطـأ يـضرّني أنـا، لكـن اللـه يتدخـل قائـلاً: «لقـد عصيتنـي!» يجـب أن نتأمـل في أنـه مـا الـذي يجعـل اللـه يدخـل في هـذه القضيـة ويطلـق عـلى خطئنـا - الـذي يحيـقُ ضررُه بنـا نحـن - اسـمَ الذنـب والعصيـان، ويُدخِلنـا في تمـاس مبـاشر معـه؟!

الخطوة الأولى على طريق معرفة الذنب: لنعرف "أن الذنب خطأ يضرّ بنا نحن"

لا يحمـل النـاس فكـرة صحيحـة تمامـاً عن المعصية؛ فهـم يتصورون أنهـا لا تضر بهم، وأنهـم بمعصيتهم إنما يُغضبـون اللـه فحسـب! وهـذا فهـم بعيـد عـن الصـواب. العجيـب في قضيـة الذنـب هو أننـي أضر نفسي بارتكابـه لكـن اللـه يسـميه «ذنبـاً» وأنـه عصيـان لـه هو، ويسـتاء مني بسـببه! ولـكي نتعرف عـلى الذنب جيـداً علينـا – كخطـوة أولى – أن نعـرف أنـه خطـأ يرتكبـه الإنسـان فيـضر بـه هـو وأنّ لـه، في هـذا العالم المنظّـم إلى أبعـد الحـدود، آثـاراً سـلبية تلحـق بفاعله بطبيعـة الحال. فلـو أدرك المذنب هذا للَجَـأ إلى الله متوسـلاً: «إلهـي، «ظَلَمْـتُ نَفـسِي» (دعاء كميـل بن زياد النخعي) فـلا تدع آثار هـذه الخطيئة تحيق بي!»

يتصور البعض أن المعصية في نفسها لا تضرّ به هو، بل تُغضب الله فحسب!

يتصور الكثيرون أن المعصية، في حد ذاتها، ليست قبيحة وهي لا تشكل خسارة لهم، إنما هم يُغضبون الله باقترافها فحسب! وهذا فَهْم خاطئ للمعصية لا بد أن يتغير. كما يظن كثيرون أيضاً أن المؤمنين قد عاهدوا الله على أن لا يعصوه، فإن صدَر منهم تصرف خاطئ، سُمّي هذا التصرف «ذنباً!» أما خارج نطاق الدين فهذا التصرف – في نفسه – لا هو خاطئ ولا هو ضارّ بصاحبه! لكن إصبعي، سواء أكنتُ داخل الدين أو خارجه، ستنفصل عن يدي إن قطعتها بسكين أو ساطور وسأتألّم، وليس لهذا أي صلة بالدين والإيمان. فلا ينبغي أن نتصور أن الذنب يرتبط باختيارنا فيما يتصل بالعقيدة والإيمان، وأن المعتقدات أمر ذوقي وروحي اختاره البعض، فإن لم يكونوا معتنقين لدينٍ ما فسيكونون في مأمَن من شر مفهوم اسمه «المعصية»!

الذنب هو خطأ يصدر من الإنسان ويُلحق به ضرراً، سواء أكان متديناً أم لم يكن!

الخطوة الأولى هي أن نعلم أن الذنب فعلٌ يضرّ بنا نحن. ليت المجتمع يقتنع بأن «الذنب هو خطأ يصدر من الإنسان ويُلحق به هو ضرراً، سواء أكان متديناً أو لم يكن!» يا ليتنا كنا قد أقنعنا أطفالنا في المدارس منذ البداية بأن «إضرار المرء بنفسه أمر بذيء! وأن تفريط الإنسان بمصالحه شيء قبيح!» روي عن أمير المؤمنين(ع) قوله: «لَوْ لَمْ يَنْهَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنْ مَحَارِمِهِ لَوَجَبَ أَنْ يَجْتَنِبَهَا الْعَاقِلُ» (غرر الحكم/٧٥٩٥) لأن العاقل يعلم أن في ارتكابها خسران له. وروي عن رسول الله(ص) أنه قال: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ؛ يَعْنِي أَنَّهُ يَكُفُّ ذَا الدِّينِ وَمَنْ لا دِينَ لَهُ عَنِ الْقَبِيحِ، فَهُوَ جِمَاعُ كُلِّ جَمِيلٍ» (وسائل الشيعة/ ج١٢/ ص١٦٨). لا دخل للحياء بالدين؛ فإن كنتَ ذا حياء فسوف لا تفعل القبيح، ولذا فسوف لا تتضرر، وهذا مطلوب للجميع. أما الدين فيأتي هنا ليؤكد على كل ما هو مفيد وضروري للإنسان. فعن رسول الله(ص) أيضاً أنه قال: «مَنْ تَرَكَ الْخَمْرَ لِغَيْرِ اللهِ سَقَاهُ اللهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ. فَقَالَ عَلِيٌّ(ع): لِغَيْرِ اللهِ؟! قَالَ: نَعَمْ وَاللهِ صِيَانَةً لِنَفْسِهِ، يَشْكُرُهُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ» (من لا يحضره الفقيه/ ج٤/ ص٣٥٣)؛ أي من ترك شرب الخمر ليس لوجه الله، بل لبواعث بعيدة عن الله (لأي سبب كان؛ كأن يكون عرف مضارّها له) فسيسقيه الله من مشروبات الجنة! لماذا؟ لأنه حفظ نفسه والله يفرح حين يحفظ الإنسان نفسه من الأضرار.

لماذا دخل الله بنفسه في قضية الذنب وهو يُصرّ كل إصرار لنكف عن المحارم؟

الذنب فعلٌ يُلحق بنا ضرراً، والله يستاء إن فعلنا شيئاً يضُرّ بنا، ويفرح إن قمنا بعمل ينفعنا. لكن المؤسف أنّ «الله» لم يتم تقديمه للناس بهذه الصورة. السؤال هو: لماذا دخل الله بنفسه وبكل قوة في موضوع المعصية، بل إنه يهدد بالعذاب، ويصرّ علينا بالكَفّ عن المحارم؟ إلى درجة أن بإمكاننا القول، إذا صح التعبير: إن عقدة قصة الله مع عباده في القرآن الكريم هي موضوع الذنب.. حول ارتكاب الذنب وعدم ارتكابه! فلقد بعث الله الرسُل، وجاء بأئمة الهدى، وأنزل القرآن من أجل هذه العقدة المهمة المتمثلة بالذنب، وهو أنه «لا يجوز لنا أن نمارس ما يُلحق بنا الضرر!»

العقدة الرئيسة في القرآن هي المعصية

إن العقدة الرئيسة في القرآن الكريم هي الذنب والكفّ عن المحارم. حتى أثناء خوضه في مواضيع من مثل الكفر والإيمان، أو الشرك والتوحيد يكون موضوع المعصية حاضراً أيضاً؛ لأن الشرك أكبر الذنوب، وأن الكفر ذنب بحد ذاته. وإنْ تكلم عن الإيمان، فالإيمان ذو القيمة في نظر القرآن هو الذي ينهَى عن المنكر ويكون سبباً لحسن السلوك؛ أي السلوك الذي يصب في صالح صاحبه. إذن في وسعنا أن نقول: القرآن كتاب يبحث في موضوع الذنب. لماذا يشدّد الله تعالى كل هذا التشديد على كفّنا عن المعاصي؟ ولقد أجبنا على هذا السؤال في المحاضرة السابقة إجمالاً وقلنا: بسبب محبة الله لعباده؛ فهو تعالى من فرط محبته لنا يشدد على ضرورة عدم اقترافنا الذنوب وعدم إنزالنا الضربات بأنفسنا. فهل نحن مصدّقون أن الله رؤوف رحيم إلى هذا الحد؟

الداعي الأول لإصرار الله على كفّنا عن المعاصي هو "أننا لا نبالي بما ينفعنا ويضرنا"

لماذا يسمي الله تعالى الخطأ الذي أرتَكِبُه أنا تجاه نفسي «ذنباً»، ويحدد له أوامر، ويعيّن له عقاباً وثواباً؟ الجواب الإجمالي لهذا السؤال هو «محبة الله المفرطة تلك تجاه عباده». على أننا إذا أردنا الإجابة مفصلاً قلنا: الداعي الأول لهذا هو أن الناس لا تعرف ما ينفعها وما يضرها، أو أنها تعبث بمصالحها ولا ترى الاهتمام بها أمراً جاداً! أي ليس كل من نقول له: «هذا الأمر ينفعك جداً» أو: «ذاك الفعل يضرك كل ضرر» فإنه سيصغي إلينا ويجتنب ما فيه ضرره!

فعن الإمام الصادق(ع) قوله: «وَلَوْ كَانَ الإِنْسَانُ إِنَّمَا يَصِيرُ إِلَى أَكْلِ الطَّعَامِ لِمَعْرِفَتِهِ بِحَاجَةِ بَدَنِهِ إِلَيْهِ وَلَمْ يَجِدْ مِنْ طِبَاعِهِ شَيْئاً يَضْطَرُّهُ إِلَى ذَلِكَ كَانَ خَلِيقاً أَنْ يَتَوَانَى عَنْهُ أَحْيَاناً بِالثِّقْلِ وَالْكَسَلِ حَتَّى يَنْحَلَ بَدَنُهُ فَيَهْلِكَ» (توحيد المفضل/ ص٧٥)؛ أي إن الكسل مستَشرٍ في الناس إلى درجة أن الرجل إذا لم تؤلمه معدته من الجوع وتدفعه إلى الأكل فإنه لا يفتش عن الطعام حتى يهلك! انظر ماذا يصنع الركون إلى الراحة بالبشر؟! فما لم يُصِب أجسامَهم ألمٌ أو لذة شديدة فإنهم لا يحرّكون ساكناً حتى من أجل منفعتهم أو اجتناب مضرتهم! فماذا عسى الله يصنع مع عباد كهؤلاء؟ من هنا تراه عز وجل يدخل بنفسه في صلب الموضوع فيوجّه إلينا الأوامر، ويفرض العقاب والثواب، ويشرّع الحلال والحرام كي نتصرّف بما فيه نفعنا! فالداعي الأول الذي يجعل الله يبدّل الفعل - الذي هو في الأساس لصالحنا - إلى «فرضٍ ديني» ويعيّن له ثواباً، وعقاباً قاسياً هو أنه إذا ترك الإنسان وشأنه فإن الأخير - وبسبب تكاسله وتقاعسه - سوف لا يفتش عن منفعته، بل وقد لا يدرك أين يكمن نفعُه؟

الداعي الثاني: نحن في الغالب لا ندرك مصالحنا الطويلة الأمد

الداعي الثاني هو أننا في كثير من الأحيان لا نرى حتى المصالح القصيرة الأمد التي في متناول أيدينا، ومن هنا يرى الله تعالى نفسه – وحسب تعبيرنا الدارج – مُجبَراً على إصدار الأوامر علّنا نتزحزح بأوامره! فكيف لنا – والحال هذه – أن نرى مصالحنا الطويلة الأمد؟! ولأننا لا ندرك مصالحنا الطويلة الأمد لم يكتف الله - من أجل بلوغنا إياها - بإرشادنا بل أخذ يأمرنا بها ويحدد الثواب والعقاب عليها؛ إذ من الصعب أن يتولد لدى المرء الدافع لتأمين مصالحه القصيرة الأمد، فما بالك بتلك الطويلة الأمد! ولا تختلف طبيعة الداعي الثاني عن الأول، لكننا أكثر ما ركّزنا ضمن الداعي الأول على المصاديق التي تمثل مصالحنا الآنية والعينية؛ بمعنى أننا لا نرى حتى مصالحنا الشخصية الآنية ولا نتحرك لصيانتها فما بالك بإقلاعنا عن السلوكيات المناهضة لهذه المصالح! أمّا الداعي الثاني فيتصل بتلك المصالح الطويلة الأمد التي لا نجد الدافع لتأمينها أبداً إلا بأمر من الله عز وجل!

الداعي الثالث: إن الله استثمر فينا حس العبادة كي لا نفعل ما يضر بنا

الداعي الثالث هو أننا نمتلك حسّاً اسمه «حسّ العبادة». وقد أقر ذلك علماء النفس أيضاً حين ذهبوا إلى أن للبشر غريزة وحاجة طبيعية تدعى «العبادة»؛ أي إنهم يحبون أن يعبدوا شخصاً ما. وإن من جملة أسباب ما نلاحظه من اكتظاظ تجمعات «الاعتكاف» و«المجالس الروحانية لشهر رمضان المبارك» وإقبال الناس عليها هو حس العبادة هذا ورغبة الناس في إشباعه. والله عز وجل يعلم أننا نمتلك هذا الحس وهذه الغريزة، ولذا فإنه حينما يأخذ العبد بعبادة ربه يقول الله له: «من أجلي أنا أقلع عن هذا التصرف المضر بك!» أي إن الله يستثمر حس العبادة فينا لتحريضنا على عدم القيام بما يضرّ بنا من ذنب ومعصية! وهكذا يتولد مفهومَا الذنب والطاعة. حينما يرى الله أنني أخذتُ أعبده، وصرتُ أريد إشباع غريزة العبادة لديّ بعبادته، يستغل تعالى هذه الفرصة فيمنعني من بعض التصرفات والأعمال المضرة بي. حين تتلو القرآن تأمّل في أنه: ما الذي يجعل الله، وهو بكل هذه العظمة، يتكلم مع عباده في القرآن كل هذا الكلام حول الطاعة والمعصية؟ ألم يكن ثمة موضوع آخر يتناوله يا ترى؟! لماذا كل هذا الإصرار من جانبه عز وجل على أن لا نذنب؟

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ٣)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ٠٨/أيار/٢٠١٩ـ ٠٢/رمضان/١٤٤٠
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

أين مكمَن الجمال في مفهوم الذنب والثواب؟/ يشكل "الذنب" موضوعَ أجملِ لحظاتِ مناجاة أولياء الله./ لماذا كان علي(ع) يُطيل الوقوف على "الذنوب" في مناجاته؟/ العقدة (نقطة الإثارة) الرئيسة في علاقة العبد بمولاه هي "توجيه الأمر من المولى" و"استغفار العبد".

الكلام حول الذنب جميل من الله من ناحية؛ حيث يشكل الموضوع الرئيس للقرآن، وجميل من العبد من ناحية أخرى، حيث يؤلف الموضوع الأول لدعاء ومناجاة أولياء الله. وإن أروع لحظات عالم الخلقة، ألا وهي لحظات مناجاة أولياء الله مع ربهم، لتدور حول موضوع المعصية، وهو ما يؤشّر على مدى جمال هذا الموضوع.

إن أحد أروع جوانب الدين هو حوار الله مع عباده حول "الكف عن المعاصي"

لا شك أن معظم محاور القرآن الكريم تدور حول موضوع عنوانه «المعصية»؛ فلطالما تناول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز مفهوم الذنب، والتوصية بالكف عنه، وتعداد أنواعه، مضافاً إلى ألوان الثواب والعقاب والترهيب ردعاً لعباده عن إتيانه. وحين يتعرّض الله في كتابه لمثل هذا الموضوع باستمرار فلا بد أن يكون لتصرّفه هذا جمال خاص؛ فناهيك عن النفع الذي نجنيه لتركنا المعصية، فإنه لا بد لجمال كلام الباري تعالى هذا حول الكف عن المحارم أن يجتذبنا هو الآخر. هل يا ترى تخلو مقولة ترك المعصية من الجمال، ولا تعدو كونها مبحثاً مهمّاً؟! يتحرّج الكثيرون، إذا ما أرادوا الكلام بعض الشيء حول مواطن الجمال في الدين، عن الخوض في الذنب والثواب والعقاب محاولين التطرّق إلى أمور أخرى من الدين تصوّراً منهم أن هذا الموضوع يشكل أحد جوانب الدين غير الجميلة! في حين أنه يمثل أحد أروع مفاصل الدين.

أين مكمَن الجمال في مفهوم الذنب والثواب أو الطاعة والمعصية؟

نودّ في هذه المحاضرة أن نتناول مفهوم الذنب والتوبة من زاوية جمالية. نحن نعلم أن الله جميل ولا يفعل ما ليس هو بجميل، وأنه خلَقَنا نحب الجمال. لكن السؤال هو: أين مكمَن الجمال في مفاهيم الذنب والثواب والعقاب، ومفهومَي الطاعة والمعصية، وفي كل هذا الخوض الذي خاضه القرآن الكريم في مفهوم الذنب؟ فنحن – في العادة – لا نرى في هذه الظاهرة جمالاً، أو قل: لا ندرك جمالها! إن أروع لحظات العالم، بعد نزول الوحي، هي لحظات مناجاة أولياء الله لربهم. ولماذا هي أروع لحظات العالم؟ أوّلاً على خلفية جمال نصوص الأدعية. وثانياً بسبب دموع أولياء الله المنسكبة وأنّاتهم البالغة الروعة ساعة المناجاة.. بسبب هذا الغزل الخفيّ الجاري خلف سطور عبارات الدعاء؛ هذا وإن كان أولياء الله لا يبالغون في الغزل وسط الدعاء!.. وما هي مضامين هذه الأدعية والمناجاة؟ إنها تدور في الأعم الأغلب حول الذنوب؛ كأن يقول: «إلهي، اعفُ عني.. لقد ارتكبتُ هذا الجُرم.. نهيتَني عنه، لكنني تسامحتُ..».

يشكّل "الذنب" موضوعَ أجملِ لحظاتِ مناجاة أولياء الله

ما الذي يجعل موضوع الذنب والثواب والعقاب - الذي هو موضوع القرآن الأول - أجمل مواضيع حياة البشر؟ السبب الأول في نظري هو أن موضوعَ أروع لحظات مناجاة أولياء الله هو هذا تحديداً! أفَهَل يأتي أولياء الله بغير الجميل؟! ألم تلاحظ كم هي جميلة محبة الأم لولدها! وأيّ روعة في تعلق الولد بأمه! الكل يعترف بهذا، بل ويتغنّى به. إن أروع لحظات عالم الخلقة، ألا وهي لحظات مناجاة أولياء الله مع ربهم، تدور حول موضوع المعصية، وهو ما يؤشّر على مدى جمال هذا الموضوع! فالكلام حول الذنب جميل من الله من ناحية؛ حيث يشكل الموضوع الرئيس للقرآن، وجميل من العبد من ناحية أخرى، حيث يؤلف الموضوع الأول للدعاء والمناجاة. ألا تلاحظ كم يتغزل أهل البيت(ع) على أعتاب الله أثناء الحديث عن المعاصي؟! كل ما في الأمر هو أننا عادةً لا نستوعب روعة الحديث حول هذا الموضوع!

لماذا كان علي(ع)، وهو الذي لم يقترف إثماً، يُطيل الوقوف على "الذنوب" في مناجاته؟

إننا قد نطرق باب الله تبارك وتعالى مستغفرين ولا نرى أمامنا بُدّاً من الكلام عن معاصينا واستجداء المغفرة منه سبحانه.. نتضايق بعض الشيء لدى طرح هذه الأمور، ولذا نترقب غفران الله لآثامنا كي نغلق هذا الباب، إذ لا نود الوقوف عليه طويلاً! لكن حين نتمعّن في كلمات أمير المؤمنين(ع) لدى مناجاته ربه نراه(ع) وكأنه يفتش عن ذريعة للحديث عن الذنوب! نحن أهل الخطايا لا نحب أن نبوح لله بخطايانا، فما بال علي(ع)، وهو الذي لم يقترف إثماً على الإطلاق، يطرح موضوع الذنوب؟ أي لذة يا ترى في الخوض في موضوع الذنوب لدى مناجاة الله؟ إننا حين نستغفر الله أثناء مناجاته يشقّ علينا عادةً ذلك الجزء الذي يتوجّب أن نحدّث الله فيه عن جُرمنا، ونشعر بالضيق، ونود لو نجتاز هذه الفقرة على عجَل! والحال أنها فرصة ذهبية، وأن باستطاعتنا أن نظل العمر كله نتحدث إلى الله عز وجل حول جُرمنا هذا! بل حتى لو غفره الله لنا، فإنّ في وسعنا كل ليلة أن نناجيه حول الجُرم ذاته وبصور شتّى؛ فنقول مرة: «إلهي، كنتَ غائباً عن بالي حين ارتكبتُه»... ونقول أخرى: «كنتُ ناسياً لأنعُمك إذِ اقترفتُه»... ونقول ثالثة: «الآن إن عفوتَ عني فما عساي أصنع من فرط خجَلي؟!» فكأن العبد ينادي ربه: «إلهي، ماذا سأصنع بعد أن تتجاوز عني يوم القيامة؟ فحين أتذكّر جُرمي، وأراك عفوت عني من غير استحقاق مني، فما عساي أصنع من شدة خجَلي؟!»

أشد علائق العالم غراماً علاقة العبد بمولاه فما هي عقدة هذه العلاقة؟

إلى جانب كل علاقات العالم؛ مثل العلاقة الزوجية، وعلاقة الصداقة، وزَمالة العمل، والعلاقة بين الأب وابنه، وبين الأخ وأخته، ..الخ ثمة نمط آخر من العلاقة هي «علاقة العبد بمولاه»!... المولى مقتدر.. المولى خالق العالم، بل وخالق كل شيء على الإطلاق... فما الذي يملك العبد؟ يملك النقص.. التعلّق.. الحاجة! والآن.. قامَت بين الاثنين علاقة حب؛ علاقة العبد بمولاه! وهذه العلاقة، بالمناسبة، أشد العلائق غراماً!.. إنه أكثر ألوان الحب سخونة!.. وإنه أشد أنواع الحب الذي لا سَأَم منه خلوداً! ولكل علاقة حب عُقدة (نقطة إثارة)، فما هي عقدة علاقة الحب بين العبد ومولاه؟ عقدتُها هي حينما يعطي المولى أمراً، ويعصيه العبد، فيقول الأخير: «عفوك!» وهذا تحديداً يشكل ذريعةً لمبادلة الحب، وعقدةً لرباط الحب هذا بين العبد ومولاه.

علاقة العبد بمولاه محورها موضوع "الطاعة والمعصية والأمر"

إن مولوية المولى هي في أمره لعبده. الله - بالطبع - تربطه مع باقي الكائنات صلة أيضاً، بيد أن صلته بالحيوانات مثلاً هي في أنه يخلقها ويرزقها. أما نحن فعبيد، وعلاقة الله بنا محورُها «الطاعة والمعصية والأمر». إذن لا ينبغي أن نكتفي، إذا ما طرقنا بابه جلّ وعلا، بالكلام في الرزق! فحينما نطيل الكلام في الرزق تصبح علاقتنا بالله وكأنها علاقة الحيوانات به! إذا وقفنا على باب الله تبارك وتعالى فلنتحدث أكثر ما نتحدث عن أصل رباطنا. وما هو محور الرباط بين العبد والمولى؟ هو في أن يأمر المولى ويمتثل العبد. والعبد بالطبع عاجز عن هذا عادةً! فهذا القرآن الكريم يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِه» (آل عمران/١٠٢)؛ أي احرصوا على امتثال أوامر الله تعالى.

إذا أمر المولى وتوانى العبد فُتح باب حوار الحب

يأمرنا الله أنْ: «حاذروا!» لكننا مهما حاذَرنا أفلتَت بعض أوامره منا دون امتثال. ولهذا بالذات تتبلور العقدة في قصة العبد والمولى حيث يجد الطرفان - ضمن علاقة حبهما هذه - ذريعة للحوار وتجاذب أطراف حديث الحب! فيقول العبد: «إلهي، عفوُك!» ويجيب المولى: «لا أعفو عنك!» أو يقول: «سأعفو عنك هذه المرة، لكن لا تكررها ثانية...». ما معناه أن العبد والمولى يتناجيان باستمرار حول موضوع الخطيئة؛ وهذا هو سر العلاقة بين العبد والمولى لمخلوق مثل الإنسان! علاقة الكائنات الحية الأخرى مع الله لا تخرج عن قضية الرزق، في حين أن أساس علاقة الإنسان بربه هو الطاعة والمعصية. فهناك علاقة اسمُها علاقة العبد بمولاه، أحلى خطاب من جانب المولى فيها هو «إصدار الأوامر»، وأجمل كلام من جانب العبد فيها هو «قوله سمعاً وطاعة، واعتذاره». فإن لم نفهم هذه العلاقة لم نستوعب روعة هذا الاعتذار وجمال الحديث حول معصية أمر الله.

انظر إلى الله كمولى لعبد، لا كخالق لحيوان! أمرُ الله لعبده هو عين مبادلته الحب

ما هو أجمل ما يمكن أن يخاطب الله به عبده؟ هو أن يأمره، ويرهبه بالعذاب، ويرغّبه بالثواب... لأن الله مولى... انظر إلى الله من موضع المولى بالنسبة لعبد، لا من موضع الخالق بالنسبة لحيوان! فلنسأل الله أن يذيقنا حلاوة علاقة العبد بالمولى. الله عز وجل، وهو الأشد عشقاً لنبيه(ص)، يوجّه له الأوامر أكثر من غيره. نحن غير لائقين بهذا القرب الشديد من الله كي نتلقى منه كل هذه الأوامر! لقد أوجب الله صلاة الليل على رسوله(ص)! في حين أنه(ص) كان سيداوم عليها بنفسه حتى وإن لم يوجبها ربُّه عليه! فلماذا أوجَبَها الله عليه يا ترى؟ ذلك أن توجيه الله الأوامر لعبده هو عين مبادلته الحب، إذ كان بإمكان الله أن لا يبالي به.

الجميل من المولى "توجيه الأوامر"، والجميل من العبد "الطاعة والاستغفار"!

«الجميل من الأسد الانقضاض ومن الغزال الفرار» (شعر) فمن كل موجود هناك فعل جميل؛ فالجميل من المولى توجيه الأوامر، ومن العبد الطاعة والتوبة والاستغفار. فعندما يتوب العبد يكون قد استقر لتوّه في محلّه المخصص له، وأدرك لتوّه هذا الرباط بين العبد وربه. فالمولى إن لم يأمر ليس هو بمولى أصلاً! بل سيكون كخالق الحيوان يعطيه رزقه وحسب! والعبد - من ناحية أخرى - إن لم يعصِ فسيكون ملاكاً! وكأنه إذا أذنب العبد فرح المولى بعض الشيء؛ لأنه يتوقع أن ينقلب العبد إليه ويأخذ بالاعتذار منه فتتكوّن هذه العلاقة. بمعنى أن العبد يكون قد بلغ العقدة الرئيسة في قصة علاقته بمولاه. قيل للإمام الباقر(ع): إننا ما إن نكون عندك وفي مجلسك «حَتَّى تَرِقَّ قُلُوبُنَا وَتَسْلُوَ أَنْفُسُنَا عَنِ الدُّنْيَا وَيَهُونَ عَلَيْنَا مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ... ثُمَّ نَخْرُجُ مِنْ عِنْدِكَ فَإِذَا صِرْنَا مَعَ النَّاسِ وَالتُّجَّارِ أَحْبَبْنَا الدُّنْيَا» شيئاً فشيئاً وساءَت حالُنا وارتكبنا الخطايا! بدايةً قدّم الإمام(ع) توضيحاً إلى أن قال كما رُوي: «لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ فَتَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَخَلَقَ اللهُ خَلْقاً حَتَّى يُذْنِبُوا ثُمَّ يَسْتَغْفِرُوا اللهَ فَيَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ» (الكافي/ ج٢/ ص٤٢٤)؛ أي إن لم تكونوا من الذين يرتكبون المعاصي ثم يستغفرون الله كان الله سيخلق مثل هؤلاء كي يذنبوا، ثم يسألوا الله المغفرة فيغفر لهم. بل أساساً ما أصبح الله مولى إلا ليعفو! فهو تعالى يأمر، لكننا نعجز عن امتثال جميع أوامره على أحسن وجه، ولذا لا بد أن نعتذر له، وهو تعالى يعفو عنا. هذه هي العقدة الرئيسة لقصة العبد والمولى. ثم يقول الباقر(ع) (ما مضمونه): إن المؤمن يُبتلى بالفتن والامتحانات، فتزلّ قدمه، ثم يتوب: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ مُفَتَّنٌ تَوَّابٌ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» (البقرة/٢٢٢)» (نفس المصدر السابق).

العقدة الرئيسة في علاقة العبد بمولاه هي "توجيه الأمر من المولى" و"استغفار العبد"/ الله يحب استغفار عباده

لا تيأس كل اليأس من ارتكابك الخطيئة بين حين وآخر! لا تدع القنوط يتسلل إليك إثر بضع معاصٍ، بل ادخُل حيّز العلاقة بين العبد والمولى الآخذة بالتبلور، والتي يُعَدّ الاستغفار - بالمناسبة - عُقدتها الرئيسة. كان آية الله بهجت(ره) يقول: «أصل الدعاء هو الاستغفار، لكن الناس أكثر ما تدعو لأمور أخرى لا تتطلب الكثير من الدعاء!» وقال بعض كبار العلماء: «مشاكلك إنما تُحل بالصلاة في أول وقتها، لذا ركّز ساعة الدعاء على الاستغفار». المُدرِكون لجمال العلاقة بين العبد والمولى لا يحبون المعصية، بل يبغضونها، لكنهم مولعون بالاستغفار.. إنهم يستغفرون حتى من دون معصية.. وإن الله يحب استغفار عبده، بل حتى أكثر من عبادته أحياناً! لذا ليس ثمة وليّ من أولياء الله يعرض بين يدي ربه مقدار طاعتِه له، لعِلمه بأن الله لا يعجبه هذا. إن لكل علاقة عُقَداً، وإن عُقَد قصة علاقة الحب بين العبد والمولى هي موضوع الطاعة والمعصية.. الترغيب والترهيب.. أمرُ الله عبدَه واستغفار العبد ربَّه. ولهذا ترى القرآن مشحوناً بمفاهيم الطاعة والمعصية.. ولهذا السبب ترى أولياء الله في مناجاتهم لا يفتأون يذكرون النار ولا يملّون الاستغفار.

ما هي عُقدة العلاقات الأرضية؟

ما هي عُقدة العلاقات الأرضية؟ وما هي عُقدة العلاقة بين الطفل وأمه؟ وما هي عُقدة علاقة الزوجة بزوجها؟ لدى تفحّصك لمضامين أغاني الحب ترى أنهم يتخيلون علاقة حب ثم يبكون عند عُقَدها؛ كأن يقال: «لم تكن وفياً معي، ها أنا أموت كمَداً..!». من عُقَد علاقات الحب هذه الدلال. «بين العاشق والمعشوق الفرق كبير... إذا تدلّل المعشوق فأَظهِر احتياجك إليه (شعر)». قد يستعير العرفاء في الأدب العرفاني من أنماط الحب الأرضية هذه. نسأل الله أن لا تعلق أرواحنا بعُقَد مثل هذه العلاقات؛ ففي الحديث أن مَن لا يحب الله أو ذكره (أي مَن لم تتبلور علاقة العبد والمولى فيه) يعاقبه الله بابتلائه بحب أرضي: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عَنِ الْعِشْقِ قَالَ: قُلُوبٌ خَلَتْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ حُبَّ غَيْرِهِ» (أمالي الصدوق/ ص٦٦٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ٤)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ٠٩/أيار/٢٠١٩ - ٠٣/رمضان/١٤٤٠
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

قضية الدين الأولى ليست هي الأخلاق والمعتقدات، بل محورها "الذنوب"./إننا لم نُخلق لنكون صالحين وناجحين في حياتنا، بل خُلِقنا لإقامة علاقة مع الله./علاقة العبد بالمولى إنما تتبلور في عملية "الأمر والطاعة"./لكي يتولّد فيك حس العبودية ابداً "بامتثال الأوامر".

العلاقة بين العبد والمولى إنما تتبلور في "توجيه الأمر من المولى" و"طاعة العبد". فمن أراد هضم مفهوم العبودية والاقتراب من هدف الخلقة، فإن عليه دوماً أن يقابل أوامر الله "بالسمع والطاعة"! ويرضخ باستمرار لأمر الله وينفّذه ليتبيّن أنه عبدٌ لهذا المولى.

لماذا علينا الاعتذار من الله إذا أذنبنا؟

لماذا يَعُدّ الله تعالى الخطأ الذي يرتكبه الإنسان «معصية» ويجعل له عقاباً؟ لِمَ يسمّي الله خطأنا «ذنباً»، ولماذا يتعيّن علينا، إذا أخطأنا وألحَقنا بأنفسنا نحن ضرراً، التوجّه إلى الله والاعتذار منه؟ «إنني أضرَرتُ بنفسي أنا، فلِمَ علَيَّ الاعتذار من الله؟ لماذا يَدخل الله بنفسه في هذه القضية؟ لِمَ علينا الاعتذار إلى الله إذا أجرَمنا؟ لأنّ الله تعالى قد أمرَنا بفعل الحسنات التي لا بد من فعلها، كما نهانا عن السيئات التي تضرّ بنا. وبما أن الحال هي على هذا النحو فإنني سأواجه أمرين إذا أذنبت: الأول هو الآثار السيئة التي يتركها هذا الذنب عليّ أنا، والثاني هو الاعتذار الذي عليّ تقديمه لله عز وجل.

لماذا يشعر الكثيرون بأن الدين يفرض عليهم إملاءاته؟

إن علينا أن ندرك هذه المسألة بعمق، فإن لم أستوعبها أنا تماماً فلا ينفع أن تُقنعني بالتوحيد والمعاد وعدل الله عز وجل، ولا يجدي أن تقنعني بالنبوة والإمامة أيضاً؛ لأن تديّني لم يصبح حقيقياً بعد! وحتى لو آمنتُ بهذا كله فسأقول: «لقد تواطأ الله ونبيه عليَّ ليؤذياني!» فأنا أرى الله يصدر الأوامر والنبيّ يبلغني إياها، وإن لم أمتثل لأمرِ الله فإنه سيُدخلني جهنّم، وهذا فرضٌ للإملاءات بامتياز!! من هنا يشعر الكثيرون بأن الدين يفرض عليهم إملاءاته! مشكلة الإنسان – المعاصر على الأقل - ليست في أنه: أيوجد في العالم إله أم لا؟ فأكثر سكان الأرض يُقرّون بوجود الله. ليس هذا فحسب، بل ويحبّونه، وقد يناجونه أيضاً! بل وليست مشكلة البشر في أنه هل جاء أنبياء أو لا؟ وإن الذين رفضوا الدين ووقفوا بوجه الأنبياء كانوا – في الحقيقة – مذنبين؛ بذنب الكفر.. بذنب الشرك!

مشكلة الإنسان "الذنب" وليس قبول أصول العقائد من توحيد ونبوة ومعاد!

مشكلة الإنسان ليست في أصل وجود الله تعالى، وأصل النبوة، وأصل المعاد - من الناحيتين الفكرية والعقائدية - بل مشكلته هي مع «الذنوب»، ولا بد من أن يستوعب أنه: لماذا سُمّي خطأ الإنسان «ذنباً» ولماذا يُعاقَب عليه بالنار؟! هذه هي معضلة البشرية. إنك إن تركت الناس وشأنها لقبلَت بأمور كثيرة، كوجود الله على سبيل المثال. ولو تأمّلَت قليلاً لآمنَت أيضاً بالمعاد، وصدّقَت أن حياتنا لا تُختتَم بالدنيا. كما وليست مشكلة الإنسان في قبول أفضلية أنبياء الله وأوليائه على باقي البشر. أي: لو لم يكن موضوع الذنب والثواب مطروحاً ثم قلتَ لأحدهم: «بعض الناس أفضل منك» فسيُقرّ بذلك في أغلب الظن ولا يتضايق، وإنّه إن أقرّ بهذا فقد أقرّ بالأنبياء والأئمة أيضاً.

مشكلة معارضي الأنبياء كانت أيضاً "الذنب"؛ فحينما لا تنصاع "لأمر الله ورسوله" فهذا ذنب!

مشكلة الإنسان هي قضية القرآن الجوهرية ذاتها؛ وهي: «لماذا تُذنب؟» فالإنسان، إلى ما قبل هذه المرحلة، لا اعتراض لديه عادةً؛ فهو يعترف أنه «أخطأ»، وعليه تدارك خطئه، وأنْ يحاول أن لا يكرّره، وأنّ خطأه يُلحق به الضرر. المشكلة تبدأ حينما يلصق الله عز وجل بخطأ الإنسان هذا عنوان «الذنب»! ولذا فإنه حينما يأتي نبي ويرسم لهذا الإنسان خطوط المعصية والثواب فإنه يثور ضد هذا النبي، بل وقد يذهب إلى إنزال الله من عرش ربوبيته أيضاً! فإن قلت له: «ثمة إله ليس في دينه ذنب وثواب» فسوف لا تكون له مع هذا الأخير مشكلة! يقول تعالى في قرآنه الكريم: كلما جاءهم رسول بأمر من الله لا تهواه أنفسهم فإما أن يقتلوه وإما أن يكذّبوه: «كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ» (المائدة/٧٠). على أنهم كانوا يذعنون حقاً بأن هذا الرسول لا يكذب، لكن بما أنهم لم يكونوا راغبين في اتّباع «أمره» فقد كانوا يقتلونه أو يكذّبونه. مشكلتهم مع النبي كانت في أنه يأمرهم وينهاهم نيابةً عن الله سبحانه وأنهم إن لم ينصاعوا إليه عُدَّ عدم انصياعهم هذا «ذنباً»!

محل نزاع البشر هو "الأمر بالطاعة وعدم المعصية" وليس قبول أفضلية أولياء الله

محل نزاع البشر لم يكن حتى القبول بأفضلية أولياء الله، بل كان الذنب! ألم يكن رسول الله(ص) قبل أن يُبعث بالنبوة رجلاً صالحاً؟ بلى. ألم يكن أفضل شبّان مكة؟ بلى. ألم يكن الناس مُقرّين بأنه(ص) أفضل منهم جميعاً؟ بلى كانوا مُقرّين. لكن الويل من تلك اللحظة التي يصبح فيها هذا النبي هو الناهي عن الذنب، والآمر بالثواب، والمعيِّن لحدود الطاعة والمعصية! من هذه النقطة تحديداً يبدأ النزاع! وليس موضع النزاع أن البشر لا يُقرّون بخطئهم! بل إنهم غالباً ما يذعنون بأن أخطاءهم تُلحِق بهم هُم الأذى، بل إنك لتجد أكثرهم يسأل الله أنْ: «إلهي، تعال أنت وأصلح خطئي!»

قولي: "ليس لي دين" معناه أني لا أريد أن أعترف بوجود الذنب!

حول أي شيء يدور النزاع بين التديّن وعدم التديّن؟ حينما تسأل أحدهم: «هل أنت متديّن أم لا؟» ويجيبك: «كلا، لستُ متديناً» فما سبب جوابه هذا؟ عادةً مشكلة شخص كهذا ليست الاعتقاد بالله وبالنبي وما إلى ذلك! فعندما يقول: «أنا لستُ متديّناً» فهو يعني: «لا أريد أن أُقرّ بوجود شيء اسمه الذنب.. دعني وشأني!» ومن ناحية أخرى، فإن المتديّن هو الذي يُقِرّ بأن بعض الأفعال هي «معاصٍ». كما أن مناجاة أهل البيت(ع) هي الأخرى تقوم على أنه: «إلهي عفوك، لقد أجرَمتُ!»

حتى مشاكل البشر العقائدية، "كالشرك"، يضعها الله في خانة "الذنوب"!

النزاع في القرآن الكريم أيضاً يدور حول الذنب وعدمه. بل إن الله – أساساً - يضع المشاكل العقائدية للبشر في خانة «الذنوب» أيضاً؛ فالشرك، حسب المنطق الإلهي مثلاً، ذنب عظيم لا يُغتفَر! فإذا استثنينا الشرك الذي هو بمعنى عدم الإخلاص، فإن كل شرك عقائدي، وكل إنكار لحقائق العالم، وكل رفض للعقائد يسمّيه الله «ذنباً!» نحن نعي أن بعض الخطايا هي ذنوب؛ فالجميع يدرك أن إنزال الظلم بالمظلوم، مثلاً، ذنب ويقبّحُه أيضاً. لكن ثمة أمور لا ندرك ما هو الداعي لكونها ذنوباً؛ مثل بعض الاعوجاجات العقائدية (كالشرك والكفر).

قضية الدين الأولى ليست هي الأخلاق والمعتقدات، بل محورها "الذنوب"

كما قد تقدم فإن قضية الدين الأولى ليست هي المعتقدات أيضاً، بل الكلام يدور حول الذنب، وفيما إذا كان البشر يُقرّ بهذا أو لا. كما أن قضية الدين الرئيسة ليست هي الأخلاق أيضاً، بل إن محورها هو الذنب! فلو أزَحتَ موضوع الذنب والثواب جانباً وقلتَ: «الخلُق الفلاني سيّئ» وافقك الكثيرون. معظم الأفلام أيضاً تُظهِر الأخلاق الحسنة والقبيحة. وإن أرادوك أن تقول: «هذه الشخصية شخصية سيئة» أبرَزوا فيها بضع أخلاقيات سيئة. لكن لا أحد يصبح متديّناً بهذه المواضيع الأخلاقية! الجميع يوافقك الرأي إذا قلت: «أَنْ يبذل المرء ويعطي فهو شيء حسَن من الناحية الخلُقية»، لكن ما إن تقول: «عدم دفع المرء خُمسَ ماله وزكاته هو ذنب وهو يجعل لقمته حراماً» حتى يندلع النزاع! والجميع يذعن بأن السخاء وإعانة الفقراء أمر حسَن، وأن البخل بذيء أخلاقياً لكن ما إن يُؤَطَّر خلُق السخاء هذا بإطار شرعي فيقال: «يتوجّب أن تدفع خُمس مالك وإلا حرُمَت لقمتُك!» حتى يقوم النزاع من أنه: «ما هذا الإكراه من الدين للإنسان؟!»

لم يكن للمعارضين مشكلة مع أخلاق الأنبياء، بل كان النزاع حول احترام حدود الله التي يضعها الأنبياء(ع)

ما المشكلة التي كانت للناس مع الأنبياء؟ لِمَ كانوا يقتلونهم؟ لم تكن للناس مع الأنبياء مشكلة في البُعد الأخلاقي، بل كان النزاع حول احترام حدود الله وما يشرّعه الأنبياء من الحلال والحرام. حتى نحن طلبة الدين يُقال لنا أحياناً: «هلُمّ وكن صالحاً.. تكلّم عن الصلاح، لا عن الدين!» وصاحب العِمَّة الذي لا يتحدث إلا في الأخلاق والعقائد يحبه الجميع، لكن ما إن يخوض في حدود الله حتى تنطلق الآراء المعاكسة ضدّها! نزاع الناس الجوهري مع أنبياء الله كان على خلفية أن كلام الأنبياء لم يكن أخلاقياً محضاً. بل – أساساً - لو أراد أنبياء الله الخوض في الأخلاق فقط لما لزم أن يصبحوا أنبياء! فلقمان الحكيم كان يتكلم كلاماً أخلاقياً غاية في الروعة ولم يكن يُثار حوله نزاع ومعارضة.

حول ماذا كان النزاع الأساسي للدين مع مؤيديه ومعارضيه؟

حول ماذا كان النزاع الأساسي للدين مع مناوئيه، بل مع جمهوره، بل وحتى مع المتدينين؟ كان نزاعه معهم حول الحدود التي يضعها الله تحت عنوان الذنب والطاعة.. تحت عنوان أوامره ونواهيه! من هنا يندلع الصراع؛ بدءاً من الصراع الداخلي ووصولاً إلى الصراع الخارجي. هذه هي العقدة (نقطة الإثارة والصراع) الأساسية للقرآن ولحياة البشر. وحتى أولياء الله فإنهم حينما يسكبون الدموع عند أعتاب ربهم فإن حديثهم يدور دوماً حول هذا الموضوع. بل لقد جعل الله تعالى علاقته بعباده حول محور هذه العقدة، وهو أنه: «هل أذنبتَ؟ هل أطعتَ؟ هل عَصَيت؟» ولا يقف الأمر عند الطاعة والمعصية فقط، بل تُستأنف القصة من جديد إذا أطعتَ فيقول لك: «إن أطعتَني فأخلِص لي في طاعتك.. فلا بد أن أقبل أنا بهذه الطاعة!» فالله يريد أن تدور علاقته بعبده في هذا الفلَك! حينما خطب رسول الله(ص) معرّفاً بشهر رمضان المبارك قام أمير المؤمنين(ع) فقال كما في الخبر: «يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَفْضَلُ الأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ؟ فَقَالَ(ص): يَا أَبَا الْحَسَنِ، أَفْضَلُ الأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْوَرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَ» (أمالي الصدوق/ ص٩٥).

هل نحن مُقرّون كل الإقرار بموضوع الذنب من الناحية القلبية (لا الاعتقادية فقط)؟

هل نحن مُقرّون بموضوع الذنب والثواب من حيث الاعتقاد؟ أجل، لا بد أن نكون مُقرّين به لنكون هنا الساعة! لكن أنُقرّ به كل الإقرار حتى من الناحية القلبية أم لا؟ هذا ما علينا أن نشتغل عليه. فإن اشتغَلنا عليه فإننا سنفرح في حياتنا لقضيةٍ، وهي عدم ارتكاب المعاصي! كما رُوي عن أمير المؤمنين(ع): «كُلُّ يَوْمٍ لا يُعْصَى اللهُ فِيهِ فَهُوَ يَوْمُ عِيد» (نهج البلاغة/ الحكمة٤٢٨). فهل نحن هكذا حقاً؟ هل نُقرّ نحن بهذا؟ نسأل الله تعالى أن يقنعنا بقضية الذنب. فإنّ من يصل إلى قناعة حقيقية بخصوص الذنب فسيكون الكفّ عن المعصية بالنسبة له من الأهمية ما يجعله يضطرب إذا اقتربَت منه.

إننا لم نُخلق لنكون صالحين وناجحين في حياتنا، بل خُلِقنا لإقامة علاقة بالله

إننا لم نأتِ إلى هذه الدنيا لنكون صالحين! بل ولم نُخلق لنجتنب ارتكاب الأخطاء أيضاً! فالإنسان لا يقتنع بهذا. كما أننا لم نُخلق لنكون ناجحين في حياتنا. فما إن تبلغ نجاحاً ما حتى ترى أنه ليس شيئاً، ويبدأ صدرك بالانقباض تدريجياً. فلماذا تُسجَّل أعلى نسبة كآبة بين الطلاب المقبولين باختبار الثانوية العامة؟ لأن المرء ما إن يصيب نجاحاً حتى يقول في ذات نفسه: «ثم ماذا؟!» ما من نجاح أو كمال تصله في هذه الدنيا حتى يغمر الحزنُ قلبك، اللهم إلا إذا أفسدت روحك وخدعت نفسك! فإن كنت إنساناً سليماً فسينقبض صدرك ويجتاحك الحزن مع أي نجاح تبلغُه في الدنيا؛ ذلك أننا أصلاً لم نُخلق لهذه الأمور ولا نقتنع بأي منها. إننا لم نُخلق لنكون صلحاء، فلنحاذر من أن يدُلّونا على العنوان الخطأ! نحن إنما خُلقنا للاتصال بالله تعالى!

علاقة العبد والمولى تتبلور في "الأمر والطاعة"

علاقتنا بالله عز وجل هي علاقة العبد بمولاه، وعلاقة العبد بالمولى إنما تتبلور في «الأمر» و«الطاعة»، ولا غير! إننا لم نُخلق لنصبح صالحين، بل خُلِقنا لنقيم علاقة بمولانا.. خُلِقنا من أجل تحقق شيء اسمه «العبودية»! ولا يتحقق هذا بحضور درس في العقائد وإدراك «أنني عبد وهو مولى»، بل من خلال التمرين.. تمرين طاعة أمر المولى! قل: «إلهي، سأظل أطيع أوامرك حتى أذوق طعم العبودية!»

"للتمرّن على العبودية" علينا الاستمرار في قبول أوامر الله وتنفيذها

من أجل أن نستوعب ذهنياً مسألة العبودية ونقترب من هدف الخلقة فإن علينا الاستمرار بالرضوخ لأوامر الله وتنفيذها. فمن أراد استيعاب مفهوم العبودية فلا بد أن يقابل أمر الله دوماً بالقول: «سمعاً وطاعة!».. عليه أن ينفّذ أوامره عز وجل على نحو موصول ليُعلَم أنه عبدُ هذا المولى! كما يتوجّب عليه الوقوف بوجه كل من يحاول التسلط عليه. شخصٌ كهذا لا ينفك يهتف «الموت لأمريكا» ليتضح أنه يأبى أن يكون عبداً للطاغوت. فالذي يكون عبداً لله لا يسعه أن يُقرّ بسلطة مستعمري العالم.. العبودية لله تنفي العبودية لغيره؛ وهي لهذا تستبطن في ذاتها الثورية أيضاً. فلماذا قُمنا بالثورة؟ لأنه لا يمكننا أن نكون عبيداً لغير الله!.. الآخرون يريدون استعبادنا.. وعلينا التمرّس على عدم الرقّ للطاغوت، والتمرّن على العبودية لله!

لماذا يلتذ العبد بتلقي أوامر المولى ونواهيه؟

حينما يقوى حِسّ العبودية في الإنسان يسعى الأخير دوماً لاستغفار مولاه والاعتذار منه، وهذا من جملة الأعراض الذاتية لحس العبودية؛ فالعبد سيشعر دوماً بالتقصير أمام مولاه. أهم ما يود العبد تلقّيه من مولاه هو «الأمر والنهي»، وهو يلتذ لتلقيه أمر مولاه ونهيه، إذ سيشعر أن مولاه يعدّه آدميّاً. فالعبد إن لم يتلَقَّ هذا من ربه سيتضايق قائلاً: «إلهي، ألم تعُد تعتبر لي حساباً؟!»

ابدأ "بتنفيذ الأوامر" وسيدبّ حس العبودية في وجودك

العُقدة الرئيسة في الدين هي الذنب والثواب. فماذا نصنع لكي نستوعب هذه المسألة؟ لقد أعلن الله تعالى لائحة المعاصي، كما أصدر قائمة بالطاعات والمستحبات والمكروهات أيضاً. فاشرَع «بتنفيذ الأوامر» وسيدب حس العبودية في وجودك. هل شاهدت بعضهم يتصرف كالمتسوّل ويمد يد المسألة أينما ذهب؟ هذا فعل قبيح للغاية. البعض الآخر يتسوّل ويستعطي على باب الله عز وجل. والاستجداء على باب الله وإن كان في غاية الروعة لكننا نُفسِده؛ بمعنى أن البعض لا يبغي إذا طرق باب الله سوى أن ينال شيئاً ومن ثم يرحل! والله يسخر من أمثال هؤلاء في قرآنه الكريم من أنهم إذا ضربهم وسط البحر إعصار أخلصوا الدعاء أن: «إلهي، نجني!» لكن ما إن يطأوا بَرّ الأمان يُشركوا! أمثال هولاء لا يبحثون عن العبودية: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ» (العنكبوت/٦٥). ماذا نصنع لكي ينشأ في قلوبنا الشيء الذي خُلقنا لأجله، وهو العبودية والاتصال بالله؟ فإن نَشَأَ هذا في قلوبنا توجّهنا إلى الله سائلين إياه: «إلهي، ما هو الذنب؟ ما الذي نهيتَ عنه؟» أي إننا سنتوق إلى تلقي الأوامر والنواهي من الله تعالى. وعندها سنسعَد إذا تلَوا علينا أحكام الدين، وسنُسَر إذا أتينا بالواجبات.. ستتلفَّت أعيننا بحثاً عن مواقف الواجب والحرام.. ثم ستُفتح باب الاستغفار، إلى درجة أنك ستخصص كل أوقات فراغك للاستغفار وتلتذ لذلك.

يقول إمامنا السجاد(ع) في «دعاء أبي حمزة الثمالي»: «يَا مَوْلايَ بِذِكْرِكَ عَاشَ قَلْبِي» (إقبال الأعمال/ ج١/ ص٧٣). فبماذا يخاطب أولياء الله لدى ذكر ربهم وهم يلتذون بذكره كل هذه اللذة؟ أكثر دعائهم «الاستغفار»: «إلهي، اعفُ عني..» وهم يلتذون بهذا كل لذة! لا تظن أنهم يتألّمون! ولا يذهب بك التصوُّر إلى أنه: «ما أصعب هذا الدين! إنّ على المرء أن لا ينفَكّ يعتذر!» كلا.. فأولياء الله يستغفرون حتى من دون معصية! إنهم يستغفرون مع الطاعة أيضاً قائلين: «إلهي، لم أستطع تنفيذ أمرك كما ينبغي، فاعفُ عني!» وكأنه لا حاجة لهم إذا مَثَلوا بين يدي ربهم سوى الاستغفار والاعتذار!

لقد فرض الله الواجب والحرام ليرى "أتحب أن تكون عبده أم لا؟"

روي عن الإمام الصادق(ع) قوله: «إِنَّ اللهَ بِمَنِّهِ وَرَحْمَتِهِ لَمَّا فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْفَرَائِضَ لَمْ يَفْرِضْ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ لِحَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْكُمْ بَلْ بِرَحْمَةٍ مِنْه» (تحف العقول/ ص٤٨٥)؛ أي إن الله إنما يُنَشّئ عبده من خلال فَرضِه الواجب والحرام، وإنك لا تقنع ولا تتزن بأقل من «التعبّد» له عز وجل! وفي تتمة الرواية: «لِيَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَلِيَبْتَلِيَ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ لِتُسَابِقُوا إِلَى رَحْمَةِ اللهِ» (المصدر السابق)؛ فالله إنما أوجب ذلك علينا ليتّضح ما في أعماقنا! وماذا ينبغي أن يكون في أعماقنا؟ ما ينبغي أن يكون في أعماقنا هو: «أتحب أن تكون عبداً لله أم لا؟ هل وقفتَ على إنسانيتك وحقيقتك أو لا؟ هل اكتشفتَ هذا الفراغ الكبير فيك أو لا؟.. أيّ فراغ؟ فراغ أنه: «أريد ربّاً يوجّه إليّ الأوامر»، وليس أن تكتشف بأن «هناك ربّاً!» فمن المعلوم أن هناك رباً!.. وإنك لا تنمو وتتكامل إن علمتَ أن هناك ربّاً! بل عليك أن تصل إلى مرحلة أنه: «أُحبّ أن أكون عبداً، وأن يوجّه مولاي لي الأوامر!» الله إنّما يوجّه إليك الأوامر ليرى ما يضمره قلبُك؟ فإن تملّصتَ من أوامره اتضح أنك لم تصبح بعدُ عبداً، أو لا تريد أن تصير عبداً!

عندما تولَع في أمر مولاك ونهيه ستحب أن تعتذر منه دوماً

إذا بلغتَ يوماً ما مرحلةَ أن تقول: «إلهي، يلذ لي أن تأمرني وتنهاني!» فهذا يعني أنك تحب أن يرسم لك الله حدود الذنب. أتعلم إلى أين ستصل بهذا؟ إنك ستصل إلى حيث تحب أن تطرق باب ربك دوماً قائلاً: «إلهي، أستميحك عذرا!.. لقد عجزتُ عن تنفيذ أوامرك بدقة.. لكن استمر أنت في توجيه الأوامر لي!» إن باستطاعة كل من أحب رؤية مغازلة الله له أن يراها في لحظة خاصة؛ وهي أن يقف على أعتاب ربه مخاطباً إياه: «إلهي، أرجو المعذرة... أعتذر إذ لم أنجز طاعاتي على نحو صحيح... العفو إذ أجرمتُ...» فالله نفسه يقول: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ» (البقرة/٢٢٢). «العبيد» من الناس يودّون بشدة أن يتقربوا أكثر من مولاهم، وإنّ نظرةً طفيفة جداً من مولاهم هي عندهم في منتهى الأهمية. وإنّ تساؤلات من قبيل: «ما مقدار رضى المولى عنّي؟»، و»هل زاد رضاه عني أو لا؟» تثير فيهم من الهياج والغرام واللذة ما لا حد له!

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ٥)

عليرضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ١٠/أيار/٢٠١٩ ـ ٠٤/رمضان/١٤٤٠
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

لماذا إقناع الإنسان بترك المعصية صعب؟/ الدين لا هو مُرّ ولا صعب، لكنه عميق!/ الفهم العميق للدين محوره أن "أقتنع بأن لا أُذنب"/ الفقه المطلوب لبيان الدين وعرضه على الناس أعمق من الفقه المطلوب لاستنباط الأحكام الشرعية

إقناع المرء بالإقلاع عن الذنب أمر صعب لسببين: الأول هو أن الإقلاع عن الذنب يرتبط باحتياج عميق لدى الإنسان وأنت لا تدرك احتياجك العميق هذا بسهولة. والثاني هو أنّ عليك، من أجل الكف عن المعصية، أن تقف بوجه احتياج سطحي من احتياجاتك ليس من السهل عليك غض الطرف عنه، اللهمّ إلا أن تدرك تماماً ما الحكاية لتكون حاضراً للإقلاع عن الذنب.

لماذا يحتاج التديّن إلى كل هذا القَدر من الدعوة والتبيين؟/ علامَ يُتّخَذ الدين هُزواً ويُستهزأ به كل هذا الاستهزاء؟

لماذا يحتاج التديّن إلى كل هذا القدر من الدعوة، والتبيين، والتعليم، والتفهيم؟ أيقود الدين إلى اعوجاجٍ في الفهم وسوءٍ في التفسير مما يحتّم علينا دوماً إزالة هذا الاعوجاج؟ هل الدين عَصِيّ على التقبّل وإنّ علينا مضاعفة الدعوة إليه ونشر تعاليمه ليصبح متقبَّلاً؟ هل التديّن شديد المرارة وإننا نسعى - عبر التبليغ والتبيين - إلى جعله حلواً وعذباً؟ لماذا يتطلب تبليغ الدين وتعليمه كل هذه الجهود؟ لِمَ يتحتّم علينا إنفاق كل هذا الوقت لنقتنع بالتديّن؟ من ناحية أخرى، لماذا يُتّخَذ الدين - أكثر من أي مقولة أخرى - هُزواً ويُستهزَأ به في المجتمعات البشرية؟ وهو الأمر القائم منذ الأزل والذي أشار إليه القرآن الكريم مراراً وتكراراً. لماذا الهجوم على التديّن شرس إلى حد بعيد؟ ما الذي يدعو البعض إذا سمع كلاماً دينيّاً إلى السخرية منه بكل بساطة، بل وقد يتّهم المتدينين بأنهم جَهَلَة لا عقل لهم؟

الدين بحاجة إلى بيان لأنه عميق الغور / العقول الضحلة لا تفهم الدين فتسخر منه

الجواب على السؤالَين أعلاه واحد وهو أن احتياج الدين إلى كل هذا التبليغ والتبيين يعود إلى أن الدين عميق الأغوار، لا يأخذ بنظر الاعتبار حاضر الإنسان فحسب، بل مستقبله أيضاً. فالإنسان مخلوق خالد يرمي بطرفه إلى ما لا نهاية، وهو لا يرى أغلب حاجاته المستورة، أما الدين فيراها، ولهذا تراه يطرح خطاباً لا يدركه الإنسان، بل وقد يسخر منه أيضاً. إن تعاليم الدين عميقة ومعقدة إلى أبعد الحدود وقد تبدو للسطحيّين مثيرة للسخرية؛ ذلك أن العقول الضحلة الصغيرة التي لا تبصر إلا الظواهر لا تدرك تعاليم الدين، وهي لذلك قد تراها غير عقلائية، بل وتعتبرها مضرّة بالبشر! فقد ينبري مثلاً بعض الجُهّال قائلين عن الصوم: «الامتناع عن شرب الماء ١٢ ساعة يضرّ بالبدن!» في حين تقول جماعة من الأطباء الأجانب بعد سنوات من البحث والدراسة: «لقد أجرينا دراسة على الموضوع فوجدنا العكس؛ وهو أن الصوم مفيد للبدن أيما فائدة ومن الخطأ تماماً القول: إن الامتناع عن شرب الماء ١٢ ساعة يضرّ بالبدن!»

الإنسان مخلوق عميق الأغوار له احتياجات خفية معقدة ولهذا فإن الدين عميق الغور أيضاً

تعاليم الدين إنما صُمّمَت للإنسان، وبما أن الإنسان مخلوق ذو أغوار عميقة جداً وله احتياجات معقدة خفية فحينما يأتي الدين محاولاً تلبية هذه الاحتياجات فإنه لا يُدرَك بسهولة، ومن هنا يتعيّن على المرء التأمّل في الدين طويلاً لإقناع نفسه به. البعض، مع الأسف، يعرض الدين بشكل يترك انطباعاً بأنه شيء سطحي وبسيط جداً! في حين أن الإنسان بحاجة إلى جهد كبير ليستوعب الدين بعمق ويقتنع به حق الاقتناع. فالدين أمرٌ ينُمّ عن ذكاء كبير، ولذا ترى الأذكياء متدينين.. وسيأتي يوم على المجتمع البشري يقول فيه الناس إذا رأوا متديّناً: «ما أذكاه من إنسان!» وإذا شاهدوا غير متديّن: «أيّ جاهل هذا!» هذا الأمر غير متعارف في ثقافتنا الحالية على الإطلاق، في حين أنه منطق القرآن إذ يقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُون» (البقرة/١٣)؛ فالذين لا يؤمنون ينعتون المؤمنين «بالسفاهة والجهل!» فيرد الله عليهم: «إنهم هم السفهاء والجهال. كما يقول عز من قائل في موضع آخر: لا يرغب عن هذا الدين إلا الجاهل: «وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَه» (البقرة/١٣٠).

لقد فشلنا إلى الآن في إيصال المجتمع إلى قناعة بأنه: «بما أن الدين عميق الأغوار فقد يظل منعزلاً؛ شأن العاقل الذي يعيش وسط السفهاء، إذا يظل - عادةً - وحيداً لا يعي الناس ما يقول، بل ويسخرون منه!»

لماذا ينبغي لمن يريد ممارسة الدين أن يفهم الدين بعمق؟

لماذا ينبغي لمن يريد ممارسة الدين أن يفهم الدين بعمق؟ السبب هو أن خطاب الدين خطاب عميق وهو يتعارض مع بعض احتياجات الإنسان السطحية والابتدائية. فإن أراد الإنسان الاقتناع بقضية التديّن فسيكون بحاجة إلى جهد فكري عميق. إذن الدين – أولاً – يلبي احتياجات الإنسان العميقة، فإن لم تلمس هذا النمط من احتياجاتك لم تشعر بالحاجة إلى الدين. والدين – ثانياً – قد يجابه بعض احتياجاتك السطحية قائلاً: «تخلَّ عن احتياجك هذا فهو ليس مُهمّاً في الوقت الحاضر»، لكنك لا تتخلّى عن هذه الاحتياجات، فيبدأ الصراع. لهذا بالذات نحن بحاجة - إذا أردنا أن نتديّن - إلى فهم عميق للدين وإلا فسوف لا نقتنع به. وكل إنسان هو بحاجة إلى مثل هذا الفهم العميق للدين؛ فلا تتصورَنّ أن بالإمكان تحويل الدين إلى طائفة من القضايا الثقافية (كتقاليد النوروز مثلاً) لعلاج هذه المعضلة إلى الأبد! فمشكلة الدين هذه لا تُحَلّ (بهذه الطريقة) على الإطلاق؛ لأن على كل فرد أن يصل إلى هذه القناعة.

على كل إنسان ليكون متديّناً أن يبلُغ هذه القناعة بمعزل عن غيره

لا يمكن للدين أن يتحول إلى ثقافة. نعم من الممكن لأجزاء من الدين أن تتحول إلى عادات؛ كارتداء الثياب السود في شهر محرم، ...إلخ، غير أن ذلك القسم من الدين الذي لا يتحول في الغالب إلى ثقافة، والذي يتعيّن فيه على كل شخص أن يقرّر على انفراد كيف يتديّن، هو قسم الطاعة والمعصية. الكثير من أنماط السلوك إذا تحولت إلى ثقافة مارسها الجميع، أما الدين فليس هو كذلك. من هنا فإنه يتعين على كل من يحب أن يكون ذا دين أن يُوصل نفسَه إلى هذه القناعة بمعزل عن الآخرين. على سبيل المثال: فائدة الترفيه عن النفس والاستفادة من الطبيعة أيام النوروز (الربيع) معلومة وملموسة للناس كافة، ولذا ترى الجميع يستفيد من الطبيعة في هذه الأيام وليس ثمة حاجة إلى المبالغة في توضيح هذه الفائدة للناس وإقناعهم بها.

يضعك الدين كل عام أمام ظاهرة اسمها الصيام وشهر رمضان المبارك. ولشهر رمضان – أولاً – أثر عميق، لكن من المتعذّر علينا إدراك طبيعة هذا الأثر بسهولة كي نحب الصيام! ثانياً: حين يقال: «تخَلَّ عن احتياجك السطحي الابتدائي هذا – وهو الأكل والشرب – لفترة معيّنة!» فإن كل إنسان يرغب في الامتناع عن الأكل والشرب سيدخل في صراع وهو، لهذا، بحاجة إلى فهم عميق ليقتنع بالصيام. من هنا فإن الصيام لا يتحول بهذه البساطة إلى ثقافة، وهو ليس مما يقبله الجميع ويمارسه عن طيب خاطر؛ أي إنه ليس كتقليد «النوروز» الذي يقبله الكل ويمارسه بكل سهولة.

الدين لا هو مر ولا صعب، لكنه عميق!/ عليك أن تُقنع نفسك بعُمقِ الدين كي تسهُل عليك ممارسته

لماذا يتحتم علينا إنفاق كل هذا الوقت لنقتنع بالتديّن؟ هل التديّن شديد المرارة وإننا نسعى – عبر التبليغ والتبيين – إلى جعله حلواً وعذباً؟ الدين لا هو مر ولا صعب؛ لكنه عميق! فالدين ليس أمراً شاقاً لا يمارسه إلا جماعة خاصة أو نمط معيّن من الناس. فلا يسعنا القول بأن الدين صعب، بل هو سهل، لكنه عميق! وإنك حينما تدرك الشيء العميق يصبح سهلاً عليك. وعلى من أراد التديّن أن يقنع نفسَه بعمق الدين هذا كي يسهل عليه ممارسته. ومن هنا فإن فهم الدين، بالمعنى الحقيقي للكلمة، يحتاج إلى جهد.

لماذا إقناع الإنسان بترك المعصية صعب؟

عندما نتحدث عن «فهم الدين» فإن أغلب التعاليم الدينية المُعطاة في المدرسة والجامعة غير مقصودة هنا! بل مرادنا من فهم الدين هو «اقتناع الإنسان بأن الفعل الفلاني ذنب ولا يجوز إتيانه!» وإنّ إقناع الإنسان بهذا أمرٌ صعب أيضاً لسببين: الأول هو أن الإقلاع عن الذنب يرتبط باحتياج عميق من احتياجاتك وأنت لا تدرك احتياجك العميق هذا بسهولة. والثاني هو أن عليك، من أجل الكف عن المعصية، أن تقف بوجه احتياج سطحي من احتياجاتك ليس من السهل عليك غض الطرف عنه، اللهمّ إلا أن تدرك تماماً ما الحكاية لتكون حاضراً للإقلاع عن الذنب.

«لماذا لا يجوز لي ارتكاب هذه المعصية؟» إقناع الإنسان بترك معصية أمر صعب؛ لأنها قضية عميقة. إذن الدين ليس صعباً، لكنّ العمق الذي فيه يجعل إقناع المرء بالتديّن والكف عن الذنب شاق. فإن أدركنا هذا العمق فسيسهل علينا التديّن، بل وسيكون جذاباً أيضاً. ولقد أُطلق في الآيات والأحاديث على «الفهم العميق للدين» مصطلح «الفقه»، ففقهُك للشيء هو «فهمُك العميق له»، وليس مجرد علمك به واطلاعك عليه! فالفقه ليس علماً سطحياً، وهو لا يتأتّى بالإخبار، بل هو معرفةُ الطبقات الباطنية للحقيقة التي لا تبدو بشكل ظاهر.

محور الفهم العميق للدين هو "اقتناعي بالكف عن الذنب"

روي عن الإمام الصادق(ع) أنه قال: «لا يَسْتَكْمِلُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى تَكُونَ فِيهِ خِصَالٌ ثَلَاثٌ: الْفِقْهُ فِي الدِّينِ، وَحُسْنُ التَّقْدِيرِ فِي الْمَعِيشَةِ، وَالصَّبْرُ عَلَى الرَّزَايَا» (تحف العقول/ ص٣٢٤)؛ أي أولاً: أن يمتلك فهماً عميقاً للدين، وثانياً: أن يتمتع بحسن التدبير وكسب المال والعيش عيشاً جيداً (أي إنّ هذا يمثل ثلث الطريق إلى كمال الإيمان)، وثالثاً: أن يصبر عند الشدائد.أنْ يزوّدوك بلائحة بالمعاصي وأخرى بالحسنات، فهذا ليس فَهْماً عميقاً للدين!... أن تتعلّم الرسالة العملية فحسب، فهذا فَهمٌ سطحي للدين!... أما الفهم العميق للدين فمحوره هو «أن أقتنع بأن لا أُذنب». واللافت هو أن معظم الآيات القرآنية تصب في هذا الوادي؛ وهو إقناعنا بعدم المعصية! فالآيات التي تتحدث عن الأحكام الدينية لا تزيد عن مائة آية، في حين أن ما يزيد على ستة آلاف آية قرآنية هدفها إقناعنا بالتديّن! روي عن الإمام الباقر(ع) قوله: «لَوْ أُتِيتُ بِشَابٍّ مِنْ شَبَابِ الشِّيعَةِ لا يَتَفَقَّهُ لأَدَّبْتُهُ» (المحاسن/ ج١/ ص٢٢٨). وفي رواية أخرى: «لأَوْجَعْتُه» عوضاً عن «لأَدَّبْتُه»؛ أي لضربته وعاقبته حتى أُوجِعَه! لماذا ينبغي لكل شاب أن يتفقه في الدين؟ لأن على كل شاب أن يقتنع على حِدَة بأنه: «لماذا لا يجوز لي أن أُذنب؟» ولمّا كانت هذه المسألة معقدة فإن على الشاب أن يتحول إلى عنصر متعمق ليقتنع بهذا. فمهما أتيتَ النفسَ الأمّارة بالدليل أفلتَت منه متذرّعة بذريعة، لذا لا بد أن تكرّر عليها الدليل تلو الدليل وتحاصرها حتى تستسلم وترضخ. فإن على كل امرئ أن يقوم بجهد فقهي لكي يقتنع بأنه: «لماذا لا يجوز لي أن أذنب؟ بل – أساساً - لماذا أصدر الله الأوامر وجعلَ الذنب والثواب؟»

قولنا: "على الشاب أن يتفقّه في الدين بعمق" يعني أن يفهم بعمق: "لِمَ لا يجوز لي أن أذنب؟"

قولنا: «على الشاب أن يتفقّه في الدين بعمق» لا يعني أن يُزوّدوه بطبقة سطحية من المعلومات الدينية أو بمعلومات دينية سطحية ليحفظها!» كلا.. بل عليه أن يفهم الدين بعمق، والمصداق الأفضل والأهم لفهم الدين بعمق هو أن يفهم بشكل عميق «لِمَ لا يجوز لي أن أُذنب؟» فإن لم يدرك هذا كان كل ما يدركه فرعياً! وإن كان جوابه على سؤال: «لِمَ لا يجوز لي أن أُذنب؟» هو: «لأن الله أمرني بهذا وإن لم أمتثل فإن مصيري نار جهنم!» فهذا ليس فهماً عميقاً! ولا أحد يقتنع بهذا الكلام ببساطة! وإنِ اقتنعَ به أحد فسأشك باقتناعه وأقول: «يوماً ما سيفرّ هذا الشخص من التديّن!» الذي يُقنع نفسه بالتدين وترك المعصية دونما تفقّه وعبر بضع أدلة سطحية وحسب فلا بد أنه يعاني من مشكلة، مع أنه قد لا يدرك هو هذا. فقد يكون تأثّر بالمحيط! وشخص كهذا سيسقط أثناء الغربلات الإلهية! كأن يضع الله في طريقه شخصاً سيّئ التديّن (شخصاً ذا ظاهر ديني) فينقل له انطباعاً سيّئاً عن التديّن مما يؤدي إلى خروجه من الدين. أول أو أهم موضوع في عملية الفهم العميق للدين هو: «لماذا لا يجوز لي أن أذنب؟ ولماذا يأمرني الله؟ ولماذا يجعل الجنة والنار جزاءً لأعمالي؟» على أن الإنسان، وبعد اقتناعه بالتقوى والسلوك الديني بعمق، قد يرتكب إثماً، وعلاج هذا الإثم الاستغفار. أو قد يخاطب ربه أن: «إلهي، إنني مقتنع بهذا الطريق، لكنه شاقّ عليَّ» وسيمدّ الله له يد العون. بل إنه – أساساً - سيعيش حياةً أخرى؛ حياةً تسليته فيها هي عقدة العلاقة بينه وبين مولاه.. وعقدة العلاقة بين العبد والمولى تكمن في قول الأول: «إلهي، اغفر لي إذ عصيتُك هنا..».

للأسف نحن الحوزويين ضعفاء في بيان الالتفاتات الاستراتيجية للدين

لماذا نحن بحاجة إلى توضيح الدين؟ لأن الدين قضية عميقة وإن على كل إنسان على حدة أن يدرك هذا العمق. ولماذا يسخر البعض من الدين والتديّن؟ لأن الدين عميق وإن من دأب أصحاب العقول الضحلة والنظرة السطحية أن يتخذوه هزُواً. وللأسف فإن الحوزة العلمية قد تعاملَت بضعف مع مسألة تبيين وتبليغ هذا الدين - العميق جداً - لتلبية حاجات المجتمع المعاصر.. إننا معاشر طلبة العلوم الدينية ضعفاء!.. نحن عاجزون حتى عن الدفاع بشكل جيد عن بعض الأحكام البسيطة، وغير قادرين على إيصال الناس إلى قناعة بهذا الخصوص! إننا معشر طلاب الحوزة نشكو ضعفاً في عملية عرض الدين، خصوصاً ما يتصل بأشد التفاتاته الاستراتيجية حساسيةً، وإلا لما شهدنا كل هذا الابتعاد عن الدين! فما زال في المجتمع من يُجيز لنفسه الاستهزاء ببعض أحكام الدين؛ والسبب هو أنه شخص سطحي، وأننا نفتقد العمق في الخطاب.. بكل بساطة!

أيُّ جزء من الدين يتحتم علينا فهمه بعمق؟

يروى عن أبي عبد الله الصادق(ع) قوله: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً فَقَّهَهُ فِي الدِّينِ» (الكافي/ ج١/ ص٣٢). لكن أي جزء من الدين يتحتم علينا التفقّه فيه وفهمه بعمق؟ الجواب: ذلك الجزء الذي يسعى القرآن الكريم لإقناعنا به، وهو: «ضرورة امتلاكنا الدافع للكفّ عن المعصية». فعلى كل فرد منا الاقتناع بهذا بقوة لكي يقف بثبات ويستريح من شر الذنوب. إنّ عليَّ أن أقتنع بقوة بأن في المعصية ضرر لي، وأنّ الله قد أحسنَ صنعاً تماماً إذ وجّه إلَيَّ الأوامر، وهدّدني بنار جهنم، وجعل لي الجنة، ولم يُرني آثار بعض الأعمال والذنوب فوراً وذلك ليجعل منّي إنساناً متعمّقاً ومُدقّقاً.. إنساناً يدرك الدين بعمق، كي يحبه بعمق! روي عن الإمام الكاظم(ع) أنه قال: «مَنْ لَمْ يَتَفَقَّهْ فِي دِينِهِ لَمْ يَرْضَ اللهُ لَهُ عَمَلاً» (تحف العقول/ ص٤١٠)؛ إذ سيقول سبحانه: «لِمَ يقوم بهذه الأعمال وهو لا يفقه شيئاً!» أنظروا إلى ديننا المنير للفكر هذا.. كم هو غريب! وإذا بثلة من أشباه التنويريّين وأنصاف المثقفين الجهلة يسخرون منه!

الفقه المطلوب لبيان الدين وتقديمه للبشر أعمق من الفقه المطلوب لاستنباط الأحكام الشرعية

يصرّح القرآن الكريم بأن من الواجب على البعض التفقه في الدين: «فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون» (التوبة/١٢٢)؛ أي إنه من الواجب على جماعة من الناس أن يطلبوا العلم ويصبحوا فقهاء ويرجعوا إلى قومهم، لا لكي يتحدثوا في مسائل الأحكام فحسب، بل لينذروا قومهم ويقنعوهم بالتديّن! وكما قد سلف فإنّ أهم موضوع يتعيّن علينا فهمُه بعمق هو: كيف نقنع أنفسنا بالتديّن؟ واستناداً إلى الآية أعلاه فإنه يتوجب على طائفة من الناس أن يتفقّهوا في الدين كي يتعلموا كيف ينذرون الناس؟ فالسؤال عن كيفية إنذار الناس، يتطلب فقهاً. لكن ثمة في حوزاتنا العلمية، للأسف، مَن يظن بأن الإنذار ليس بحاجة إلى فهم الدين (أي الفقه)، بل يكفي له مجرّد إجادتك الكلام والبيان! في حين أن هذا الأمر بحاجة إلى علم، وهو لا يحصل بمجرد التفنّن، وحكاية القصص، وإلهاء الناس! إنّ الفقه المطلوب لتبليغ الدين وبيانه وعرضه على الناس أعمق بكثير من ذلك المطلوب لاستنباط الأحكام الشرعية. فاستخراج حكم فقهي من الدين هو علمياً أوطأ مرتبة من إدراك مداليل الكثير من الآيات القرآنية التي بإمكانها إقناع شخص بالتدين! يقول سماحة آية الله جوادي الآملي في تفسير قوله تعالى: «لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ»: «ما لم يتمكن المرء من إنذار الآخرين ويعمل على ما يحرّض النفوس ويجعلها تكفّ عن المعاصي فهو ليس بفقيه!»

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ٦)

علي رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ١١/أيار/٢٠١٩ ـ ٠٥/رمضان/١٤٤٠
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

ما هي الخطوة الأولى للاقتناع بالكف عن المحارم؟/ ينبغي أولاً أن تُقرّ بأن "عليك أن تُمَنهج حياتك"/ التأدّب ومراعاة الآداب هو عنوان المنهجَة في السلوك/ المدرسة الابتدائية هي مقرّ التأدّب

الخطوة الأولى على طريق إقناع الناس بالتديّن والكف عن المحارم هي أن تنشئ الأفراد على التخطيط، والتدبير، والدقة في السلوك، والتنظيم. وما لم يقتنع المرء بأنه "لا يمكن العيش دون برنامج وتدبير" فسوف لا يؤثر فيه حتى إقناعه بالله عز وجل؛ فهو غير قادر على طاعة هذا الربّ لأنه يشقّ عليه أن يُؤمَر ويُنهَى!

ما هي الخطوة الأولى لإقناع الناس بالتديّن والكف عن المحارم؟

ما المراحل التي ينبغي للشخص تخطّيها ليُقنع نفسه بالدين وينخرط في سلك المتدينين؟ يمكننا أيضاً صياغة السؤال بالشكل التالي: كيف السبيل إلى إقناع امرئ بأن لا يذنب؟ ذلك أن محور التديّن هو ترك المعصية! وترك المعصية يشمل أيضاً طاعة الله وامتثال أمره ونهيه، لأن عدم امتثالك لأوامر الله ونواهيه يُدعى ذنباً؛ ومن هنا فإننا نعتبر الذنب محور التديّن. الخطوة الأولى على طريق إقناع الناس بالتديّن والكفّ عن المحارم هي أن تُنشئ الأفراد على التخطيط، والتدبير، والدقة في السلوك، و»التنظيم». ويتشابه الأشخاص في مختلف مراحلهم العمرية في أصل هذا الموضوع، لكن من الواضح أن الإنسان في سِنِيّ صباه أكثر تقبُّلاً، ولذا فإننا نشدد هنا على سنين الطفولة والمراهقة.

علينا أولاً أن نقنع الطفل بأنه: "من المتعذّر إدارة الحياة دون منهج ونظام"

عليك أن تعمل لدى تربيتك الطفل أثناء أعوامه السبعة الثانية (فترة الابتدائية) على أن يخرج من حالة الحرية وعدم البرمجة التي كان عليها خلال سنواته السبع الأولى، حيث كان دائم اللهو واللعب، وكان ابن ساعته؛ يفعل ما يحلو له ويمتنع عما لا يحلو له. لكن يتوجّب عليك، في الأعوام السبعة الثانية من عمر الطفل، أن تُخرجه من هذه الحالة محاولاً إقناعه - في بداية الأمر - بأن «علينا أن نكون مُنَظَّمين، وأن نخطط لنتمكّن من إدارة حياتنا». وأن تجعله يدرك بأن الحياة لا تُدار اعتماداً على الصدفة، بل إننا بحاجة لكسب كل منفعة إلى التدبير والاجتهاد المنظّم.

إن من المتعذر العيش دونما تدبير! وما لم يقتنع المرء بأنه «لا يمكن العيش دون برنامج وتدبير» فسوف لا يؤثّر فيه حتى إقناعه بالله عز وجل؛ فهو لا يستطيع أن يطيع هذا الرب، لذا تراه يُنزل الله من عرشه - رويداً رويداً - قائلاً: «من قال أصلاً أن الله موجود؟!» فشخص كهذا يشقّ عليه أن يُؤمَر ويُنهَى، لأنه لا يستطيع العيش بالأوامر. الجزء الأول من العيش بالأوامر هو أن «يمنهج المرء حياته»، والجزء الثاني هو «أن تتخذ هذه المنهجة صبغة الأوامر». فالذي لم يصبح من الذين يحيون حياة مُمَنهجة وكان دائماً مخلوقاً انفعالياً يحرَّض على القيام بهذا الفعل أو ذاك (فقد يكون فَعَل الكثير لكن بشكل انفعالي) لا يكون متديّناً جيداً.

أول عناصر الأدب هو "السلوك المُمَنهج"

تكرر في الأحاديث التأكيد على أن الفترة من السابعة حتى الرابعة عشرة من العمر هي فترة تأديب الصبي؛ إذ رُوي عن الإمام الصادق(ع): «دَعِ ابْنَكَ يَلْعَبْ سَبْعَ سِنِينَ وَيُؤَدَّبْ سَبْعَ سِنِين» (من لا يحضره الفقيه/ ج٣/ ص٤٩٢). كما روي عن أمير المؤمنين(ع) قوله: «يُرَبَّى الصَّبِيُّ سَبْعاً، وَيُؤَدَّبُ سَبْعاً، وَيُسْتَخْدَمُ سَبْعاً» (من لا يحضره الفقيه/ ج٣/ ص٤٩٣). وللأدب بضعة عناصر، أولها التصرف وفق تعليمات ومنهج. فلم تقل الروايات أعلاه إن على الصبي بين السابعة والرابعة عشرة أن يطيع الأوامر فحسب، بل استعملت لفظة «الأدب»، ما يعني «ضرورة التصرّف وفق منهج»، لأن الأدب هو مجموعة التعليمات التي تنظّم سلوك الإنسان؛ فهناك مثلاً آداب تناول الطعام، وآداب إعداد المائدة، وآداب النوم، ..الخ، وكل هذا يعني ضرورة وجود برنامج. الجزء الأول من الأدب هو امتلاك برنامج للحياة. ليس هذا فحسب، بل هو التخطيط للعيش والتفتيش عن منهج! فالذي لم يَعتَد إلى الآن العيش بشكل مُمَنهج فلماذا تحدّثه عن الدين أصلاً؟! شخص كهذا حتى لو أصبح مؤمناً فسوف لا يكون متديناً، أو سيكون متديناً بصعوبة، أو سوف لا يلتذ بالتديّن، أو سيتديّن عن «نزوة»، أو سيثير غثيان الجميع من التديّن! أساساً إن معظم تعاليم الدين إنما وُضعَت لتُمَنهج لحياتك!

الأدب هو "السلوك المُمَنهج"

الأدب يعني «السلوك الممنهج». وإنّ توصيتي لبعض الأصدقاء ممن يديرون مدارس ابتدائية كانت: «ارفعوا مستوى الآداب في المدرسة ما استطعتم». فبالتشديد على «الأدب» تُحَلّ الكثير من المشاكل وتسير عجلة الكثير من الأمور إلى الأمام. فياليت باستطاعتنا تغيير مدارسنا الابتدائية إلى «دور التأديب»؛ أي إن علينا تنشئة أطفال مؤدّبين. الإنسان الذي لا يراعي الآداب قد يتبسّم، أو يتواضع، أو قد يتكلم كلاماً جميلاً لكن تصرّفاته هذه انفعالية فتراه يتصرف في كل آن بطريقة ما؛ كأن يعامل الناس برأفة من منطلق النفاق، أو يوقّر الآخرين خوفاً منهم، أو يبذل جهداً طمعاً في التشجيع أو كسب امتياز ما. أما الذي يراعي الآداب فالأمر عنده سيّان؛ سواء أُثيب على الجهد الذي قام به أم لا. فبما أنه إنسان مؤدب عموماً فهو يفعل ما يفعل من منطلق الآداب؛ كأن يحيّي الآخرين على الدوام دون أن يقيّمهم «فيما إذا كانوا يستحقون التحية أو لا» فهو ليس ماكراً إلى هذه الدرجة! أو أن يأتي بالعمل الصالح ليس خشيةً من العقاب. فلكل عمل يقوم به المؤدّب ثمة آداب يلتزم بها، و»منهج» يتقيد به دون أن يطيل الوقوف على نتائجه. فلو أنك أدّبتَ ولدك بهذا الأدب فسيصبح إنساناً ذا تقوى أيضاً، وإلا فمن المستبعَد أن يكون كذلك؛ لأن التقوى هي هكذا؛ وهي أنك حينما تمتثل أمراً إلهياً فإن الله لا يشجّعك ولا يُثني عليك.

ولدي لا يصلّي.. ماذا أصنع؟ هل علّمتَه الأدب؟!

البعض يشكو قائلاً: «ولدي لا يصلّي.. ماذا أصنع لأجعله يصلّي؟» لكن يا هذا، هل علّمتَ ولدك العنصر الجوهري والحيوي للحياة وهو «الأدب»؟ إذن بأي طريقة أنت تحيا؟! فإنْ كنا نأكل بلا آداب، ونُحيّي بلا آداب، وننام بلا آداب، ونستيقظ بلا آداب، ونمشي بلا آداب، ونلبس بلا آداب، ...الخ فلا ينبغي أن نتوقّع من أولادنا أن يُصلّوا! أما إذا استطعتَ أن تنشئ ولدك على الأدب فليس من الصعب على المؤدّب أن يضيف أدباً أو أدبين إلى قائمة آدابه الأخرى. فإنسان مؤدب كهذا سيحترم الآداب مع جاره، وسيراعي طائفة من الآداب في نومه، واستيقاظه، وترتيب حجرته، ..الخ. فإن أضفتَ إليه أدباً آخر، وهو الصلاة، فسوف لا يشق عليه الالتزام به.

تقـول لـه: «تـأدّب مـع ربـك!» يقـول: «كيـف؟» فتجيـب: «بـأن تقـول «اللـه أكـبر» وتبقـى سـاكناً لثـوانٍ، ثـم تركـع وتسـجد... بهـذه الصـورة!» وهـو سيسـتوعب ذلـك وينجـزه لأن ذلـك ليـس صعبـاً عليـه. الطفـل الـذي تثقـل عليـه الصـلاة فإنـه يعيـش في بيـت كأنـه لا تراعـى فيـه الآداب! نعـم في هـذا البيـت رحمـة، وفيـه غضـب، وفيـه اعتقـاد باللـه، وفيـه روحانيـة، ..الـخ، لكـن ليـس فيـه أدب!

المدرسة الابتدائية هي مقرّ التأدّب

لـو كنـا نُعـير الأدبَ أهميـةً كـبرى لمـا طالَبْنا بوضـع أجهزة تسـجيل الحضور والغيـاب عند أبـواب مصانعنا ودوائرنـا، فهـذه الأجهـزة هـي بحـد ذاتهـا مَظهَـر لعـدم الأدب ومـؤشّر عليـه! لأنهـا تكشـف عـن أن هـذا الإنسـان لم يـتربَّ عـلى الآداب وهـو لا يـدرك أن «أدب العمل هـو الحضور في الوقت المحـدد!» ولذا فإنهم يلـوون ذراعـه بهـذا الجهـاز وبإنقـاص راتبـه في نهايـة الشـهر، إذ لـولا «هـراوة الراتـب» المُشـهَرة فـوق رأسـه لمـا حـضر إلى عملـه بانتظـام! المدرسـة الابتدائيـة هي مقـرّ التـأدّب، هذه مـن واضحات ديننـا. إنها المـكان الـذي لا يفعـل فيـه التلميـذ مـا يحلـو لـه، والـذي لا بـد لـكل تلميـذ إذا أراد فِعْـل شيء أن يفعلـه وفـق قوانـين! والذيـن يرفعـون الآداب مـن المـدارس الابتدائيـة وكـذا السياسـيون الذيـن ينـادون بعـدم مراعـاة الأدب في الأوسـاط التربويـة التعليميـة هـم مجرمـون! ربمـا يتصـورون أن عـدم مراعـاة الأدب من قبـل الطفـل في المدرسـة يعنـي سـعادته! إنهم يسـعون لنسـف الأدب ثم يسـمّون هـذا «مرحاً ونشـاطاً!»

الأولوية في المدرسة هي لإشاعة القابلية للتخطيط/ الأدب هو مظهر القابلية للتخطيط

إن نزاعنـا ليـس حـول الديـن، بـل نقـول: مـا مـن أحـد إلا وهـو بحاجـة في حياتـه إلى التدبـير، فـلا بـد للتدبـير والتخطيـط أن يكـون جاريـاً في دم الإنسـان. وإنْ أحبَبنـا أن يجـري التخطيـط مجـرى الـدم في أبنائنـا فـلا بـد أن نُنشـئهم مؤدّبـين منـذ صباهـم. ينبغـي للطفـل في المدرسـة أن يتعلّـم الأدب، فـالأدب مظهـرٌ للقابليـة للتخطيـط للحيـاة. ولا بـد أن تكـون الأولويـة في المدرسـة هـي لإشـاعة هـذه القابليـة والإعـداد «للعمـل وفـق برنامـج معـيّن». فالعمـل مـن دون برنامـج ومنهـاج هـو العمـل بانفعاليـة!

نعم قد يقوم غير المُراعي للآداب أيضاً بكل ما يقوم به المؤدَّب لكن بشروط: الأول: إنه يقوم بالعمل إذا ما أُرغم عليه أو هُدّد للقيام به! الثاني: يقوم به إذا تم تطميعه بشيء أو ترغيبه وتشجيعه عليه! الثالث: يقوم به إذا كان ثمة معاون أو معلّم يراقبه! إذن الإنسان الذي لا يراعي الآداب يقوم بهذه الأمور أيضاً، لكنه – ولكونه هكذا - يقوم بها استجابةً لأمور معيّنة. على المعلمين الموقّرين طوال هذه السنوات السبع (منذ السابعة وحتى الرابعة عشرة) أن يحثّوا الصبيان على التخطيط والبرمجة، لا أن يزوّدوهم باستمرار ببرامج جاهزة. بالطبع، في بداية الأمر حينما يكون الطفل جديداً على المدرسة لا بد أن يزوّدوه هم بالبرامج، لكن يجب أن يبدأوا - شيئاً فشيئاً - بتدريبه على أن يقوم بنفسه بإعداد البرامج وتنفيذها.

الأدب هو عنوان المنهجة في السلوك الاجتماعي/ الآداب الفردية هي عنوان المنهجة في السلوك الفردي

لماذا يتصرف الكثيرون في هذه المدينة، المُترعة بالإيمان، خلافاً لمقتضى إيمانهم؟ فلربما تجد بين العاصين أيضاً نمطاً من الإيمان نقف نحن طلبة العلوم الدينية عاجزين أمامه! لكن ما الذي يجعل سوق المعصية رائجةً وسلعة الاستغفار كاسدة؟! السبب هو قول المؤمن في ذات نفسه: «إنني لا أطيق العمل بالطاعة ولا أتحمّل ترك المعصية!» أي إنه عاجز عن تنظيم تصرفاته. من أجل إقناع الشخص بعدم ارتكاب الذنب لا بد أن نقنعه أولاً بأنه: «لا يمكن العيش دون برمجة ومَنهَجة!» وعنوان هذه المنهجة في نطاق السلوك الاجتماعي هو «الأدب»، وفي حيّز السلوكيات الفردية هو «الآداب الفردية» واسم هذه المنهجة هو «التنظيم»! رُوي أن رجلاً سأل أبا عبد الله الصادق(ع): «بَلَغَنِي أَنَّ الاقْتِصَادَ وَالتَّدْبِيرَ فِي الْمَعِيشَةِ نِصْفُ الْكَسْبِ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ(ع): لا، بَلْ هُوَ الْكَسْبُ كُلُّه» (أمالي الطوسي/ ص٦٧٠)، ثم يُتمّ(ع) حسب الرواية: «وَمِنَ الدِّينِ التَّدْبِيرُ فِي الْمَعِيشَة» أي إن التدبير والتخطيط في المعيشة جزء من الدين.

هـذه هـي ركائـز الإقـلاع عـن الذنـب. فالإقـلاع عـن الذنـب ليـس كلـه في أن تضـع نـار جهنـم أمـام عينَـي المذنـب وتقـول لـه مهـدداً: «أَقلِـع عـن هـذا الذنـب!» فـإن مَـن تشـكّلَت روحُـه وسـط حيـاة غـير مُمَنهجـة وأصبـح إنسـاناً انفعاليـاً لا برنامـج لـه تـراه لا ينهـض بغـير الترهيـب والترغيـب! ولا يتحـرك إلا بالقـوة! مـن هنـا فـإن شـخصاً عديـم التخطيـط وعديـم الآداب كهـذا، لا ينهـض لأنـه لا يُحسـن العيـش بشـكل مُمَنهـج. إنـه لا يتزحـزح مـن مكانـه خوفـاً مـن نـار المسـتقبل، بـل بالقـوة والـركل! إنـك تظـن أنـه لا يؤمـن بنـار جهنـم، والحـال أنـه يؤمـن بهـا.. فمشـكلته هـي شيء آخـر.

الذين لا تدبير ولا خطة لهم يعيشون بطريقة "المشاريع"!

الذيـن لا تدبـير ولا خطـة لهـم يعيشـون بطريقـة المشـاريع؛ أي إنهـم يصبّـون كل اهتمامهـم لمـدة مـن الزمـن عـلى موضـوع، ثـم يتركونـه ليصبّـوا كل اهتمامهـم لمـدة أخـرى عـلى موضـوع آخـر. فـإذا انشـغلوا بعمـل مـا لم يعـودوا يهتمـون بوقـت الصـلاة، وإذا أكَبّـوا عـلى الدراسـة، فلم يعـودوا يُصلّـون ولا يعملون! وإذا شـغلَتهم التسـلية فحـدّث ولا حـرج! في حـين أن لـكل مـن هـذه الأمـور سـاعته ووقتـه الخـاص. ولقـد قسّـم أئمتنـا الأطهـار(ع) في بعـض أحاديثهـم سـاعات الإنسـان. فقـد رُوي عـن الإمـام مـوسى الكاظـم(ع) مثـلاً مـا مضمونـه: اجتهـدوا في أن تقسـموا زمانكـم إلى أربعـة أقسـام؛ فخصّصـوا سـاعة لمناجـاة اللـه، وأخـرى لكسـب المعـاش، وثالثـة للحـوار مـع الرفـاق والإخـوان في الديـن (تتجاذبـون في هـذه المعـاشرة أطـراف الحديـث، وتتناقلـون عيوبكـم، فتتكاملـون، لا أن تتكلمـوا في التفاهـات)، وسـاعة رابعـة للّـذّة غـير المحرّمـة لتفيـدوا مـن هـذه الأخـيرة في اكتسـاب الطاقـة للسـاعات الثـلاث الأخـرى: «اجْتَهِـدُوا فِي أَنْ يَكُـونَ زَمَانُكُـمْ أَرْبَـعَ سَـاعَاتٍ: سَـاعَةً لِمُنَاجَـاةِ اللـهِ، وَسَـاعَةً لأَمْـرِ الْمَعَـاشِ، وَسَـاعَةً لِمُعَـاشَرَةِ الإِخْـوَانِ وَالثِّقَـاتِ الَّذِيـنَ يُعَرِّفُونَكُـمْ عُيُوبَكُـمْ وَيُخْلِصُـونَ لَكُـمْ فِي الْبَاطِـنِ، وَسَـاعَةً تَخْلُـونَ فِيهَـا لِلَذَّاتِكُـمْ فِي غَـيْرِ مُحَـرَّمٍ وَبِهَـذِهِ السَّـاعَة تَقْـدِرُونَ عَـلَى الثَّـلَاثِ سَـاعَات» (تحـف العقـول/ ص٤٠٩).

ألا يُقلّل التنظيم والتخطيط من لذّة الإنسان؟

ألا يعمل التخطيط والتنظيم في الحياة على تقليل لذة الإنسان؟ بلى، إنه يقلل بعض لذاته، لكنه يزيد في لذات أخرى أيضاً! كما أنه يحذف بعض آلام المرء ويأتي بآلام جديدة. على أن هذه التي يأتي بها هي آلامٌ تبعث على نشاط عظيم؛ كالألم الذي كان يقاسيه أمير المؤمنين(ع) في فراق الله عز وجل؛ أترى أي ألم جميل هو! وما هي الآلام التي تحذفها الحياة المنظّمة؟ إنها الآلام التي بسبب اتساعها وشموليتها لا يحسبها أي امرئ سيئة ولا ينظر إليها أي إنسان على أنها مرض. وما هي اللذات التي تحذفها؟ إنها تحذف بعض اللذات كلذّة الشخص المنصاع للأهواء والنزوات، وهو مما لا يُعَدّ لذة أصلاً! فعن أمير المؤمنين(ع) إن لذة المتقين في الدنيا أعظم من لذة المترفين فيها: «سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ... أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُم» (نهج البلاغة/ الرسالة٢٧).

أيمكن جَنيُ لذّة أكبر بالانصياع للأهواء وعدم التنظيم؟

إن من الخطأ أن تعتقد «أنك تجني المزيد من اللذة باتباع الأهواء، وأنّ عليك أن تكون غير منظَّم لكي تستمتع!» وإنه لتصوّر خاطئ أن يظن الإنسان أنه سيكسب لذة أكبر إذا فعل كل ما يحلو له دونما تنظيم أو خطة! بالطبع من الممكن الالتذاذ باتباع النزوات وعدم التنظيم، لكنها لذة ضحلة سيحلّ محلها حزن أكبر. وهل عدم التنظيم فيه لذة؟ أجل، لكن بالنسبة للإنسان المنظّم! فإن أحبّ الشخص المنظّم في أوقات ما أن يخرج عن تنظيمه فسيلتذ أثناء هذه الساعات المحدودة أيما لذة. على سبيل المثال: عندما يخصص المنظَّمون ساعات من يومهم للمرح والتسلية فإنهم سيستمتعون بهذه اللحظات كل متعة. الخطوة الأولى على طريق إقناع الإنسان بالتديّن وترك المعصية هي أن يقتنع بالعيش وفق منهاج خاص. على أن علينا بعد هذا أن نخطو بضع خطوات أخرى حتى نصل إلى الكفّ عن الذنب. اِبدأ في الوقت الحاضر بتنظيم نفسك.. اِشرَع في الكف عن المعاصي من هذه الخطوة الصغيرة.. لا تتوقع أن تغدو عارفاً دفعة واحدة.. وما إن تذنب استحضر قباحة عملك وليأخذك الحياء من الله!

لدى إقناع الناس بترك المعصية لا تتعجّل في طرح موضوع الخوف من الله!

لدى إقناع الناس بالتدين وترك المعاصي لا تتعجّل في إقحام موضوع الله والقول: «افعل هذا وكُفّ عن ذاك مخافة الله!» ففي هذه الحالة سيتصور هذا المخلوق الانفعالي الذي لا يراعي الآداب - الذي عاش دهراً خائفاً من هذا وذاك والذي سئم من حياته - أنك تطلب منه الاستمرار في نفس هذه الحياة الانفعالية! إنك تقول له: «افعل هذا الفعل خوفاً من الله!» لكنه يفهمك خطأ ولا يعجبه هذا التعبير، فلقد عاش دهراً حياةً كلها خوف.. لم يذق طعم التنظيم أبداً.. كان انفعالياً أينما حَلّ، وهو يحسبك الآن تقول له: «كن انفعالياً أمام الله!» أما الله فيقول: «كلا، لا تكن انفعالياً أمامي، بل كن مُنظَّماً».

لماذا لا يهدي القرآن غير المتقين؟

يقول الله عز وجل في مستهل كتابه العزيز: «ذلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...» (البقرة/٢-٣). لكن لماذا قُدّمَت التقوى هنا على الإيمان؟ المقصود هنا هو التقوى قبل الإيمان! فما المراد من التقوى قبل الإيمان؟ المراد منها الإنسان الحذر.. الإنسان المتأدب.. صاحب المنهج والتنظيم.. فمثل هذا يؤمن بالغيب! هذا الكتاب يهدي المتقين ولا يهدي غيرهم.. إنه لا شك فيه ولا مشكلة لكنه لا يملك هداية غير المتقين، والمشكلة ليست من الكتاب نفسه، بل منهم هم! إذن هو لا ينفع غير المتقين! إنه أمرٌ صادر من الله تعالى أن توضَع هذه الآية في مطلع القرآن الكريم بالذات كي لا يدخله من هَبّ ودَبّ! الإنسان الحذر، الذي يمارس حياته بشكل صحيح، والذي يعتمد المنهج في حياته هو إنسان يؤمن بالغيب.. وإن أخبرتَه بأن ثمة غيب، فهو لا ينكره. أما الذي لا يعتمد المنهجة في حياته ولا يعيش بشكل منظم فإنه يرفض كل محاولة من الآخرين لجعله منظَّماً. فالإنسان الانفعالي الذي لا منهج له غير مستعد لأن تضبطه ضوابط، سواء أكانت من الله أم من غيره!

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ۷)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ۱۲/أيار/۲۰۱۹ ـ ۰۶/رمضان/۱۴۴۰
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

لماذا يحزن صاحب البرنامج إذا "أذنب"؟/ الذنب هو الخطأ الحاصل أثناء تنفيذ البرنامج/ الشخص الغريب عن المَنهجة لا تتقبل روحُه التدينَ/ تقبُّل منهجة الحياة ورسم الخطط لها هو من لوازم التهذيب وبناء النفس

إن لم يعمل كادر المدرسة على تنشئة التلاميذ على التخطيط ومنهجة الحياة وكان تحمّل التلاميذ لتقبّل المنهجة منخفضاً، وحصلوا على شهادة الثانوية دون أن يُتقنوا برمجة حياتهم فهذه المدرسة غير إسلامية مهما علّموهم فيها من القرآن والحديث والدعاء!.. كونوا على ثقة.

يمكن للمراقبة في سبيل ترك المعصية أن تشكل محور تسلية في حياتنا!

من أجل أن يقتنع المرء بأصل التدين، وهو «ترك المعصية»، لا بد له من اجتياز مراحل ليزداد إيمانه بضرورة ترك المعصية، ويصبح تركها سهلاً، بل وتغدو المراقبة المتواصلة في سبيل الكف عن المعاصي ممتعة له حتى تمسي هذه المراقبة تسليتَه في حياته. فإن أحب شخص أن يقتنع بترك الذنب وأن يكون هذا الأمر سهلاً وممتعاً بالنسبة له إلى درجة أن يصبح محور تسليته وأساس اهتماماته فمن أين عليه البدء؟ وما المراحل التي يتحتم عليه تخطّيها؟

الاقتناع بالحياة المُمَنهجة يمهد لتقبّل التديّن وترك المعصية

كما تَقدَّم فإن الخطوة الأولى نحو الاقتناع بالتدين وترك المعصية هي أن نُقنع أنفسنا بالحياة المُمَنهجة، فإن من الوجوه الأصيلة جداً للتدين هو اقتناع الإنسان بالعيش وفق برنامج ومنهاج، وإنّ القبول بالعيش المُمَنهج يمهّد للاقتناع بالتدين ونبذ الخطيئة. حينما تقول لأحدهم: «إياك ونظرة الحرام» عليك أن تنتبه: إلى مَن توجِّه كلامك هذا؟ إنّ عليك أن توجّهه لشخص قد وضع برنامجاً لنظراته؛ أي إنه على استعداد لأن تكون لنظراته خطة ومنهاج! فمن الواضح أنك إذا خاطبت شخصاً لا استعداد له لوضع برنامج لنظراته قائلاً: «إياك ونظرة الحرام» فسيشُقُّ عليه ذلك، بل وقد يسخر منك، أو حتى يشتمُك!

فالفتـاة التـي لا تشـاء شـخصياً وضعَ برنامـج لأي شيء في حياتهـا، بمـا في ذلك زيّهـا، كيف تريـد أن تقنعها «بالحجـاب»؟! فإنـك حـين تنصحهـا بالحجـاب دون مقدمـات، سـيصعب عليهـا ذلـك وتظنـك مصـدر إزعـاج لهـا! إذن عليـك أن تسـألها أولاً: ألَـكِ برنامـج لحياتـك؟ وفـق أيّ مبـادئ وضعـتِ برنامجـكِ هـذا؟

علَيَّ أن أُقنع نفسي بأنه: "هل أريد العيش وفق برنامج؟"

مـا يؤسَـف لـه هـو أن فهـم النـاس للديـن خاطـئ، فهـم لا يدركـون أنهـم إذا أرادوا ترغيـب شـخص بالتديّـن فـإن عليهـم أولاً أن يعلّمـوه مهـارة أن يعيـش وفـق برنامـج، والنتيجـة هـي أن أغلـب المثقفـين باتـوا يكرهـون الديـن! علينـا إقحـام قضيـة مَنهجـة الحيـاة في أنفسـنا، وفي برامجنـا التربويـة، وفي ثقافتنـا عـلى حـد سـواء، وهـذه هـي الخطـوة الأولى عـلى طريـق تقبّلنـا للديـن. ينبغـي أن نقنـع أنفسـنا بأنـه: «هـل أريـد أن أصبـح شـخصاً يعيـش وفـق برنامـج أم لا؟» ومـا معنـى العيـش مـن دون برنامـج؟ هـو أن يـأتي المـرء لربمـا بـكل الأعـمال الصالحـة، لكـن اسـتجابةً لمؤثـر خارجـي! العيـش دون منهـاج وخطـة يـؤدي بالإنسـان إلى الملـل، ويخفـض مسـتوى اسـتمتاعه بحياتـه، ويضَـلِّـل روحـه وعقلـه.

التعاليم الدينية كلها هي غالباً وفق برنامج؛ فلها زمان وآداب

مـدى تأكيـد الديـن عـلى قضيـة المنهجـة واضـح، فتعاليـم الديـن كلهـا هـي غالبـاً وفـق برنامـج خـاص؛ فلهـا زمـان معـين، وسـاعة خاصـة، ولهـا أسـلوب، ولهـا آداب! حتـى في المسـائل الماليـة فـإن عـلى المتديـن أن يخطـط تخطيطـاً دقيقـاً؛ فعليـه أن يحسـب إيراداتـه ونفقاتـه ويجعـل لسـنته حسـاباً. فـإن شـئت أن تصبـح متدينـاً تحتّـم عليـك أن تهيـئ لنفسـك دفـتر حسـاب! إن لم يعمـل كادر المدرسـة عـلى تنشـئة التلاميـذ عـلى «التخطيـط ومنهَجَـة الحيـاة» وكان تحمّـل التلاميـذ لتقبّـل المنهجـة منخفضـاً، وحصلـوا عـلى شـهادة الثانويـة دون أن يُتقنـوا برمجـة حياتهـم فهـذه المدرسـة غـير إسـلامية مهـما علّموهـم فيهـا مـن القـرآن والحديـث والدعـاء!.. كونـوا عـلى ثقـة.

الشخص الغريب عن التخطيط والمَنهجة لا تتقبّل روحُه التديّن!

الشخص الذي لم يفلح في برمجة حياته علينا أن نشك في صلاته حتى إذا صلّى! إذ من غير المعلوم أنه وفق أي منطلقات يصلّي؟ فشخص كهذا لم يستطع أن يجعل لروحه نظاماً، ولذا من المحتمل أن يفر يوماً ما من الدين كفرار النابض الحلزوني المضغوط إذا تُرك لحال سبيله؛ ذلك أن روحه لم تتأهب بعد للتدين، وأنه - أساساً - ليس إنساناً منظّماً.. إنه لا يتقبّل منهجة الحياة، بل ويفرّ منها. الشخص الذي لا يتقبّل برمجة حياته سوف لا يستمتع باللحظات الذي يقضّيها وفق برنامج. فمثلاً في اليوم الذي يخطط له جيداً وينجز جميع خططه حتى آخرها على أتم وجه، لا يأنس بذلك لكي يقول: «ممتاز! لقد أنجزتُ اليوم كل أعمالي وفق برنامج!» وإن الشخصية الغريبة إلى هذا الحد عن التخطيط والمنهجة والتي لا تجد متعة في برمجة الحياة لا تنفع للتدين! فالدين هو لأهل المنهجة في الحياة.

الخطوة الأولى على طريق مخالفة الهوى هي "منهجة الحياة"

ارتقاء إيمان الإنسان يتطلب تنقية روحه من الهوى، والهوى - من وجه من الوجوه - هو غياب منهجة الحياة! أي «أن أفعل ما يحلو لي متى شئت»، وإنّ مخالفة الهوى هي أن أعيش حياتي وفق برنامج ومنهاج. هذه هي الخطوة الأولى. التمرّس على العيش وفق برنامج يستغرق وقتاً طويلاً بعض الشيء، والفترة من السابعة حتى الرابعة عشرة هي أفضل فترة لتحويل الطفل إلى إنسان يعيش وفق منهاج، وهو إن أصبح هكذا فسيصبح أيضاً ذا تقوى إن شاء الله. وتحوّل الصبي من السابعة حتى الرابعة عشرة إلى شخص مُمَنهج قد عبّرَت عنه الروايات «بالتأدّب».

حسب علم النفس يفتش الطفل منذ السابعة عن أوامر ومنهاج

واللافت هو أن الصبي ما بين السابعة والرابعة عشرة يحب أن يكون له برنامج، بالطبع إذا كان الولد سليماً وكان قد تلقّى في أعوامه السبعة الأولى القدر الكافي من المحبة وتصرّف على هواه بقدر جيد. فالولد في أعوامه السبعة الأولى، حسب الرواية، سيد؛ أي يصنع ما يطيب له صنعه، وعلى أبويه أن يسمعا له ويُطيعا: «الْوَلَدُ سَيِّدٌ سَبْعَ سِنِينَ وَعَبْدٌ سَبْعَ سِنِينَ وَوَزِيرٌ سَبْعَ سِنِين» (وسائل الشيعة/ ج٢١/ ص٤٧٦).

فإن كبرَ الولد في السبعة الأولى على هذا المنوال فسيمَلّ بعدها فِعْلَ كل ما يَلَذّ له ولذا حتى علم النفس يقول: سيبدأ منذ السابعة بالتفتيش عن أوامر ومنهج ينتهجه، وسيطيب له ذلك. بل إنك، في الحقيقة، ستخونه إن لم تزوّده بخطة عمل وتعليمات. وإذا سُئل الصبي الذّكَر في هذه المرحلة العمرية عما يحب أن يكون في المستقبل فإنه عادةً ما يختار المِهَن التي فيها نظام وانضباط قائلاً: «أريد أن أكون شرطياً، أو طياراً، ..الخ»؛ أي إنه يفضّل المِهَن التي تُرتدَى فيها بِزّة رسمية، وفيها آداب وتعاليم خاصة.

تقبُّل الإنسان خضوعه لبرنامج ومن ثم "برمجته هو لحياته" ضروري لعملية التربية وبناء الذات

تقبُّل الإنسان خضوعَه لبرنامج ومن ثم «برمجته هو لحياته» ضروري جداً للعملية التربوية. حتى في قضية بناء الذات فمن أجل أن تنجح فيما بعد في الإقلاع عن المعصية وزيادة محبتك لربك حاول أن تُخضِع حياتَك كلها لمنهاج معيّن، وتُقحم النظام فيها وعندها سترى أن حالك الروحانية قد ارتقت. لا تضجر من النظام... لا تكن منظَّماً طمعاً في التشجيع أو مخافة العقوبة... أو بسبب ضغط جهاز تسجيل الحضور والانصراف أو ضغط العمل. فالذي يدرس من أجل العلامة الامتحانية هو شخص واقع تحت مؤثر خارجي، وليس شخصاً صاحب منهاج! فهو وإن كان في الظاهر يتصرف وفق برنامج لكنه – في الحقيقة - يدرس بسبب ضغط العلامة والامتحان. وشخص كهذا سيكون عديم الشخصية.. سيكون إنسانا سيئاً.. إنساناً لا دين له! فلا تدرس من أجل الامتحان! في الحوزة قديماً لم يكن الامتحان متعارفاً. إنه لعُرف خاطئ أن يُخضع طالب الحوزة لامتحان. ولقد ثبت في علم النفس أن هذا الأسلوب في التربية والتعليم يميت مواهب الإنسان، وهو - من الناحية الدينية - خلاف التقوى تماماً.. التقييم بالعلامات أسلوب خاطئ بالمرة، فلماذا يُنتهَج هذا الأسلوب في الحوزات العلمية؟! من أين تعلمنا هذه الطريقة؟! هل كان أسلافنا يتّبعونها في الحوزة؟!

يـروى عـن أميرالمؤمنـين(ع) قولـه: «أُوصِيكُـمَا... بِتَقْـوَى اللهِ وَنَظْـمِ أَمْرِكُـم» (نهج البلاغة/ الرسـالة٤٧)؛ أي لتكونوا منظَّمين من منطلق التقوى. يقول: «التقوى والنظام» وليس: الامتحان والنظام، ولا مدير المدرسـة والنظام! فحتى مدير المدرسـة ومعاونها لا ينبغي أن يضعوا أنفسـهما محل تقوى الطالب ويضبطوا سـلوكه بـكل هـذه الصرامـة فيقوم هذا الأخير بانتهاج السـلوك الحسَـن لا لسـبب إلا اسـتجابة لتأثير هذا الضبط!

لا بد لروح طالب الحوزة أن تتقبّل الخضوع للمنهجة وتمنهج هي لنفسها

المدرسـة العلميـة (الحـوزة) مشـيَّدة عـلى التقـوى؛ عـلى تقـوى مديرِهـا، وتقـوى مدرّسـها، وتقـوى طالبهـا! إنهـا ذات التقـوى المشـار إليهـا في خطـاب إمامنـا الراحـل(ره) لطلبـة العلـوم الدينيـة: «إذا لم تشـتغلوا في طلـب العلـم يحـرُم عليكـم الاسـتمرار في المدرسـة!» فـإن لم نكـترث لهـذه التقـوى وانصـبَّ همُّنـا عـلى الامتحـان والعلامـات لأكَـبَّ طالـب العلـوم الدينيـة هـو الآخـر ليلـة الامتحـان عـلى اسـتظهار كـراس دراسي ليخـوض الامتحـان ويحصـد علامـة جيـدة! وبالمناسـبة فإنـه في حالـة كهـذه سـيكون حصولـه عـلى علامـة كاملـة أشـد خطـراً! ذلـك أنـه حصـل عـلى العلامـة الكاملـة وشـخصيته لَـمّا تـترَبَّ بالشـكل الصحيـح! فكيـف لنـا غـداً أن نتـدارك الموقـف إذا أصبـح هـذا الإنسـان العديـم التقـوى عالِـم ديـن؟! إنـه لأمـر في غايـة الخطـورة! خطـر منـح العلامـات في الحـوزة العلميـة أعظـم بكثـير مـن أن لا تمنحهـا ثـم يزعـم أحـد الطلبـة أنـه «عـالم!» لا سـيما في الحـوزات العلميـة حيـث مـن السـهل بمـكان اكتشـاف مـا إذا كان زعـم أحدهـم بأنـه عالِـم صحيـح أم لا؟ كأنْ يناولـوه كتابـاً ويطلبـوا منـه تدرسيه فـإن لم يسـتطع يُعلَـم بـأن ادعـاءه زائـف. لا بـد لـروح طالـب الحـوزة أن تتقبّـل الخضـوع للمنهجـة. ولا بـد أن تُمَنهـج هـي لحياتهـا.. يجـب في جميـع شـؤون حياتهـا أن لا تنصـاع لهواهـا.. وأن لا تقـع تحـت تأثـير الضغـوط الخارجيـة. لـذا عـلى مديـري المدرسـة العلميـة أن يقيمـوا علاقـة مـع طالـب الحـوزة ويُعِينـوه عـلى أن يمنهـج هـو لحياتـه. كـما عليهـم أن يعلّمـوه أسـلوب التخطيـط والمنهجـة. مـع الأسـف الحـوزة العلميـة تفتقـد مـادة «الإدارة والتخطيـط» كـدرس عـام.

الذي يفتش عن منهاج جيّد لحياته سيعثر حتماً على منهاج الدين

إذا اقتنع الإنسان بضرورة أن يكون لحياته منهاج فسيفتش - لا محالة - عن المنهاج الجيد، بل وسيجده أيضاً. لهذا ففي وسعنا أن نقول: «صاحب الخطة والمنهجية سيعثر على منهاج الدين». فأنا مثلاً أود أن يكون لحياتي برنامج ولا دخل لي بالدين. لكن لماذا أريد هذا البرنامج؟ لأنه يرفع مستوى لذة الإنسان، ويزيد صموده في مواجهة المعضلات، ويهبه سعة وجودية، ويمنحه سعة الصدر، ويخفض مستوى معاناته، ولا يجعله يتألم، ويزيد من نجاحه في الحياة.

نفس الخضوع لبرنامج وعملية وضع البرامج ما هو تناسبهما مع الدين؟

إذا أردتُ أن أعيش وفق برنامج دون أن تكون لي صلة بالدين والله ورسوله فما الذي سيجعلني أعثر على الدين؟ نفس الخضوع لبرنامج أو عملية وضع البرامج ما هو تناسبهما مع الدين؟ تناسبهما معه هو أنك حينما تدخل حيز الحياة المُمَنهجة فستشرع – شيئاً فشيئاً – بوضع خطط طويلة الأمد، واستشراف المستقبل، والتخطيط الاستراتيجي. فميزة البرنامج هو أنه يستشرف المستقبل؛ فبعد أن ينظر إلى مصالح الغد، يجتازها إلى ما بعد الغد، ومن ثم يرمي بطَرْفه تدريجياً إلى المستقبل الأبعد، فيخطط – مثلاً – للعشر سنوات القادمة.

لماذا يصبح صاحب المنهاج متديناً بشكل تلقائي؟

الذي لا يستطيع التخطيط والمنهجة للعشر سنوات القادمة من عمره لا يملك أن يخطط ويمنهج ليوم القيامة أيضاً.. وهو لا يكون متديناً حسَن التديُّن! فالذي لا يتمكن من أن يمنهج لسِنِيِّ شيخوخته فمن الطبيعي أن لا يدرك أن عليه فعل شيء ليوم القيامة. أيُعقَل لمن لا برنامج له للعشر سنوات القادمة من حياته أن يخطط ليوم قيامته؟! وهل الذي لا يمنهج لحياته سيخطط لما بعد موته؟! الذي يُخضع نفسَه لمنهاج فإنه سيتديّن تلقائياً؛ لأن مثل هذا الإنسان الذي يترعرع على التخطيط والبرمجة لا يبرمج ليومه وغده فحسب! بل سيقول في ذات نفسه ابتداءً: «ما هي خطتي لهذا الأسبوع؟» ثم يقول: «وما هو برنامجي لهذا الشهر؟ ثم لهذا العام؟»

فإن استمرَّ على هذا المنوال فسيصبح متديّناً! فما الذي يطلبه الله ورسوله منا يا ترى؟ يقولان لنا: «خططوا بأنفسكم ليوم القيامة!» ماذا يصنع التخطيط؟ إنه - من الناحية التربوية - يأخذك تلقائياً باتجاه استشراف المستقبل؛ أي باتجاه التخطيط البعيد المدى. فإن أصبحتَ من مستشرفي المستقبل والمخططين على المدى البعيد فستمسي – تدريجياً – متديناً وتدنو من ذروة حقيقة الدين! وعندما يتركز تفكيرك على نقطة النهاية (القيامة) فستتحمل آلام الطريق وتتمكن من تجاهل اللذات الضحلة العابرة. فأي نمط من الناس يخاطب الله عز وجل في قرآنه الكريم عندما يتكلم كل هذا الكلام عن المستقبل والقيامة؟ إنه يخاطب أصحاب الألباب الذين يرمون بطَرْفهم إلى المستقبل ويُمَنهجون لحياتهم!

لماذا يحزن صاحب البرنامج إذا "أذنب"؟/ الذنب هو الخطأ الحاصل أثناء تنفيذ البرنامج

الذي يسير وفق برنامج سيحزن إذا اضطرب برنامجه. فالذي أصبح مبرمجاً لحياته فإنه سيهيّئ بالتخطيط الممهّدات لتنفيذ برنامجه. أتعلم لماذا يحزن الإنسان المبرمج لحياته حينما يذنب؟ لأن الذنب هو خطأ يحصل أثناء تنفيذ البرنامج، وإن الإنسان ليحزن كل الحزن لدى حصول مثل هذا الخطأ أثناء تنفيذ البرنامج الذي وضعه. أما الذي لا برنامج له، والذي يُمضي عمره بشكل عشوائي (دونما حساب) فمن أين له أصلاً أن يفهم معنى التوبة؟! أما الذي أصبح ذا منهاج فإنه ينظر إلى قائمة الفحص خاصته قائلاً: «لقد أفسدتُ اليوم هاتين النقطتين في برنامجي ولم أنفّذهما بشكل صحيح!» إذا بدأ المبرمج لحياته في الدخول – شيئاً فشيئاً - إلى وادي الدين فسيكون مُعَدّاً للحزن العميق لأجل شيء اسمه «الذنب». وفي ميسورك الآن أن تبشّر شخصاً كهذا ببشرى سارة جداً بقولك له: «إن لك ربّاً إذا أخطأتَ في تنفيذ برنامجك وتركت فقرة أو فقرتين من قائمة فحصك دون أن تعلّمهما بعلامة، وأتيته ليلاً طارقاً بابه وصارَحتَه بهاتين الفقرتين فسيتداركهما لك...».

إذا كنتَ تحيا وفق منهاج فسيُصلح الله أخطاءك

إذا كنت تحيا وفق منهاج فإنك ستتحسس وتحزن كثيراً كلما ارتبك برنامجك. وهنا سيقول لك الله، على سبيل المثال: «إنك صاحب برنامج في الحياة.. أَعلَم أنك الآن مستاء جداً لاضطراب برنامجك. تعال وسأصلحه لك.. لا تعذب نفسك كل هذا العذاب! أنا سأصلح الباقي وأتدارك ما فسد...» الذي يعيش وفق منهاج سيتدارك خطأه، أما المنصاع لهواه فلا يكترث لأخطائه وزلاته، ويقول في ذات نفسه: «إن أفلحتُ، أفلحتُ وإن لم أُفلح لم أفلح!» فالذي يعيش هكذا دونما أي منهجة وحساب لا يستاء من عدم نجاحاته وزلاته، ولا يعتذر منها. الذي يسير وفق خطة ومنهاج لا بد أن يحزن كثيراً إذا تخلّف عن خطته ولم يستوفِها بالكامل بل سيتأرّق من فرط حزنه. لكن الله سيخاطبه قائلاً: «لا تحزن، سأساعدك.. إذهب الآن ونَم، وسأعالج المشكلة وأنت نائم! إنك معي.. إنك تعمل في أحضاني.. إنك لست وحيداً..!»

العقل المخطِّط هو العقل الذي يحدد الأولويات

فلنسأل الله أن يهبنا عقلاً مخطِّطاً، والعقل المخطِّط هو العقل الذي يحدد الأولويات؛ أي بإمكانه أن يحدد إن كان عليه إنجاز هذا الفعل أولاً أو ذاك؟ فالأعمال الصالحة كثيرة، والنقائص التي يتعيّن على الإنسان رفعَها كثيرة هي الأخرى، والعقل المخطط هو العقل الذي يعلم من أين يبدأ! من أجل أن تكون مخطِّطاً وقادراً على تحديد الأولويات فاطلب من الله أن يهبك الحكمة، ويمنحك الفرقان وقدرة التمييز بين الخير والشر، ويعطيك البصيرة وينَمّي عقلك. فليس العقل أن تميز الجيد من الرديء، وليس العقل أن تحدد احتياجاتك، بل العقل هو أن تفهم أنه أيّ احتياجاتك له الأولوية؟ وما العمل الذي عليك إنجازه أولاً؟ العقل هو القدرة على التخطيط والتدبير. «فالتدبير» هو «صَفّ الأمور الواحد تلو الآخر»؛ أي أن يَعلَم الإنسان أيُّ الأمور له الأرجحية؟ وأيّ الأعمال الأول، وأيها الثاني؟ على أنه ما كلّ مُطّلع على أحكام الإسلام يكون «مدبّراً» بهذه البساطة.

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ٨)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ١٣/أيار/٢٠١٩ـ ٠٧/رمضان/١٤٤٠

المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)

الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

الخطوة الثانية لاقتناعنا بالتديّن هي أن نكون "نفعيّين وأنانيين"!/ التديّن هو النفعية!/ الذي لا يطالب بمصالحه لا يمكن التحدث إليه عن الدين/ الدين منهاج لتأمين المصالح؛ مصالح الفرد والجماعة على حد سواء

لقد خلقَنا الله نفعيّين، وإن التدين هو النفعية، لكن أي نفع؟.. القليل أم الكثير؟ لو أردنا أن نضع قيداً للأنانية والنفعية كان علينا القول: "طالب بمصالحك كلها... كُن في أعلى درجات النفعيّة... لا تتغاضَ عن ذرّة من مصالحك!"

كيف نُقنع أنفسنا بالتديّن؟/ كيف نجعل في أنفسنا المقدرة على التديّن؟

قد يكون دافع الإنسان للتدين أفضل بكثير من التدين نفسه؛ أي إن نية المرء وحافزه لممارسة السلوك الديني أهم من السلوك ذاته، وإن كان هذا السلوك نفيس في حد ذاته. السؤال هو: كيف نُقنع أنفسنا بالتدين؟ ثم إذا أقنعناها، كيف نجعل في أنفسنا المقدرة على التديّن؟ فالتدين بحاجة إلى مقدرة ومهارة، لا لأنّه صعب إلى أبعد الحدود، بل لأن أعمالاً كالسياقة والسباحة مثلاً هي الأخرى بحاجة إلى مقدرة ومهارة، لكن ما إن يكتسب المرء مهارة هذا العمل فإنه لا يصبح سهلاً عليه فحسب، بل وممتعاً له أيضاً.

التديّن لمن اكتسب المهارة والمقدرة ليس غير صعب فحسب، بل وجذاب أيضاً

التدين بحاجة إلى بعض المهارة؛ فأذهاننا مثلاً لا بد أن تعتاد مجموعةً من الأعمال، وأرواحنا ينبغي أن تتعوّد طائفة من النشاطات (كاكتساب الدافع)، هذه هي مهارات التدين. فإن كان العمل بحاجة إلى مهارة خاصة لإنجازه وكان الشخص يفتقد هذه المهارة فسيصعب عليه هذا العمل رغم سهولته. ودين الله تعالى سهل يسير. لكنه صعبٌ على مَن؟ إنه صعب على من لا يتقنه ولم يكتسب المهارة اللازمة له. عندما نتحدث عن اكتساب المقدرة للتدين أو الاقتناع به فلنعلم أن صعوبة التدين هي في اكتساب المهارة من أجله وما إن تُكتسب هذه المهارة حتى تزول الصعوبة، وعندها سيكون التديّن مدعاةً لتسلية المرء؛ شأن السباحة التي إذا تعلمها المرء فسوف لا تزول صعوبتها فحسب، بل ستتحول إلى سبب لتسليته ومتعته.

اِعلَم أن ما ينطوي عليه التديّن من تسلية يفوق قطعاً سائر التسالي.. كن على يقين بأنه مُسَلٍّ إلى أبعد الحدود! فإن تعلّمتَ مهارة التدين صِرتَ بطل مسلسل عبوديتك وحياتك، وهو مسلسل جذاب جداً وسيشغل فكرك دوماً حتى لتودّ أن لا يتشتت ذهنك هنا وهناك، كما لو كنت تشاهد مسلسلاً تلفزيونياً جذاباً ولا ترغب أن ينصرف فكرك إلى شيء آخر ولذا تراك تُبعد عنك المؤثرات المشتتة للذهن.

"محاسبة النفس" التي يؤكد عليها الدين هي إحدى مهارات مَنهَجَة الحياة

كما مر فإن الخطوة الأولى من أجل أن نقتنع بالتديّن ونكتسب القدرة عليه هي الاقتناع بأن نعيش حياةً مُمَنهجة وأن نكون قادرين على التخطيط؛ أي أن نكتسب مهارة المَنهَجة لحياتنا. و»محاسبة النفس» التي ورد التأكيد عليها في الدين هي جزء من مهارة منهجة الحياة هذه؛ ذلك أن أحد أقسام المنهجة هو أنهم يجعلون لكل منهاج طريقةً لقياس مقدار النجاح فيه؛ أي إنهم يضعون المعايير قائلين: «إذا طبّقتَ هذا المنهاج بشكل صحيح فلا بد أن تخرج بالنتائج التالية...» ثم يضعون طريقة لتقوم أنت بتقييم ما إذا كنتَ قد طبَّقتَ هذا البرنامج بشكل صحيح أو لا.

أين وردَت كلمة "المنهجة" في الدين؟

يسأل البعض: «من أين أتيتَ بكلمة «المَنهَجة» وأهميتها في التدين؟!» أقول: ما معنى كلمة «المراقبة» التي تُستعمل في المباحث العرفانية والأخلاقية؟ «التقوى» أساساً تعني المراقبة؛ فالمعنى الدقيق للفظة «التقوى» ليس الاتقاء، بل إن معناها الجميل والدقيق هو «المراقبة» تحديداً.. كأنْ نقول: «إياك والنار!» «انتبه لعملك!»، «راقب ربك»... أتلاحظ كم تكرّرَت لفظة «المراقبة» في مباحثنا العرفاني! فالمراقبة قبل العمل تعني المَنهجة. كأن تقول: «راقب نفسك لئلا تُفرّط بالنجاح الذي حصلتَ عليه اليوم!» ويلزم المرءَ للمراقبة عادةً لائحةُ تدقيق يسجل فيها أفعاله وفقاً لخُطّة معيّنة؛ بالضبط كمساعد الطيار الذي يمسك بلائحة تدقيق لمراقبة كل شيء. وللممرضين لائحة فحص يسجلون فيها وضعية المريض. كما أن لبعض أصحاب الدكاكين ورقة يقيّدون فيها مبيعاتهم.

ما هي الخطوة الثانية للاقتناع بالتدين والإقلاع عن المعصية؟

كما تقدم فإن الخطوة الأولى هي الاقتناع بمنهجة الحياة، ومن ثم بالطبع «اكتساب القدرة على العيش المُمَنهج» إلى درجة «أن نعتاد العيش وفق برنامج وخطة». ولنتحدث الآن عن الخطوة أو المرحلة الثانية للاقتناع بالتدين وترك المعصية. هدفنا هو إقناع أنفسنا بالكف عن الذنوب وتبسيط هذا الأمر لأنفسنا إلى درجة الاستمتاع بتلَهّينا بعملية «المراقبة لاجتناب الذنب» (المراقبة التي تسمى «التقوى»). كما قد بيّنّا سابقاً فإن أساس التدين هو الكف عن المحارم. وإن مخالفة الأقدمين للأنبياء ومحاربتهم إياهم على أمر الله تعالى كان يدور في الأساس حول الكف عن المعاصي. وإلا فلو اقتصر الأمر على الإيمان بالله عز وجل لكان إبليس قد آمن بالله، ولكان قابيل وجميع قتلة الأنبياء ومعارضيهم قد آمنوا به أيضاً! فجميعهم كانوا، بشكل طبيعي، مؤمنين بالله؛ فهذا قاتل أبي عبد الله الحسين(ع) في عصر يوم عاشوراء يطالب القوم بأن يأخذوا منه رأس الحسين(ع) قبل أن تفوته صلاته! فالمشكلة الكبرى لم تكن الإيمان، بل الدين، ومشكلة الدين هي الكف عن المعاصي.

الخطوة الثانية للاقتناع بالكف عن المعصية هي أن يكون الناس نفعِيّين وأنانيين!

الخطوة الثانية على طريق الاقتناع بالتديّن والكف عن الذنوب خطوة غريبة جداً، وهي أن يكون الناس نفعيين وأنانيين! فما لم تصبح نفعياً وأنانياً فسوف لا تستطيع ممارسة الدين! لا تبع نفسك... لا تنس نفسك... خُذ مصالحك بعين الاعتبار! الخراف ليست مخلوقات أنانية! فهي تشاهد أنهم يقتادونها الواحد تلو الآخر نحو المسلخ لكنها لا تفر ولا تناضل للبقاء أبداً! فالحيوان مخلوق خُلق من أجل الإنسان وهو ليس أنانياً، أما الإنسان فلقد خُلق لنفسه ولا بد أن يريد نفسَه!

هل "الأنانية" سيّئة حقاً؟!

الأنانيـة في ثقافتنـا «سـيئة!» لكـن لا وجـود لهـذا المعنـى في النصـوص الدينيـة العربيـة. فأيـن الآيـة القرآنيـة التـي توصينـا «باجتنـاب الأنانيـة؟!» ولمـاذا أساسـاً لا نكـون أنانيـين؟! فـلا وجود في الديـن لمعنى «بـذل النفـس!» أقصى درجـات بـذل النفـس إن بَلَغناهـا هـي «الشـهادة»، واللـه يعـبّر عـن الشـهادة بمـا يشـبه «التجـارة»؛ فالشـهيد هـو الـذي يشـتري اللـهُ نفسَـه، وهـو نفسُـه يجنـي مـن هـذه التجـارة ربحـاً: «إِنَّ اللـهَ اشْـتَرى مِـنَ الْمُؤْمِنِـينَ أَنْفُسَـهُمْ وَأَمْوالَهُـمْ بِـأَنَّ لَهُـمُ الْجَنَّـةَ يُقاتِلُـونَ فِي سَـبِيلِ اللـهِ فَيَقْتُلُـونَ وَيُقْتَلُـونَ وَعْـداً عَلَيْـهِ حَقّـاً فِي التَّـوْراةِ وَالإِنْجيـلِ وَالْقُـرْآنِ وَمَـنْ أَوْفى بِعَهْـدِهِ مِـنَ اللـهِ فَاسْـتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُـمُ الَّـذِي بايَعْتُـمْ بِـه» (التوبـة/١١١). مـع الأسـف فـإن مفاهيـم مثـل «الأنانيـة» «وبـذل النفـس» في أدبنـا لم تُـدرَك بشـكل صحيـح. فـالأدب هـو الآخـر قـد يحيـد عـن مسـاره ويتعـيّن حينهـا إعادتـه إليـه.

أوَيمكن أن يكون الدين مضراً للإنسان؟

حـول هـذا الموضـوع سـألني شـاب ذات مـرة قائـلاً: «تقـول إن عـلى الإنسـان أن يكـون نفعيـاً لا أخلاقـي النزعـة؟ لكـن مـاذا لـو أضَرَّ الديـنُ بالإنسـان في موضـعٍ مـا، أوَيتخـلّى الأخـير حينئـذ عـن الديـن؟!» لكـن أوَيمكـن أن يكـون الديـن مـضراً للإنسـان؟! هـذا السـؤال يـؤشر عـلى أن الكثـير مـن الركائـز المعلوماتيـة لذهـن هـذا الشـاب فاسـدة! أوَيأمـرك اللـه يـا تـرى: «اِعمَـل بمـا يـضرُّك وبمـا ينفـع الديـن؟» لكـن مـا هـو الديـن كي أعمـل بمـا ينفعـه؟ الديـن مـن أولـه إلى آخـره يعمـل بمـا فيـه نفـع الإنسـان نفسـه. أتـدري لمـاذا يـترك النـاسُ الديـنَ؟ لأنهـم لا يريـدون أنفسـهم!... لأنهـم لا يبغـون مصالحهـم! والحـق إن الإنسـان الـذي لا يريـد نفسـه ولا يسـعى وراء منافعـه سيشـقى. والإنسـان الـذي لا يريـد منفعتـه سـتكون ربـع آيـات القـرآن الكريـم – التـي تتحـدث عـن الجنـة والنـار - غـير ذات جـدوى لـه! فالخـوف مـن النـار هـو صفـة مـن يريـد نفسـه ولا يرغـب في عذابهـا، والتـوق إلى الجنـة هـو سـجية مـن يريـد نفسـه ويحـب أن يلتـذ ويسـتقر في أفضـل مـكان في الجنـة.

الذي لا يطالب بمصالحه لا يمكن التحدث إليه عن الدين

اعمل أنت أوّلاً على تربية طفلك على الأنانية كي أقول له أنا: «هذه هي مصالحك...». فالذي لا يكترث بنَيل منفعة نفسه كيف لي أن أحدّثه عن الدين؟ علينا أن نربي الطفل بحيث يبدأ هو بالمطالبة بمنافعه بعيدة الأمد. فإن أخبرتَ طفلاً: «بأنك إن لم تدرس ولم تجتَز مراحل العلم العليا وأمضيتَ وقتك باللهو والتفاهات فإنك ستندم بعد عشر سنوات..» فأجابك: «لا يهمني!» فإن مثل هذا الإنسان الذي لا يأبه بمصالحه بعد عشر سنوات سوف لا يكون متديناً، لأن الدين يريدنا أن نحصل على منافع أكثر.

هل سيتطاول الأناني على مصالح غيره؟

قد يقول قائل: «الذي ينشأ أنانياً سيتطاول على مصالح غيره لبلوغ مصالحه.» حسنٌ، علينا توخّي الحذر لمنع حصول هذا. فكما تحثنا الأحاديث الشريفة على تأمين مصالح أنفسنا فإنها تطالبنا باحترام مصالح الآخرين؛ إذ يقول أمير المؤمنين(ع): «فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ وَلا تَظْلِمْ كَمَا لا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمْ» (تحف العقول/ ص٧٤). الذي يرى لنفسه ولمصالحه قيمة يستطيع أن يدرك أن للآخرين مصالحهم أيضاً؛ أي إنه سيعطي الآخرين الحق ويحرص على مصالحهم. أوّلاً تربَّ أنتَ أنانياً ونفعيّاً كي أستطيع أنا أن أتلو عليك هذا الحديث: «أحبب لغيرك ما تحب لنفسك!» فالذي لا يطلب لنفسه المنفعة، بل ويريد لها التعاسة فمن المؤكد أنه سيطلب التعاسة لغيره أيضاً. والذي قد عمل على تحطيم نفسه فإنه يود لو يحطم الآخرون أنفسَهم؛ بالضبط كالمدمن (على المخدرات) الذي انحدر بنفسه إلى الحضيض ويريد جرّ الآخرين إلى الإدمان أيضاً.

إذا لم تأخذ منفعة الآخرين في عين الاعتبار خسرتَ!

إن قلنا لأحدهم: «لا تنظر إلى مصلحتك فقط، وانظر إلى مصالح الآخرين أيضاً» لم يكن كلامنا صحيحاً ودقيقاً. فالأدق أن نقول: «إن ألحقتَ بأحد ضرراً عاد الضرر عليك في النهاية». حتى أنه رُوي عن أمير المؤمنين(ع) قوله: «مَا أَحْسَنْتُ إِلَى أَحَدٍ» فلما سمع الناس قوله(ع) رفعوا رؤوسهم تعجباً من قوله، فتلا(ع) الآية: «إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا» (الإسراء/٧) (نثر الدر/ ج١/ ص٢٩٣، وتفسير جوامع الجامع/ ج٢/ ص٣١٨). إن لم تأخذ منفعة الآخرين بعين الاعتبار خسرت. فنحن إذن بحاجة إلى الاهتمام بمصالح الآخرين أيضاً؛ فعندما تتصدق مثلاً عليك أن تعلم أن صدقتك تنفعك أنت كذلك، فلا داعي إذن لأن تمُنّ بسببها! ففي الحديث إن الثري إذا أعطى أحداً مالاً كان كالحمال الذي ألقى حمله على كاهل غيره. إذن الغني الذي لا يساعد الآخرين هو كالحمال الذي ينوء دائماً بحِملِه أينما ذهب ولا يطرحه أرضاً إلى أن يموت! «وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلا تَجِدُهُ وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ» (نهج البلاغة/ الرسالة٣١). فعندما تدفع مالك للفقير فإنك في الواقع تقول له: «إنني غير قادر على حمل هذا المال إلى يوم القيامة أما أنت فتستطيع حمله لي، فهلا أتيتَ لي به إلى هناك؟» فما من أحد باستطاعته حمل ماله معه إلى يوم القيامة، إلا أن يدفعه لشخص آخر ليأتيه به! هذا هو منطق ديننا.

لا تتغاض عن منفعتك قيد شعرة وإلا قسا قلبُك بالمقادر ذاته!

تفحّص أدعية أئمة الهدى(ع) وستلاحظ أن أسلوبها نفعي أكثر منه غرامي! لكن أي نفع؟.. القليل أم الكثير؟ لو أردنا أن نضع قيداً للأنانية والنفعية كان علينا القول: «طالب بمصالحك كلها... كُن في أعلى درجات النفعيّة... لا تعدِل عن ذرة من مصالحك!» طالب بكل ما هو في صالحك في هذا العالم.. لا تتغاضَ عن منفعتك قيد شعرة وإلا قسا قلبُك واسوَدَّ بالمقدار ذاته! إنّ من الخطأ أن نتخيل أننا إذا غدونا نفعيين قسَت قلوبُنا! بل إن القاسي القلب هو الذي يتغاضى عن قسم من منافعه! لا بد لنفعيتنا أن تكون مطلقة. فلقد خلقَنا الله نفعيين، وإن التدين هو النفعية تحديداً.

الدين منهاج لتأمين مصالح الفرد ومصالح الجماعة على حد سواء

لقد وصلت بنا الأمور - مع الأسف - إلى أن البعض أخذ يتهم الثوريين – الذين أصبحوا ثوريين بسبب تدينهم – بأن: «ثوريتكم جعلتكم تتغاضون عن مصالحكم الوطنية!» في حين أنه لم يصبح هذا الثوري ثورياً إلا لإبائه التنازل عن ذرة من مصالحه للأعادي. أما المستسلم فهو على استعداد للتنازل للعدو عن مصالحه، بل وليصبح مطيّتَه أيضاً! فلو كنا متدينين حقاً لأبَينا التغاضي عن شعرة من مصالحنا للأعادي أو التراجع أمامهم. الدين يجعل المرء حريصاً على منفعته حرصاً يجعله يُفني كل من يحاول استلابها. والله عز وجل لا يطلب منا أبداً التنازل عن مصالحنا من أجل ديننا! بل إن الدين – بالمناسبة – هو منهاج لتأمين المصالح؛ سواء مصالح الفرد أو الجماعة.

الحكمة من أوامر الله هي أن لا تتضرّر أنت

روي عن أمير المؤمنين(ع) قوله: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا خَلَقَ خَلْقَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونُوا عَلَى آدَابٍ رَفِيعَةٍ وَأَخْلاقٍ شَرِيفَةٍ، فَعَلِمَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ إِلاّ بِأَنْ يُعَرِّفَهُمْ مَا لَهُمْ [ما ينفعهم] وَمَا عَلَيْهِمْ [ما يضرّهم] وَالتَّعْرِيفُ لا يَكُونُ إِلاّ بِالأَمْرِ وَالنَّهْيِ» (الاحتجاج/ ج١/ ص٢٠٧). فلماذا يوجّه الله إلينا الأوامر أساساً؟ يوجّهها لأجل مصالحنا. فما الأمر الذي تريد أن يوجَّه إليك إن لم تكن نفعيّ النزعة؟! فإن الحكمة من أوامر الله هي أن لا تتضرّر أنت.

منطق القرآن الكريم هو: الصوم والصدقة والجهاد هي في صالحك!

منطق القرآن الكريم هو أن صومك هو في صالحك، إن أدركتَ ذلك! «وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (البقرة/١٨٤). وفي آية أخرى إنّ تصدقك خير لك إن كنت تعلم: «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (البقرة/٢٨٠)؛ ففي التصدق منفعة للإنسان، ولأن الله يريد لك هذه المنفعة فإنه يقول لك: «تصدّق». عندما يرى المرء أن باستطاعته مساعدة مؤمن فلا بد أن يُسَرّ لذلك ويرغب في هذا الفعل لأن فيه نفعه. هكذا هي قوانين العالم. يقول عز من قائل في آية أخرى: «انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (التوبة/٤١).

لاحظ المنطق القرآني.. إنه يقول: «فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيل» (يونس/١٠٨)؛ أي: يا أيها النبي، قل للناس إن من اهتدى فقد اهتدى لصالح نفسه ومن ضلَّ فإنه يضُرّ نفسَه، وما أنا عليكم بوكيل ولا حارس! أي عليكم أن تهتموا أنتم بأنفسكم! وقد تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم مراراً، وهو قوله: «يا أيها النبي، قل للناس أنني لست عليكم بوكيل» فاعتنوا أنتم بمصالح أنفسكم. يقول تعالى: «مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْها» (فُصّلت/٤٦)؛ أي مَن عمل خيراً فعمله لمصلحته، ومن عمل سوءاً فقد أضرَّ بنفسه. نعم الجواب على السؤال: «لماذا هذا الفعل خير لنا ولصالحنا؟» قد يكون معقّداً بعض الشيء، إلا أن البعيد عن الأنانية والنفعية لا يفهم أصلاً هذه الأمور لأنه قد تنازل عن منافعه!

المتجاهر بالفسق يضر بالمجتمع

لو كانت أدبياتنا الدينية في مجتمعنا سليمة لأدركنا أن المتجاهر بالفسق أمام الناس يضرّ – في الحقيقة - بالمجتمع كله؛ بالضبط كمن يستمر بالضغط على زر منبّه السيارة محطّماً أعصاب الناس، فلا بد من منع شخص كهذا من هذا الفعل لأنه يؤذي الآخرين. فلو كانت أدبياتنا الدينية سليمة لاصطدمنا مع كل متجاهر بالفسق بهذه الطريقة. المتجاهر بالفسق لا يملك أن يقول: «لستُ على هذه العقيدة!» وهل يُسمَح لك، يا هذا، بالتصرف بما يضر بالآخرين يا ترى؟! هل الأمر باختيارك أنت؟! الدين شيء يصب في مصلحتنا، والمُعلِن لفسقه إنما يضر بالمجتمع كله. فكيف يا ترى يُتصرَّف في باقي أنحاء العالم مع من يُلحق الضرر بالمجتمع كله؟!

الذي يعلن الفسق في المجتمع لا يملك القول: "هذا ما أؤمن به!"

الذي يتجاهر بالفسق في المجتمع لا يملك أن يقول تبريراً لتصرفه: «هذا ما أؤمن به، والدين مسألة شخصية!» فهو كمَن يهدم جدار داري قائلاً: «إنها مسألة شخصية وذوقية!» أو كمن يسرق مالي قائلاً: «السرقة برأيي ليست عملاً قبيحاً!» لماذا نقدم الدين للناس «كاعتقاد محض» كي ينبري بعضهم للقول:

«كل امرئ وما يعتقد به!» أجل، كل امرئ وما يعتقد به، لكنك تعلم يا هذا أن عليك الوقوف عند الإشارة الضوئية! إذ ليس من حقك إشاعة الفوضى في المدينة! والذي يتجاوز على الخط السريع السرعة المقررة (١٢٠ كم بالساعة مثلاً) لا يحق له الاعتراض على شرطي المرور أنْ: «في اعتقادي أن مَن يتجاوز سرعة ١٢٠ لا يستحق التغريم، فأعلى سرعة مُجازة في نظري هي ١٤٠!» وهل أمثال هذه الأشياء هي بالرأي والاعتقاد؟! وهل الدين معتقَد شخصي؟! الدين منفعة! أتدري في مصلحة من يصب قولك: «الدين عقيدة شخصية»؟ إنه يصب في مصلحة جميع الفساق!

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ٩)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ١٤/أيار/٢٠١٩ ـ ٠٨/رمضان/١۴۴٠
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

نحن بحاجة إلى إطلاق "حركة إزالة سوء التفاهم"!/ خطابنا الديني الرائج للتعريف بالدين ليس واضحاً/ إن كان تديّننا من منطلق النفعية فماذا عن الحب إذن؟!

الإنسان يحب الله بباعث النفعية.

كثير من المتملصين من الدين، سواء الفارين منه أو حتى المناوئين له، ليسوا أناساً سيئين ولا يصح أن يقال إنهم مرضى، بل إنهم ضحية سوء تفاهم، ولو أزيل سوء التفاهم هذا لفهموا الدين وقبلوه. لذا فإننا بحاجة إلى إطلاق "حركة إزالة سوء التفاهم".

أيمكن أن يعيش الكل في المجتمع العالمي تحت ظل دولة واحدة ودين واحد؟

لقد خُلقت في مجتمعنا بل وفي المجتمع العالمي أنماط عميقة وكثيرة جداً من سوء التفاهم استغلها أعداء البشرية وأعداء الدين لصالحهم. ولو أُزيلَت أنماط سوء التفاهم هذه لرأيتم كيف ستتمكن دولة عالمية واحدة يحكمها دين ومسلك واحد أن تبقى مستقرة أبداً بلا توتر وضغوط، دون أن يلجأ صاحب الزمان(عج) فيها إلى الكثير من أساليب السيطرة على المجتمع وأدوات حفظ نظامه. هل من الممكن حقّاً أن يعيش الكل في المجتمع العالمي، بكل ما فيه من تنوع في المذاهب واختلاف في الأذواق وتباين في التاريخ ـ أن يعيشوا تحت ظل دولة واحدة ودين واحد؟ أجل ممكن، وإن استبعد أحدٌ هذا الآن فذلك بسبب أشكال سوء التفاهم المغروسة في الأذهان، وإلا ففطرة الناس فطرة إلهية: «فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» (الروم/٣٠). على سبيل المثال، الكل في العالم يفهم ويُقرّ بأن السرقة بذيئة. فتخيل لو أن الناس فهموا ديناً واحداً وشريعة واحدة أفضل فهم وقبلوهما أحسن قبول ماذا سيحصل؟ عندها سيكون في الميسور أن يكون لنا دين عالمي واحد كميثاق دولي! فحينما يكون الدين على أعلى مستوى من الوضوح، والعقلانية، والجذابية، والمنطقية فلا بد أن يقبل به الجميع، إلى درجة أن يعبّر الله عز وجل عنه: وهل يرفض الدين إلا الجاهل: «وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ» (البقرة/١٣٠).

نحن بحاجة إلى إطلاق "حركة إزالة سوء التفاهم"!

كثير من المتملصين من الدين، سواء الفارين منه أو حتى المناوئين له، ليسوا أناساً سيّئين ولا يصح أن يقال إنهم مرضى. نعم، قد يكونون ضعفاء نفوس، لكنهم ليسوا مرضى، بل إنهم ضحية سوء تفاهم، ولو أزيل سوء التفاهم هذا لفهموا الدين وقبلوه. نحن بحاجة إلى إطلاق «حركة إزالة سوء التفاهم»؛ ذلك أن سوء التفاهم هذا قد استفحل واتسعت دائرته جداً ولن يتبدّد بالرد على بضع شبهات والإجابة على بعض التساؤلات. ففي سياق حركة إزالة سوء التفاهم لا بد أن نقول أمام كل نزاع يطرأ: «قد يكون ثمة سوء تفاهم! لعله نزاعٌ حول العنب والكَرْم؛ فكلاكما يتحدث عن العنب لكنكما تستخدمان لفظتين مختلفتين!»

خطابنا الديني الرائج اليوم للتعريف بالدين ليس واضحاً

خطابنا الديني الرائج للتعريف بالدين ليس خطاباً واضحاً، وهو عاجز عن حل المعضلات أو إزالة الأفكار الخاطئة التي يحملها الكثير من أفراد المجتمع، ولا بد لهذا الخطاب أن يتغير. لا ندّعي أنه: «لا بد من تغيير الدين من الأساس!» بل نقول: «ينبغي تغيير خطابنا الديني كي لا يولّد سوء تفاهم حول الدين». عندما لا نطرح الدين بشكل صحيح تطرأ إشكالات؛ كأن لا يكون هذا الدين جذاباً للكثيرين، فيعزفون عنه، بل ويكرهونه أيضاً. بل سينفذ العدو هنا ويبدأ باستغلال الوضع وإضلال الناس. لاحظوا كيف يعرّفون التلاميذَ بالدين في المناهج الدراسية؟ إنهم يثبتون وجود الله أولاً ثم يقولون: «يجب أن تطيعوا الله»، ومن ثم يقولون: «إن لم تطيعوا الله فإن مصيركم نار جهنم!» صحيح أن كل عبارة على حدة هي عبارة صائبة لكنك إذا ركّبتها مع بعضها فستكون النتيجة التالي: «لقد أثبتنا أن الله موجود، والآن إن لم تعبد هذا الرب فستذهب إلى النار!» حسنٌ، من الطبيعي أن حالة من سوء التفاهم ستتولد إذا قدّمتَ الدين بهذه الطريقة!

أغلب معارضي الثورة واقعون في سوء تفاهم، وإزالة اختلاف الرأي ممكن

الكثير من المعاندين، أو المعارضين للثورة الإسلامية، أو الذين حادوا عن خط الإمام الراحل(ره) إذا أصغيتَ لكلامهم اكتشفت أن مأربهم أساساً هو الصواب لكنهم واقعون في لَبس وسوء تفاهم. من هنا فإن إمكانية عودتهم متاحة تماماً، وهناك حقاً إمكانية لإزالة اختلاف الرأي. مشكلتنا هي أننا لا نتكلم بالشكل الصحيح ولا نطرح الدين بصورة سليمة، وحركة إزالة سوء التفاهم هدفها اجتذاب معظم الذين عزفوا عن الدين وعن الله وعن الإسلام الأصيل وإعادتهم إلى هذه الجادة. لقد قدمنا أكثر من ٢٠٠ ألف شهيد لنقول: «طيلة تاريخ إيران وخلال أي عهد من عهودها لم يتم الدفاع عن تراب الوطن والمصالح الوطنية كما قد دُوفِع عنها في عهد هذه الثورة!» لكنه، وبسبب سوء التفاهم هذا، ترى البعض اليوم، وتحت شعار «الذود عن المصالح الوطنية»، يهاجم نهج الشهداء! والسبب هو أن مؤيدي هؤلاء الشهداء لا يُحسنون الخطاب إلى حدٍّ ما. بالطبع كلام معظم المتدينين والثوريين ليس خاطئاً، بل وصائب، لكنه يخلق حالة من سوء التفاهم.

لماذا يُنظر في مجتمعنا إلى موضوع "الكف عن الذنب" على أنه موضوع غير جذاب؟

موضوع بحثنا هو «الكف عن الذنب». وكما تقدم فإن مشكلة الدين الأساسية - مع المتدينين والمجتمع الديني والمجتمع البشري - تدور حول قضية «الكف عن المعاصي»، لا حول مسألة مخالفة الله! والسؤال هنا هو: كيف للناس أن يقتنعوا بأن لا يرتكبوا الذنب؟ الجواب: لا بد أولاً أن يفهموا «ما هو الذنب؟» أفراد مجتمعنا عموماً، ومن خلال هذا الخطاب الديني الشائع، لا يدركون تماماً المراد من الذنب! إنهم عموماً لم يتربّوا على ترك المعصية. بل إذا تحدث عالِم دين عن المعاصي ترى الكثيرين يكرهون الإنصات إليه ويفرون منه، لأنهم يرون أنفسهم عاصين فيقولون في ذات أنفسهم: «لا بد أنه يريد الآن موعظتنا بأن: لا تذنبوا!»

الفهم العام للمعصية في مجتمعنا ليس فهماً صحيحاً

في مجتمعنا - مع الأسف - إذا طُرح موضوع المعصية فُهم على أنه موضوع غير جذاب وأنه مدعاة لفرار الناس من الدين؛ ذلك أن الدين لم يُقدَّم للناس بشكل جيد وهو ما خلق حالة من سوء التفاهم حوله. بل إن بعض السياسيين يهزأون في حملاتهم الانتخابية من «النهي عن المنكر» (النهي عن المعصية) فيفوزون في الانتخابات! أي إن الناس تمنحهم أصواتها دون أن تجد فيهم كفاءة خاصة أو قابلية معيّنة! لماذا وضعُ مجتمعنا هكذا؟ لماذا يفوز في الانتخابات مَن يسخر من فريضة النهي عن المنكر؟ ذلك أن الفهم العام للذنب في مجتمعنا فهم خاطئ ويشوبه سوء تفاهم؛ أي إن الأغلبية لا تعلم أن المعصية هي حقاً ضارة بالفرد والمجتمع، وإن الكف عنها هو في صالحنا، وإلا فليست القضية أبداً أن معظم أفراد شعبنا سيّئون! فهم في أغلبهم لا يعانون نقصاً على مستوى الإيمان والمعرفة. نعم هناك الكثير من الضعف والقوة بين المستويات الثقافية المختلفة لكنه يمكن التفاهم مع الكثير منهم.

كيف نتكلم في الدين بما لا يخلق سوء تفاهم؟

كيف نتكلم في الدين بما لا يخلق سوء تفاهم؟ كيف نقيم حالة تربوية دينية بحيث لا يتولد سوء تفاهم؟ كما قد أسلفنا فإن الخطوة الأولى على طريق الاقتناع بترك المعصية هي أن ينشأ الإنسان «صاحب خطة وبرنامج»، ويؤمن بأنه بحاجة إلى منهاج، وأن العيش بلا منهاج غير ممكن! لا بد أن يمتلك الإنسان القدرة على التخطيط ويقتنع بأن يعيش أكثر حياته وفق برنامج. إنك إذا أصبحتَ ذا منهاج فستكون ذا تخطيط طويل الأمد، وإنْ أمسيت ذا تخطيط طويل الأمد فستجعل منك النظرةُ البعيدة الأمد هذه شخصاً بعيد النظر. وبعد أن تصبح بعيد النظر وترى مصالحك الأبعد فستغدو رجلاً إلهياً ودينياً! بل في ميسورنا أن نقول في تعريفنا لأمير المؤمنين(ع) إنه كان رجلاً ذا نظرة بعيدة المدى في تخطيطه لحياته! قد تسأل: «الغربيون أصحاب منهاج وتخطيط، فهل هم مقبولون لديك؟» من محاسن الصدف أن مأخذي على الغربيين هو أنهم ليسوا أهل برمجة وأنهم ضعفاء في التخطيط! فلو كانوا ذوي برنامج وقمّةً في التخطيط لما احتاجوا إلى ارتكاب كل هذه الجرائم والمجازر في العالم لكي يصبحوا،

ويظلوا أكثر ثراءً! فلأنهم فاشلون في التخطيط فإنهم لا يجدون بُداً من اللجوء إلى السلاح وقتل الشعوب الضعيفة. فلماذا يقترفون كل هذه الجرائم؟ لأنهم يفتقرون إلى المنهجة الصحيحة وأنهم غير قادرين على دفع عجلة تقدّمهم عبر التخطيط الاقتصادي المحض. فإن ضعفهم - بالمناسبة - هو في افتقارهم إلى المنهجة!

الخطوة الثانية للاقتناع بالتدين هي أن تكون نفعياً!

كما قد مر في المحاضرات الفائتة فإن الخطوة الأولى لاقتناع الإنسان بالتدين هي أن يكون مُخطِّطاً في حياته، وإذا قُدِّم الدين إلى الناس بهذه الطريقة يكون قد قُدِّم بشكل صحيح. الخطوة الثانية هي أن يكون الإنسان نفعياً، ويحب نفسه أيما حب، ويهوى مصالحَه. علينا أن نلقّنه بأن: لا تتغاضَ عن أي منفعة من منافعك؛ بمقدورك أن تستمتع بعشر لذات، فلماذا لا تستمتع بها؟! في استطاعتك أن تكتسب هذه القدرات العشرة، فلماذا لا تكتسبها؟!

رَبِّ ولدك على عدم القناعة بالقليل/ الإمام الصادق(ع) يدعو إلى التسابق إلى أعلى درجات الجنة

الذي يتغاضى عن معظم مصالحه تعيس الحظ! هدفنا هو أن نربي أولادنا على أن لا يتنازلوا عن أي مصلحة ولا يقنعوا بالقليل؛ فهذا أهم عندنا من أن يخافوا من الخطر! وهذا أهم لدينا من أن يُقدِم ولدُنا على فعلٍ خشية أمرٍ آخر! إذا رغبت في تربية طفلك أو تهذيب نفسك فاطمع بالمنافع الكبيرة التي ينبغي أن تصيبها. حتى الخوف من نار جهنم لا يفعل كل هذا الفعل! فعن الإمام الصادق(ع) لشعيته: كونوا مرتاحي البال، إذ سنشفع لكم لتخليصكم من النار، فتسابقوا أنتم لبلوغ أعلى الدرجات: «وَاللهِ لا يَدْخُلُ النَّارَ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَتَنَافَسُوا فِي الدَّرَجَاتِ» (الأمالي للطوسي/ ص٢٩٦)، و: «لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، كُلُّكُمْ فِي الْجَنَّةِ، فَتَنَافَسُوا فِي الدَّرَجَاتِ» (الأمالي للطوسي/ ص٧٢٢-٧٢٣). إن أردتَ تنشئة شيعي فنشّئه من البداية بحيث إذا قلت له: «إنك تستطيع اجتياز هذه المراتب أيضاً.. إن باستطاعتك امتلاك هذه الأمور كذلك..» فسوف لا يغض طرفاً عن هذه المراتب العالية وسيقول: «أصبو لهذه أيضاً!»

أحد أساليب إبليس هو أنه يجعل الإنسان يقنع بالقليل

أحد أساليب إبليس اللعين هي أنه يجعل الإنسان يقنع بالقليل قائلاً: «هذا يكفي!» بل ويهمس في أذنيه بمواعظ أخلاقية تدعو، في الظاهر، إلى التواضع من أنه: «ولِمَ تريد هذا؟!» فإن قلت مثلاً: «أريد أن أكون كآية الله بهجت(ره)» يقول: «لا تمزح! أين أنت من الشيخ بهجت! حسبُك أن تصلي ركعتين!» أما أنت فأجبه: «ولِمَ أقنع بالقليل!» القائلون: «فليُدخلونا الجنة على أية حال.. لا يهم في أي موضع منها! حتى لو في أوطأ درجاتها!» أمثال هؤلاء نسمّيهم: «جهنّميّي الجنة!» فهؤلاء ليس لهم رصيد تربوي سليم أبداً. فمَن إذن الذي يملك رصيداً تربوياً سليماً ليمارس التدين؟ إنه الشخص النفعي.. الذي لا يقنع بالقليل.. إنه الذي يحاول أن يسبق الآخرين.

عُلُوّ الهمة وعدم القناعة بالقليل هو أحد عناصر النفعية

الراغب في التدين لا بد أن يكون نفعياً. وهنا نضيف إلى النفعية قيداً آخر هو «عُلُوّ الهمة وبعد النظر». إن من ركائز التدين لمن يشاء أن يتدين هو أن يكون ذا شخصية صفتها أنه يحب نفسه، بل ولا يقبل ببيع نفسه بثمن بخس، ولا يقنع بالقليل، ويهوى مصالحه إلى درجة أنه إذا مُني بخسارة توجه إلى ربه منتحباً قائلاً: «إلهي، لقد خسرت في هذه القضية، ولا أحب الخسران..» هذه هي مختلف عناصر النفعية.

"الأنانية السيئة" هي أن تُفني مصالحك الطويلة الأمد لأجل مصالحك القصيرة الأمد

إن لم تكن نفعياً فكيف تريدنا أن نحدثك عن الجنة والنار؟! من الجيد جداً أن يكون الإنسان نفعياً، فالأنانية السيئة التي توصَف في الأخلاق بأنها بذيئة هي شيء آخر! أولاً عبارة: «الأنانية سيئة» لا وجود لها في الدين. ومراد البعض من أن الأنانية سيئة هو «أن تقوم بنفسك بإفناء مصالحك الطويلة الأمد لأجل مصالحك القصيرة الأمد!» وعلى فكرة، فإنك سوف لا تكون أنانياً في هذه الحالة! النفعية السيئة أيضاً هي أن يختار المرء منفعة ضئيلة ويفرط بأخرى عظيمة. «الأناني السيّئ» هو الذي يلتقط مصالحه القصيرة الأمد والقليلة ويبيد مصالحه الطويلة الأمد؛ كالطفلة الجاهلة إذا أتاها لص قائلاً لها: «هاك هذه الحلويات ودعيني أنتزع قرطك وآخذه!» فتفرط بقرطها الذهبي من أجل بضع قطع حلوى!

الدين منهاج ينال الإنسان به مصالحَه؛ مصالحه المادية والمعنوية.. الدنيوية والأخروية

لو أزيل سوء التفاهم حول الدين فسيقول بعض غير المتدينين: «إذن فأنا مخطئ إذ لا أمارس الدين بدافع الأنانية!» أجل، لأن الدين يقول لك: «إذا أحببت نيل مصالحك فتعال أدلك على الطريقة، بل إن الدين هو منهاج ينال الإنسان به مصالحه؛ سواء المصالح المادية أو المعنوية والروحية، وسواء المصالح الدنيوية أو الأخروية. وإذ ذاك سيصوّت الناس في الانتخابات، حتى وإن كانوا بلا دين، للشخصية المتدينة على أساس «أنه يعرف كيف يضمن للشعب مصالحه.» بل إن الدين يعلّمنا هذا تحديداً. البعض يأخذ عليّ أن: «لماذا تفسّر الدين تفسيراً نفعياً؟! أوَتَحمل رؤية وضعية يا ترى؟!» أقول لهؤلاء: «لكن هل في الدين شيء آخر غير أن يعلّمنا كيف نوفّر مصالحنا؟!» ولو قلتَ: «ماذا عن المقدسات والقيم الدينية؟» لأجبتك: «حتى المقدسات والقيم الدينية هي في صالحنا! فهل هناك قيمة فيها ضرر لنا؟!» وإذا قلتَ: «إن هدف الدين هو إيصالنا إلى الله!» لقلتُ لك: «حسنٌ، وهل في هذا خسارة لنا؟! إنه لصالحنا أيضاً!» إن من الخطأ أن نقول: «الدين أمرٌ يضر بنا أيما ضرر، لكن دعونا نتضرّر مرضاةً لله وفي سبيل قِيَمنا!»

لماذا يعارض الأمريكيون ديننا؟ لأنه في صالحنا نحن ويضر بمصالحهم هم!

لماذا يعارض الأمريكيون ديننا؟ لو كنا عبدة بقر أوَكانوا سيعارضوننا أيضاً؟ كلا.. إذن لِمَ يخالفون هذا الدين تحديداً؟ لماذا لا ينقلون الواقع ويعتّمون إعلامياً إذا اجتمع ٢٠ مليون زائر لاطمين الصدور حول مقام أبي عبد الله الحسين(ع)، مُعلنين مثلاً: اجتمع ٢٠٠ ألف زائر! في حين إذا اجتمع ٢٠ مليون شخص في نهر في الهند قالوا بكل دقة: «اجتمع في الهند ٢٠ مليون شخص إحياءً لمراسم كذا..!» لماذا يعتّمون على أخبارنا؟ لماذا يخافوننا؟ السبب هو أن ديننا هو في صالحنا نحن لكنه يضر بمصالح هؤلاء المجرمين! أما في الهند فمهما عبدوا الأبقار فهو لا يضر بأمريكا، ولا هو لصالح الهنود أنفسهم، لذا يقولون: «دعهم يعبدون البقر!»

أتظـن أن الأمريـكان والانجليـز يخالفـون الديـن عمومـاً ويعارضـون كل ذي ديـن؟! كلا أبـداً.. بـل – بالمناسـبة - لـو اسـتطاعوا عـن طريـق الديـن أن يُنزلـوا بشـعبٍ ظُلـماً لأمسـوا مـن دعـاة الديـن أيضـاً، بـل لخلقـوا هـم ديانـة؛ كـما فعـل الانجليـز في بلدنـا هـذا؛ فالبهائيـة ديانـة صنعهـا الانجليـز! إذن لمـاذا يعارضـون ديننـا هـذا؟ لأنهـم يرونـه في صالحنـا.

الدين يدلنا على الطريق التي نصبح عبرها قوة عظمى

يقـول لنـا الديـن: «تعالـوا أدلكـم عـلى الطريـق التـي تصبحـون مـن خلالهـا قـوة عظمـى!» إسـلامنا هـذا يدلنـا عـلى الطريـق التـي نصبـح عبرهـا قـوة عظمـى، بـل هـذه هـي حقيقـة الديـن. لكـن في أي مدرسـة وفي أي صـف علّمونـا هـذا؟! أثنـاء دعـوة رسـول اللـه(ص) الأولى ولـدى نـزول الآيـة: «وَأَنْـذِرْ عَشِـيرَتَكَ الأَقْرَبِـين» (الشـعراء/٢١٤) جمـع(ص) عشـيرته وطائفـة مـن أهـل مكـة يدعوهـم إلى الإسـلام، وأخبرهـم بأنهـم إذا رغبـوا في زعامـة العـالم كلـه فليقبلـوا بدينـه: «فَأَجِيبُـونِي تَمْلِكُـوا بِهَـا الْعَـرَبَ وَتَدِيـنُ بِهَـا لَكُـمُ الْعَجَـم» (أعـلام الـورى/ ص٣٩). فالديـن إذن يـدل عـلى سـبيل التحـول إلى قـوة عظمـى.. هـذا الديـن سـيصنع منـا قـوة عظمـى، فلـماذا نخالفـه إذن؟! الديـن لا مهمـة لـه سـوى أنـه يحقـق للإنسـان مصالحـه كلهـا وليـس ثمـة غـير الديـن منهـاج يُتقـن أو يسـتطيع فعـل ذلـك.

إن أردنا ممارسة الدين من منطلق النفعية فماذا عن الحب إذن؟!

السـؤال الـذي نـود هنـا الإجابـة عليـه هـو: «إذا كان مـن المقـرر أن نصبـح نفعيّـين وأصحـاب تخطيـط ومنهجـة فـماذا سـيكون دور الحـب والعاطفـة في هـذا الخضـم؟» إذا أردنـا أن نمـارس الديـن عـن منفعـة محضـة ونكلـم اللـه مـن منطـلق النفعيـة فـماذا عـن حديـث الحـب مـع اللـه تعـالى؟ ومـاذا عـمّا في الديـن مـن الحـب والعاطفـة والروائـع الفنيـة؟ ألا يكـون التديّـن عـن منفعـة بـارداً وجافـاً بعـض الشيء؟

مناجاة وأدعية أهل البيت(ع) أغلبها تنم عن منفعة لا عن حب!

الجواب الأول: أساساً، لماذا تريد مبادلة الله بالغزل؟ من هو قدوتك في هذا؟ بمن تريد أن تتأسى؟ فلو تصفحت أدعية ومناجاة أولياء الله، في مفتايح الجنان مثلاً، لرأيت أن أغلبها تنم عن منفعة! فمَن من أهل البيت(ع) خاطب الله في مناجاته بالقول: «يا عزيزي، أحبك! أشتاق إليك!» أليس محور الأدعية هو الاستغفار؟! ألا ينم الاستغفار عن منفعة؟! الإمام الحسين(ع) الذي هو مظهر العشق والتجسيد له يخاطب ربه في ذروة دعاء عرفة قائلاً: «وَأَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ حَاجَتِيَ الَّتِي إِنْ أَعْطَيْتَنِيهَا لَمْ يَضُرَّنِي مَا مَنَعْتَنِي وَإِنْ مَنَعْتَنِيهَا لَمْ يَنْفَعْنِي مَا أَعْطَيْتَنِي أَسْأَلُكَ فَكَاكَ رَقَبَتِي مِنَ النَّار» (إقبال الأعمال/ ج١/ ص٣٤٧-٣٤٨). أوَليست هذه المناجاة ذات بعد نفعي؟!

الإنسان يحب الله بباعث النفعية

الجواب الثاني: الإنسان مخلوق أعمق محبة في نفسه لا تنفصم عن منفعته، وهو يحب لباعث نفعي. فليس الحب أن يفدي المُحبُّ (المحبوبَ) بنفسه! فالله عز وجل يقول في الشهداء الذين يفدونه: إننا نعقد صفقة بيع وشراء؛ امنح أنت نفسك وأنا أشتريها! «إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ في سَبيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْراةِ وَالإِنْجيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذي بايَعْتُمْ بِه» (التوبة/١١١). إذا شئتَ أن تحب فأحِبّ الرب الذي يضمن لك جميع مصالحك، وهذا الحب هو «حب عن تواضع»، فالله لا يتقبل حباً عن تكبر! ادخل في تجارة مع الله وانظر أي صفقة فيها عظيم الربح سيعقدها الله معك، وعندها ستحبه رويداً رويداً وتشعر بالخجل منه! إنك ستكون مديناً لإحسانه، والإنسان عبد الإحسان. إن هويتَ الحب فتعامل بنفعية وانظر كيف سيضمن الله مصالحك، ويثيبك إزاء كل عمل صالح تأتي به بعشرة أضعافه، بل بألف ضعف منه! انظر كيف سيتجاوز الله عن معاصيك! إنك ستتعلق شيئاً فشيئاً بهذا الرب، ثم ستحبه وستهيم به حباً، ثم سترى نفسك في أمَسّ الحاجة إليه. علاقة الحب بين العبد والمولى هي علاقة الفقير المستعطي بالغني؛ فلا نخلط بين حب الله وحب الولد والزوج!

الحب والمنفعة يمكن أن يجتمعا/ إذا أحببت الله رغبت في فدائه بنفسك لكن لا تستطيع ذلك

إذا دخلت في تجارة مع الله من منطلق المنفعة وتوجّهت إليه ملتمساً دفعاً للضرر ورأيت كم سيتعاطى الله معك بروعة فستتعلق به تدريجياً كل تعلق حتى لتودّ أن تفديه بنفسك، لكنك لن تستطيع ذلك! ولذا فإنك ستظل تتقلب في نار هذا الحب، وسيشكل هذا نقطة العقدة في قصة علاقة حبك مع الله عز وجل. لقد هَمّ نبي الله إبراهيم(ع) بذبح ابنه بأمر من الله تعالى، فقال لابنه: «فَانْظُرْ مَاذا تَرَى»، «قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ» (الصافات/١٠٢). وكان إبراهيم(ع) قد أعد كل شيء وهم بذح ابنه فأشار الله عليه أن: لا حاجة، هذا يكفي... فاغتم نبي الله إبراهيم(ع) كثيراً إذ لم يقدّم لمعبوده قرباناً... وضاق صدره إذ قد أعفاه الله من هذا الأمر!» فسأله الله إن كان يود حقاً أن يقدم له قرباناً؟ فكان جواب إبراهيم(ع) إيجابياً.. فقلبه كان ملوَّعاً. فرفع الله تعالى من أمام ناظريه الحجاب عن حادثة استشهاد الإمام الحسين(ع) وسأله: «...فَذَبْحُ وُلْدِهِ [ولد النبي محمد(ص)] ظُلْماً عَلَى أَيْدِي أَعْدَائِهِ أَوْجَعُ لِقَلْبِكَ، أَوْ ذَبْحُ وُلْدِكَ بِيَدِكَ فِي طَاعَتِي؟ قَالَ: يَا رَبِّ بَلْ ذَبْحُ وُلْدِهِ ظُلْماً عَلَى أَيْدِي أَعْدَائِهِ أَوْجَعُ لِقَلْبِي» فقال الله عز وجل بعد أن أخبره بقبوله قربانَه: «يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ فَدَيْتُ جَزَعَكَ عَلَى ابْنِكَ إِسْمَاعِيلَ لَوْ ذَبَحْتَهُ بِيَدِكَ بِجَزَعِكَ عَلَى الْحُسَيْنِ وَقَتْلِهِ وَأَوْجَبْتُ لَكَ أَرْفَعَ دَرَجَاتِ أَهْلِ الثَّوَابِ عَلَى الْمَصَائِبِ» (الخصال/ ج١/ ص٥٩). فانظر أي صفقة وضعها الله بين يديك! إنه يعطي الجنة إزاء دمعة على الحسين(ع).. إذن فمن صالحك أن تبكي على الحسين(ع)! ها قد علمتَ بأن هذا في صالحك، فهل ستمتنع عن البكاء بعد اليوم؟ إذن الحب والمنفعة يمكن أن يجتمعا، بل إن هذا الحب بالمناسبة أكثر تلويعاً للإنسان؛ لأنك ستكون عاشقاً، وتود لو تتنازل عن منفعتك، لكنه يُمنحك نفعاً أكبر، فتزيد تلوّعاً واحتراقاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ١٠)

علي‌رضا بناهيان

الزمان: ١٥/أيار/٢٠١٩ ـ ٠٩/رمضان/١٤٤٠
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

لماذا الدين غريب؟ لأننا لا ندرك أن فيه نفعنا/ اِقصِد الدين تحصيلاً للربح!/ ليس العشق "أن تتنازل عن جميع مصالحك!"/ أولياء الله تغاضوا عن منافع حقيرة من أجل منافع أضخم.

أنانية الإنسان لا تزول أبداً، فاقصد إلى الله عن أنانية. والله تعالى هو الآخر يريد أن يعمل من أجل مصالحنا، بل إنه لم يخلقنا إلا لنجني نحن منافع لأنفسنا، لا ليجني هو نفعاً منا! إنّ من المقرر أن نكتسب في هذا الخضم منافع، إذن فلنقصد الدين تحصيلاً للربح!

ما الأضرار الناجمة عن فكرة "أن التدين صعب"؟

بعض التعاريف والتعابير التي نسوقها لبيان الدين تبعث على سوء التفاهم وتغرس فكرة أن التديّن أمرٌ صعب! وغرسُ هذه الفكرة يدفع الكثير من غير المتدينين إلى تبرير عزوفهم عن الدين متذرّعين بأن «التدين أمر شاقّ، ولسنا نقوى عليه!» يعمل جانب من رسالات الأنبياء على إقناعنا «بأن التدين ليس صعباً» وليس إقناعنا، بصورة من الصور، بتقبّل صعوبة الدين! فلو قيل لنا: «الدين صعب، لكن اقبلوا به رجاءً!» لاغترّ المتقبّلون للدين ويئس الرافضون له، وكلا الحالتين سيئة! إذا شئنا إقناع أنفسنا بالتدين وترْكِ المعصية خطوة بخطوة فلا ينبغي أن نجعل التدين في أنظارنا شاقّاً، بل إننا لو اجتذَبْنا أحداً إلى الدين بهذا المنطق الخاطئ فسنخلق منه متديناً مغروراً؛ أي يرى نفسه صاحب حق على الله، إذ يتصور أنه أتى بأمرٍ في غاية المشقة، وفي سبيل الله لا من أجل منفعته هو!

لماذا عبارة "دُسْ على رغباتك" غير سليمة؟

إننا قد نستخدم عبارات عن الدين وفي سبيل إقناع الآخرين بالتدين تولّد فهماً معيّناً هو أن «الدين صعب». كأن نقول: «دُسْ على رغباتك!» وهذه العبارة خاطئة حتى من الناحية الفلسفية. كيف لي أن أدوس على رغباتي إن أردتُ هذا؟ لا بد لي أن أدوس على بعض رغباتي عبرَ بعض رغباتي الأخرى. ومن هنا فإن مجاهدة النفس تعني أن تخالف مجموعةٌ من الرغبات الموجودة في نفسي مجموعةً أخرى من الرغبات الموجودة في نفسي أيضاً! وإلا فإن مخالفة الرغبات (كلها) شيء مستحيل.

ما من تصرّف يقوم به الإنسان إلا ويقوم به انطلاقاً من رغبته!

ما من تصرف يقوم به الإنسان إلا ويقوم به انطلاقاً من رغبته! كأن يعطوك دواءً مُرّ المذاق لا تحب تناوله فلا تتناوله، فيخبرونك: «إن لم تتناول هذا الدواء فستصاب بالسرطان وتموت!» وستقول حينها: «حسنٌ، سأتناوله». إنك تريد أن تواجه رغبتك في أنه «لا أحب الدواء المُرّ». كيف تفعل هذا؟ تفعل هذا بواسطة رغبة أخرى لك هي: «أحب أن أبقى حيّاً». إذن في الحقيقة قد تصرّفتَ هنا أيضاً على أساس رغبتك. فحينما تخالف رغبتك فإنك في الواقع تتصرف وفقاً لرغبتك أيضاً! فمن المستحيل أن تخالف رغبتك ثم – في الوقت ذاته - لا توافق أي رغبة أخرى من رغباتك!

"مخالفة رغبة" تعني "موافقة رغبة أخرى"

إذن فالمعنى الأدق لقولنا: «خالف رغبتَك» هو: «خالف رغبتك الأدنى هذه ووافق رغبتك الأعلى، والأقوى، والأشد قيمة، والأكثر لذة تلك». فصاحب السلوك السيئ إنما يخالف رغباته القوية؛ كأن يخالف «رغبته في أن يكون إنساناً». فهو أيضاً يجاهد نفسه، لكنه يجاهد الجوانب الجميلة من نفسه! والذي يجتنب الفعل القبيح هو أيضاً يجاهد نفسه، لكنه يجاهد الأقسام السيئة منها ويُشبع أقسامَها الحسَنة. فإن للصائم حال الإفطار نشاط وبهجة، وهو إن صام شهر رمضان كله كان له يوم عيد الفطر نشاط وبهجة أكبر بكثير! لماذا النشاط والبهجة؟ لأنه قد عمِلَ بمقتضى رغبته؛ وهي: «أريد - بأمر من الله - أن أتغلب على رغبتي في الأكل والشرب.» فإنك تود أن تنجز هذا الفعل الصعب في الظاهر، وتستمتع بنجاحك في إنجازه. يوجد في كياناتنا رغبات وزوايا نورانية جميلة لو أشبعناها لأصبنا لذة أكبر بكثير؛ «كالرغبة في العبادة».

ما الرغبة التي تبعث على تقبّل الأُم مشاق تربية طفلها؟

الأُم التـي تتحمـل المصاعـب وتسـهر الليـالي للعنايـة بطفلهـا إنمـا تُشـبع رغبـة الأمومـة في ذاتهـا وتتصرف، في الواقـع، وفـق مصلحتهـا وتلتـذ بتلبيـة رغبتهـا هـذه. فهـذه الأم قـد تخلّت عن رغبـة من رغباتهـا (مثلاً النـوم، والخلـود إلى التكاسـل، ..الـخ) مـن أجـل رغبـة أخرى (هـي حُب الأمومـة). بالطبع نحن قد نسـمي هـذا «تضحيـة» أو «فـداءً». وهـل يـا تـرى ثمـة أُم تكـره تربيـة الطفـل مطلقـاً؟! كلا، بـل هـي تحـب هذا كثيراً بالمناسـبة. إذن هـي تُشـبع رغبتهـا أثناء تربيتها للطفل. فهـل يجيز لنا العوام أن نقـول: «هذه الأم في الحقيقـة تقـوم بعمـل ينـم عن أنانية؟!» فإنها تُشـبع رغباتها الحسـنة وذلـك الجزء الجميل مـن وجودها.

ما الفرق بين الرغبة السيئة والحسنة؟/ الرغبة السيئة هي الرغبة القليلة اللذة

أتـدري أيـن تكمـن مشـكلة اللـه مـع الإنسـان؟ أتعلـم متـى تـبرز المشـاكل لـدى تعامـل الديـن مـع الإنسـان أو تعامـل الإنسـان مـع الديـن؟ يقـول الديـن للإنسـان: «أشـبع الجانـب الجميـل مـن رغباتـك... لمـاذا تُشـبع رغباتـك التـي لا قيمـة لهـا؟!» وهاهنـا يُطـرح موضـوع «الهـوى»، فالهـوى يمثـل الجوانـب السـيئة مـن رغبـات الإنسـان! والسـؤال هنـا هـو: «مـا الفـرق بـين الرغبـة السـيئة والرغبـة الجيـدة؟» الرغبـة السـيئة هـي الرغبـة القليلـة اللـذة، والرغبـة الجيـدة هـي التـي تكـون أكـثر لـذة! فـما هـي الرغبـة السـيئة التـي يـوصي الإسـلام بمخالفتهـا؟ إنهـا تلـك التـي تجنـي منهـا لـذة أقـل. ومـا هـي الرغبـة الجيـدة التـي ينصـح الديـن بالإنصـات إليهـا وإشـباعها؟ إنهـا تلـك التـي لذّتُهـا أكـبر!

لو أنك رأيتَ اللذةَ في ترك اللذة، لما رأيتَ في لذّةِ النفسِ لذةً!

مـا مصـدر النشـاط الـذي ينتابـك سـاعة الإفطـار؟ أوليـس في تناول الطعـام من لـذّة؟! ما المتعـة الموجودة في عـدم الأكل كي تصيـب كل هـذه اللـذة مـن الصيـام؟ لقـد تـداول حكماؤنـا بيـتَ شـعر يقـول: «لـو أنك رأيـتَ اللـذةَ في تـرك اللـذة، لمـا رأيـتَ في لـذّةِ النفـسِ لـذةً!» فالصائـم يجنـي مـن صومـه لـذة هـي أشـد بكثير مـن لـذة تنـاول الطعـام. فـرق الإنسـان عـن الحيـوان هـو أن الأخـير لا يسـتمتع إلا بلـذات ثابتـة لا تتغـير أمـا الإنسـان فبإمكانـه أن يعيـش لـذات أسـمى لا يملـك الحيـوان أن يدركهـا عـلى الإطـلاق.

لو علم الناس أن الدين يصب في صالحهم لتسابقوا في التديّن

لو أننا تكلمنا كلاماً دقيقاً عن الدين لتسابق الناس في التدين بالضبط كما يتسابقون إلى موضع إذا علموا أن فيه المال والثروة، أو عرفوا أن فيه منفعة مالية! وسيأتي يوم يصبح فيه التدين هكذا أيضاً. بتصورك، ماذا سيحدث في دولة صاحب الزمان(ع) حتى يتمكن من حكم العالم بأسره؟ أسوف يتغير الناس دفعة واحدة وتجتاحهم حالٌ معنوية؟ ليس هذا بالمنطقي! قيل في الحديث عن أبي جعفر الباقر(ع): إنه(عج) يمسح على رؤوس الناس فتزداد عقولهم: «إِذَا قَامَ قَائِمُنَا(ع) وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْعِبَادِ فَجَمَعَ بِهَا عُقُولَهُم» (كمال الدين/ ج٢/ ص٦٧٥). فإن كمُلَت عقول الناس فهموا أن الدين في صالحهم، وإذا فهموا أن الدين في صالحهم تسابقوا فيما بينهم من أجل التدين وفعل الخير؛ كأن لا يذروا على الأرض فقراً ويفتشوا عن الفقير تفتيشاً ليتصدقوا عليه حتى لا تعود تجد فقيراً لتدفع له صدقة! لماذا هذا التحول؟ لأن الفرد بات يدرك أن هذا الفعل يصب في صالحه.

إن كنت تفتش عن المنفعة المطلقة فإنك تفتش عن الله، وعندئذ ستبلغ "الإخلاص" أيضاً!

إن كان في التدين صعوبة فلا صعوبة إلا في جانب واحد منه وهو أن نفهم «أن التدين هو في صالحنا!» أما الباقي فسهل. المهم هو أن تفتش عن المنفعة.. المنافع كلها بالطبع، لا الحد الأدنى منها فحسب! فحينما تفتش مطلقاً عن المنفعة، بل عن المنفعة المطلقة، فإنك في الحقيقة تفتش عن الله تبارك وتعالى؛ ذلك أن الله هو في صالحك، وحينئذ ستكون «مخلصاً» أيضاً! يتصور البعض أن المخلص هو من تخلّى عن جميع مصالحه قائلاً: «لا أريد شيئاً لمصلحتي أبداً، بل أريد كل شيء لمصلحة الله وحسب!» وهذا تصورٌ عامّي عن الإخلاص.

الإخلاص هو "أن تعمل من أجل أسمى مصالحك وحسب"!

الإخلاص هو أن تعمل من أجل أسمى مصالحك.. من أجل أسمى مصالحك وحسب. فإن ضُمنَت أسمى مصالحك فسوف لا تعود بحاجة إلى مصالحك الأدنى. الترجمة الحقيقية للإخلاص لله هي أن لا تضع نُصب عينيك إلا مصالحك الأرفع. وما هي أرفع مصلحة للإنسان؟ هي أن يحب أن يكون الله عز وجل رفيقَه.

أتعلم ما هو أشد عذاب على الإنسان يوم القيامة؟ هو أن لا يكلمه اللهُ في ذلك اليوم! «لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَة» (آل عمران/٧٧). فأشد عذاب على الإنسان ليس هو حرق جسده، بل هو الألم الذي يصيب قلبه، فهو إن لم يكلمه الله يموت حسرةً.. يقول: «إلهي! كلّمني!.. حسنٌ، سأذهب إلى النار.. فقط قل لي شيئاً! لماذا تكلّم باقي أصحاب النار؟ لماذا لا تتحدث إليَّ؟!» لا بد أن نترجم الإخلاص بصورة صحيحة؛ وهو ما معنى: «أن تكون خالصاً لله؟» معناه أن تعثر على ذلك الجزء من نفعيتك الذي يقول: «إن في أعماقك رغبة هي أن تكون أنت ملكاً لله فحسب، ويكون الله لك وحدك». فإن عثرت على رغبتك هذه وأشبعتها فهذا هو غاية الإشباع بالنسبة لك.

اِقصِد الدين تحصيلاً للربح!

أنانية الإنسان لا تزول أبداً، فاقصد الله عن أنانية. والله تعالى هو الآخر يريد أن يعمل من أجل مصالحنا، بل إنه لم يخلقنا إلا لنجني نحن منافع لأنفسنا، لا ليجني هو نفعاً منا! ولماذا يريدنا الله أن نجني نحن نفعاً؟ لأنه كريم.. لأنه رَبّ! إذن مَن مِنَ المقرر أن يكتسب منفعة في هذا الخضم؟ إنه نحن.. إذن فلنقصد الدين تحصيلاً للربح! ما من أحد لا يجني من التدين نفعاً! فمهما توغلت في التدين سترى أنه في صالحك. ألم يكن رسول الله(ص) وأمير المؤمنين(ع) أكثر من نالوا من ربهما نفعاً؟! يقول القرآن الكريم: هناك من بين الناس من يبيع نفسه لله إزاء رضاه تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَاد» (البقرة/٢٠٧). لكن لماذا يبيع نفسه؟ لأن قلبه يهفو إلى رضى الله وإن في هذا ربحَه؛ أي إنه يجني من رضى ربه هذا لذة أكبر من التي يجنيها من أي شيء آخر.

لماذا الدين غريب؟ لأننا لا ندرك أنه في صالحنا

لماذا الدين غريب؟ لأننا لا ندرك أن التدين هو في صالحنا. كما أن أغلبنا ليس نفعياً، بالمعنى التام للكلمة، أبداً؛ أي إننا لا نفتش عن أسمى منافعنا. من هنا فإنه لا بد أولاً أن يُنشئنا أحدٌ على النفعية!

أليس من القبيح أن لا يطالب الإنسان بأرفع مصالحه؟ ألا يشبه إنسانٌ كهذا الحيوانَ؟ ألا يكون شخص كهذا غريباً وضيّق الصدر ومكتئباً ومتعباً وعاجزاً؟! فالقبيح هو أن يقاسي المرء العذاب والآلام من دون جدوى، والجميل هو أن ينال الإنسان أسمى المنافع، ويحصّل النشاط، ويزدهر.

كيف يجتمع التدين عن نفعية مع العشق؟

السؤال الذي كان قد طُرح في المحاضرة الأولى هو: «كيف يمكن الجمع بين التدين عن نفعية والعشق والتدين عن عشق؟» علينا أولاً أن نعرف ما هو العشق؟ وهل إن تصوّرنا عن العشق صحيح أساساً أو لا؟ بأبسط العبارات نقول: «العشق هو الحب العارم أو أشد أنواع الحب». على أن العشق في اللغة العربية يعني اللجاجة. إذا أخذنا العشق بمعنى «المحبة الشديدة» فهذا صحيح، ففي الذكر الحكيم أيضاً قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلهِ» (البقرة/١٦٥). أما إذا ترجمناه بمعنى: «أن تفدي المعشوق بنفسك وتتنازل عن مصالحك!» فلا معنى لهذا عند الإنسان! اللهم إلا إذا تشتت ذهنه، أو دُفع إلى التسرّع ففدَى نفسَه، وهاهنا أيضاً سيكون هذا مثار ندمه، لأن الإنسان مخلوق أناني! روي عن الإمام الصادق(ع) أنه قال: «جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ يَنْفَعُهَا وَبُغْضِ مَنْ أَضَرَّ بِهَا» (الكافي/ ج٨/ ص١٥٢).

ليس العشق أن "تتنازل عن كل مصالحك"/ أولياء الله تغاضوا عن منافع حقيرة من أجل منافع أضخم

العشق بمعنى أن تتنازل عن مصالحك تماماً هو ما لم يحصل حتى مع أولياء الله وفي علاقتهم معه عز وجل؛ فأولياء الله لا يتغاضون عن جميع منافعهم في سبيل الله! بل لقد تغاضوا عن نفع أقل في سبيل نفع أكثر! ولهذا السبب تحديداً كان الإمام الحسين(ع) قد اعتذر إلى الله حتى في مصرعه ورأى نفسه مديناً له تعالى! لماذا يشعر أولياء الله دوماً أنهم مدينون لله تعالى؟ لأن الله في كل خطوة تخطوها نحوه (سواء أكانت كاملة أو ناقصة) سيهيل عليك من الأجر ما يُخجِلك ويجعلك مديناً له عز وجل! بل ليس باستطاعتنا أن نخطو خطوة لصالح الله دون أن نكون فعلنا ذلك لمصلحتنا، بل ولا أن نتخذ خطوة لا تكون فيها منفعة لله في الوقت الذي نكون قد تغاضينا عن أنفسنا! وهل يسمح لنا الله أصلاً أن نتغاضى عن أنفسنا؟!

تفسير العشق بالتضحية أو بالرغبة التي تجر صاحبها إلى التضحية بالمصالح وإفنائها هو ما لا يتسنى للإنسان تصوّرُه. خُذ حب الأم لولدها مثلاً، فالأم التي يقال إنها «تضحي في سبيل ولدها!» هي، في الواقع، تُشبع رغباتها الجميلة والسامية. وإن الذي يُشبع رغباته السامية سيجني منفعة أكبر من الله ومن الحياة على حد سواء. ناهيك عن أن الإنسان إذا أشبع رغباته العالية فإنه سوف يتنامى ويزداد عظمة.

الشهداء ضحوا بمصالحهم الهابطة في سبيل مصالحهم العالية

حتى الشهداء وضعوا مصالحهم العالية بعين الاعتبار، فما إن شاهدوا الأخيرة حتى فدَوها بمصالحهم الواطئة. إذن ليس في قاموسنا «حُبٌّ» تفسيره أن يضحي المرء بنفسه مطلقاً، أو أن يتنازل عن جميع مصالحه، أو عن أسماها. قد يقول قائل: «إنني أفديك بمالي»، وهو إذ يضحي بماله إنما يُشبع في نفسه رغبة أسمى، فتراه يلتذ بإنفاق أمواله في سبيل حبه! إذن هو يُرضي نفسه أيضاً. فالذي لم يضحِّ بماله هو متعلق «بحب المال»، أما هذا الشخص فقد تعلق «بحب المعشوق»، لكن كلاهما يتصرف وفقاً لرغبته.

هل تجتمع النفعية مع العشق؟!/ المنفعة الضئيلة لا تستثير العشق

كيف يجتمع العشق، بمعنى الحب الغامر، مع النفعية؟ هذا السؤال عادة ما يطرحه مَن يرى النفعية في المصالح الدنيوية الضحلة؛ مثلاً: أخذُ «شهادة الدكتوراه» من قبل المرء فيه منفعة له لكنه لا يملك أبداً أن يحب هذه الشهادة إلى حد إنشاد الشعر فيها وذرف الدموع من أجلها، لأنها منفعة ضحلة لا عليا. المصالح الضحلة لا تختطف قلوبنا، أما المصالح العليا فبإمكانها فعل ذلك. فلا تقل إذن: «لا يمكن الجمع بين النفعية والعشق؟» فإنها المنفعة الضحلة التي لا تستثير فينا حباً غامراً.

المصالح السامية هي التي من شأنها أن تغرس فينا الحب

السبب في طرح الناس للسؤال التالي: «كيف يُجمع بين النفعية والعشق؟» هو أن المنافع الضحلة لا تستثير حباً جامحاً، وهي لا تُشبع هذا اللون من الحب أيضاً، ولهذا فإنها لا تجتمع مع العشق، لكن الذي قد شاهدَ منافعه الإنسانية والروحية السامية فإنه سيقع في حبها وسيذرف الدمع من أجلها. وهاهنا سيتحقق مصداق: «أَشَدُّ حُبّاً»، وهو العشق. مرادنا من العشق هو محبة المصالح الرفيعة العالية، وإن الذي في ميسوره أن يثير في أعماقنا العشق ويُضرم في أرواحنا النار ويُلهبنا هو المصالح السامية. فإن بلغتَ مصالحك العالية وضحّيتَ بمنافعك الواطئة في سبيلها فستشتعل نار العشق في كيانك، وستقول حينئذ: «أعشق العالم كله لأن العالم «له!» (شعر)

السبيل إلى حب الله هي النفعية!

لماذا يتكلم خلقٌ كثير عن حب الله ثم لا تجد مُحبّاً لله إلا نادراً؟ على كم مُحبٍّ لله يمكنك العثور؟! إنهم ندرة! لماذا؟ لأنهم لم يسلكوا سبيله! وما هي سبيله؟ هي النفعية ولا غير! ونحن الآن نسلك السبيل ذاتها. حينما تكون العقدة الأساسية في قصة الدين هي ترك المعصية فإنها إذن نقطة الانتقال إلى العشق! وأين يكمن العشق؟ أين يكمن أشد ألوان الحب الذي يُحرق الإنسان؟ أين تكمن تلك المحبة الجامحة التي يسكب المرء من أجلها الدمع غزيراً ويُعوِل لها كل عويل؟ إنها تكمن في مصالح الإنسان السامية، لا في تلك الهابطة!

ما دامت عينك تلاحق منافعك الضحلة فإنك لن تعشق الله!

يروى عن رسول الله(ص) قوله: «حُبُّ الدُّنْيَا وَحُبُّ اللهِ لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبٍ أَبَداً» (مجموعة ورام/ ج٢/ ص١٢٢). فإنك لا تظفر بمحبة الله حتى تُخرج حب الدنيا كله من أعماقك. فما دامت هناك ذرة من محبة الدنيا في قلبك فلن تدخله ذرة من محبة الله! أي ما دامت عينك تلاحق منافعك الضحلة فلن يضطرم في قلبك ذلك العشق الذي هو نتاج المصالح العليا.

الـكل يـود أن يعشـق.. الـكل يهـوى أن يلتهـب.. فلـماذا لا يلتهبـون إذن؟ لأن عليـك غـض الطـرف عـن منفعتـك الهابطـة! ليـس أن تتغـاضى عـن منافعـك عمومـاً، بـل أن تهتـم بمنافعـك الرفيعـة وتتنـازل عـن تلـك الواطئـة. إذا رغـب الإنسـان بمصالحـه العليـا جـاشَ في قلبـه حـبٌّ عـارم سـيلتهب كيانُـه لـه التهابـاً شـديداً لا حـد لـه! لِـمَ حـبّ الدنيـا سـيئ؟ لأنـه متـاع قليـل.. لأن لذتـه طفيفـة.. لأنـك إذا أُصبـتَ بـه لم تفـرح كثـيراً. ولمـاذا تنتهـي بعـض الزيجـات بعـد مـدة قصـيرة إلى الطـلاق؟ لأن الزوجـين يتوقعـان أشـياء مهمـة سـتقع بعـد الـزواج، لكنهـما يخرجـان بخُفَّـي حنـين، فيبغـض أحدهـما الآخـر! والحـال أنـه مـا كان مـن المقـرر أن يقـع شيء مهـم! بـل كان مـن المقـرر – بالمناسـبة - أن تكتشـف أنـه لا شيء مهـم هنـا، فتمـرّ، ماضيـاً إلى حيـث ثمـة شيء حقّـاً!

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ١١)

علي رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ١٦/أيار/٢٠١٩ ـ ١٠/رمضان/١٤٤٠
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

هل يمكن للتدين عن منفعة أن يكون عن حب أيضاً؟/ الإنسان يحب مَن ينفعه نفعاً عظيماً/ أربعة شروط أساسية لحب الله تعالى

الإنسان مخلوق نفعي لا يحب إلا إذا انتفَع، وهو لهذا يحب كل من يُحسن إليه. إذن الطريق إلى حب الله هو أن نعرف إلى أي مدى يوفّر لنا الله مصالحنا؟ ولو تأمّلنا في أنعم الله بأعين مفتوحة متفحّصة لأحببنا الله شيئاً فشيئاً.

أي ألوان النفعية سيئ؟ هو أن يسعى الإنسان وراء المنفعة القليلة

النفعية أساساً ليست سيئة. فأي ألوان النفعية سيئ إذن؟ هو أن يسعى الإنسان وراء المنفعة القليلة؛ فهذا النمط من النفعية يفسد أخلاق المرء، ويقسي قلبه، وليس فيه لذة المحبة. لكنك إن طالبتَ بجميع منافعك، بل وبأسماها فستغدو إنساناً في منتهى رقة القلب، واللطف، وحُسن الخلُق، والرحمة، والمحبة. كما قد بيّنا في المحاضرات السابقة فإنه ينبغي أن نفهم التدين على أنه أمر نفعي، وأن نربّي الطفل منذ نعومة أظفاره على حب المنفعة كي يُمسي متديناً؛ ذلك أنه لا انفصام بين التدين وبين توفير المنافع ومنح اللذات المادية والمعنوية والروحية. فلماذا نعرّف التدين بطريقة توحي بأن على المتدين أن يضحي بمصالحه ويتغاضى عن لذّاته وأن يعمل وفقاً لمعتقداته، ويحترم المقدسات والقيم! فمثل هذا التعريف بالدين خطأ أصلاً.

العامل بدينه لا يخطو خطوة إلا بما ينسجم ومصالحه

أولاً العامل بدينه لا يخطو خطوة إلا بما ينسجم ومصالحه. ثانياً كونُ الدين مُدّعياً وصاحب حق معناه أنه عندما تقول: «قررتُ أن أكون متديناً» سيقول الدين لك: «هل أنت، أساساً، نفعيّ أو لا؟» فإن أجبتَ «بنعم» قال لك: «إلى أي مدى أنت نفعي؟ أخشى أنك قليل النفعية!.. إن عليك أن تطالب بمنافعك بقوة، وأن تطالب بها جميعاً.» علينا، إذا أحببنا تنشئة امرئ لجعله مهيّأً لتقبّل الدين، أن نغرس فيه مجموعة من السمات الشخصية؛ إحداها أن يكون شديد الحساسية إزاء مصالحه كلها بحيث لا يجد في نفسه استعداداً للتنازل حتى عن بعضها.

يريدنا القرآن أن نؤمن ونتديّن بطريقة التجار

يقول لنا القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم» (الصف/١٠). وتشير كلمة «التجارة» في الآية إلى الربح والمنفعة، وتفيد عبارة «النجاة من العذاب» تفادي ضرر عظيم؛ فهي تخيف الإنسان من العذاب كي يُقبل على هذه التجارة الزاخرة الأرباح خوفاً من العذاب على الأقل، إذا لم يتعاطاها طمعاً في الربح. ثم يقول في الآية التالية: «تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون» (الصف/١١)؛ تعالوا وآمنوا بالله ورسوله إيمان التجار، وجاهدوا في سبيل الله... وهو تحديداً الجهاد عن عشق ومحبة. انظر إلى أي مدى هو ذا بُعد تجاري! ثم يقول في آخر الآية: «ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون!» أي إنه ينوّه مرة أخرى بالبُعد النفعي للإنسان.

لماذا صارت "النفعية" في أنظارنا غير مرغوب فيها؟

الأدبيات الجميلة في نظرنا هي في الغالب أدبيات الحب والعرفان، أما تلك التي تحكي النفعية فهي في أنظارنا غير جميلة، بل وسيئة! أتدري لماذا صارت النفعية في أنظارنا بذيئة وغير مرغوب فيها؟ لأننا شاهدنا ثلة من الأشخاص النفعيين ممن يسعون وراء المنافع الضحلة... هؤلاء هم الذين أفسدوا النفعية في أنظارنا! فالمطالبة بالمنفعة القليلة سيئة، لكن المطالبة بالمنفعة عموماً ليست سيئة، بل لو طالب المرء بأسمى منافعه، التي منها رضوان الله تعالى، فهذا – بالمناسبة – في قمة الجمال، بل إن هذا - على فكرة – شُغل أولياء الله الشاغل، وقد خلع الله عز وجل عليه اسم «التجارة». يقول عز من قائل: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَاد» (البقرة/٢٠٧)؛ أي هناك من الناس من يبيع روحَه ليتقاضى إزاءها رضى الله تعالى. أتدري فيمَن نزلت هذه الآية؟ نزلت في علي بن أبي طالب(ع) عندما نام «ليلة المبيت» في فراش النبي(ص)! فهل ثمة يا ترى من هو أشد عشقاً من علي بن أبي طالب(ع)؟! فعلي بن أبي طالب(ع) كان قد أُصيبَ في سبيل الله بأضخم عدد من الجراح مما لم يُصَب أحد بمثله، لكن الله يعبّر عن ذلك «بالتجارة»، وهي تفيد النفعية؛ بالطبع هو نمط من النفعية رفيع جداً يحصل المرء إزاءه على رضوان الله تعالى.

النفعية في سبيل الخير حسنة حتى وإن كانت دنيوية!

متى تكون النفعية سيئة؟ النفعية تكون سيئة إذا كانت ضئيلة أولاً، وكانت في سبيل أمر رديء ثانياً، أما إذا كانت في سبيل الخير فهي حسَنة حتى وإن كانت دنيوية. كان أحد أصحاب أبي عبد الله الصادق(ع) (وكان الإمام قد دفع إليه مبلغاً من المال ليتّجر به له) قد أخبر الإمام(ع) بأنه ربح له في تجارته مالاً كثيراً نسبياً (مائة دينار): «فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ رَبِحْتُ لَكَ فِيهَا مِائَةَ دِينَارٍ. قَالَ: فَفَرِحَ أَبُو عَبْدِ اللهِ(ع) بِذَلِكَ فَرَحاً شَدِيداً» (الكافي/ ج٥/ ص٧٦). وهل الفرح لكسب المال سيّئ يا ترى؟! كلا، فإن أحببتَ إنفاق المال من أجل مولاك بوصفك عبده، أو فرحت بكسب هذا المال كشخصٍ عليه واجبات وبمقدوره مساعدة الكثيرين مستخدماً هذا المال أداة لعبوديته لربه فليس هذا غيرَ سيئ فحسب، بل وحسَنٌ أيضاً. أما إذا كان فرحك لأجل صرف المال على أمور دنيّة وخاطئة، أو لتتصور أنك قد استقلَلتَ بهذه المنفعة عن الله جل وعلا، فلم تعد تطرُق بابَه مستعطياً ملتمساً، فهذا سيّئ، ومهما زاد فرحك به زاد قلبك قسوة. قال أحدهم للإمام الصادق(ع): «جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنَّا لَنُحِبُّ الدُّنْيَا» فما أتعسَنا! فسأله الإمام(ع) عن قصده من حب الدنيا فقال – مثلاً – أود أن أملك المال والثروة...! «فَقَالَ(ع) لِي: تَصْنَعُ بِهَا مَاذَا؟ قَالَ: قُلْتُ: أَتَزَوَّجُ مِنْهَا، وَأَحُجُّ، وَأُنْفِقُ عَلَى عِيَالِي، وَأُنِيلُ إِخْوَانِي، وَأَتَصَدَّقُ. قَالَ(ع) لِي: لَيْسَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا، هَذَا مِنَ الآخِرَةِ» (السرائر/ ج٣/ ص٥٦٤).

هل يمكن للتدين عن منفعة أن يكون تديّناً عن حب أيضاً؟

موضوعنا في هذه المحاضرة هو كيف يتسنى الجمع بين النفعية وبين ممارسة الدين عن حب، وكون الدين مصدراً للحماس والإثارة واللذة؟ فلو تعبّدنا عن منفعة فما هو مصير الحب والمشاعر الروحانية الجميلة؟ هل يمكن للتدين على خلفية المنفعة أن يكون تديّناً عن حُب أيضاً؟ وكان الجواب الأول أنك إذا طالبتَ بمنفعة ضئيلة خبُثَت روحُك، وقسا قلبك، وعَدِمتَ الحب، ولم تُدرك المشاعر الدينية. أما إذا رميتَ ببصرك إلى أسمى منافعك، ورغبت في أبعدها منالاً، بل وأعطيت منافعك المادية أيضاً بُعداً سامياً فسيرقّ قلبُك أيما رقة وتتفجّر عاطفةً.

الإنسان يحب مَن ينفعه نفعاً عظيماً

الجواب الثاني: الشخص الذي يريد نفعَك سوف لا تحبه كثيراً إذا كان نفعه لك ضئيلاً، لكن حبك له سيكون كبيراً إذا نفعك نفعاً عظيماً. فيما روي مما أوحى الله تعالى لموسى(ع) أنه تعالى أوصاه بأن يحببه إلى الناس. فسأله موسى(ع) عن الطريقة وما عليه صنعه كي يحب الناسُ اللهَ؟ فأشار الله عليه بأن يذكّرهم بأنعمه عليهم ويُحسن إليهم، فإنه بهذا سيحبّب الله إلى قلوبهم. لأن الله قد خلق الإنسان بحيث إنه يحب من يُحسن إليه: «أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى(ع): حَبِّبْنِي إِلَى خَلْقِي، وَحَبِّبْ خَلْقِي إِلَيَّ. قَالَ(ع): يَا رَبِّ، كَيْفَ أَفْعَلُ؟ قَالَ: ذَكِّرْهُمْ آلائِي وَنَعْمَائِي لِيُحِبُّونِي» (التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري/ ص٣٤٢). وفي حديث آخر: «أَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى: ذَكِّرْ خَلْقِي نَعْمَائِي وَأَحْسِنْ إِلَيْهِمْ وَحَبِّبْنِي إِلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ لا يُحِبُّونَ إِلاّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ» (إرشاد القلوب/ ج١/ ص١١٦).

الإنسان مخلوق نفعي لا يحب إلا إذا انتفَع

لأن الإنسان نفعي ويحب كل مَن يحسن إليه فإن الطريق إلى حُبّ الله هو أن نعرف إلى أي مدى يضمن لنا الله مصالحنا؟ ولو تأمّلنا في أنعم الله بأعين مفتوحة متفحّصة لأحببنا الله شيئاً فشيئاً. فالإنسان مخلوق نفعي لا يحب إلا إذا انتفَع. وهو حتى إن أحب امرأً ثم لاحظ بعد برهة أن حبه هذا لا ينفعه خرج هذا الحب من قلبه، بل وسيتحول إلى كراهية إذا أدرك أنه يضره. فليس للإنسان في قاموسنا حب بلا منفعة! روي عن رسول الله(ص) قوله: «أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي» (الأمالي للصدوق/ ص٣٦٤).

ما الذي سيجعلنا نحب الله إذا شرَعنا بالنفعية؟

ما الذي سيجعلنا نحب الله إذا شرَعنا طريقنا بالنفعية؟ الذي سيجعلك كذلك هو أنك حين تدرك أن الله يوفر منافعك بغزارة وهو نافع لك جداً فإنك ستحبه. يبقى السؤال أنه: هل تستطيع أن تحصي كم أن الله نافع لك؟! أتعرف في هذا العالم رجلاً أعظم عشقاً من الإمام الحسين(ع)؟ وإذا به(ع) مستغرق، خلال ما يفوق نصف دعاء عرفة، في شكر الله عز وجل وإحصاء آلائه! فهو(ع) يصرّح في الدعاء مخاطباً ربه أني لو شكرتك بجميع ذرات وجودي لما بلغتُ شكرك.. أنا عاجز عن إحصاء نعمائك!

متى يتبلور حبك؟ يتبلور حينما تعرف أن الله كله منفعة لك! ولماذا إذن لم نحب الله تعالى؟ لأننا عاجزون عن معرفة أنعمه حق المعرفة. ففي الحديث: «مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ فَعَرَفَهَا بِقَلْبِهِ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَهَا» (الكافي/ ج٢/ ص٩٦).

أربعة شروط أساسية لحب الله تعالى

لا بد من النفعية من أجل التدين! فإن صرتَ نفعياً فحسبك أن تحصي منافعك مرة واحدة كي تهيم في الله حباً! إذن الشرط الأول للمحبة هو أن يكون الإنسان في منتهى النفعية؛ أي أن يطالب بمنافعه بقوة، وعندها سيعشق مَن يوفّر له منافعه أفضل توفير. الشرط الثاني هو أن نلاحظ: إلى أي مدى يوفر الله لنا منافعنا؟! الشرط الثالث لكي نحب الله من منطلق النفعية هو أن نعرف الأضرار التي يجنِّبُنا الله إياها. فإن تحققنا من أن الله ينقذنا من كوارث مهلكة فسنحبه. أفَتدري ما الموت؟ أتعرف ما القبر؟ أتدرك ما عالم البرزخ، وما صحراء المحشر، وما نار جهنم؟ لا بد أن ينجيك الله من هذا كله! فإن عرفت حقاً أي أخطار هذه لالتصقت بالله التصاقاً ولذُبتَ به ذوباناً! الوجه الثاني من عُملة النفعية هو اجتناب الضرر. فإنّ بوسع الله أن ينجيك من عذاب أليم؛ فهو تعالى يقول: «..تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» (الصف/١٠). ولعل سبب عدم حبك لله هو أنك لم تعرف إلى الآن ما العذاب الأليم! إنّ كل لحظة من لحظات نزع الروح هي أشبه بألف ضربة سيف مسموم في بدن المحتضر! لقد جعل الله الموت بهذه الصورة غير أنه سبحانه على استعداد لإنقاذنا من هذا العذاب الأليم وتيسير الموت لنا؛ ولو طلبتَ هذا من الله حقاً لأنجاك. لكن لا بد لك أولاً أن تعلم ما القصة كي تلوذ بالله تبارك وتعالى ومن ثم تلمس كم ستهيم به! وما الشرط الرابع لمحبة الله تعالى؟ إننا، وبوصفنا نفعيين، نرتكب الخطايا؛ ذلك أنه لا بد أن نكون أحراراً لنملك قدرة الاختيار ولنكتسب قيمة ورُقيّاً.. لهذا فلربما نأتي بالخطايا. والله من جانبه يخاطبنا: «هل تريد أن أصفح عنك؟» فيتولد عندنا تعلق واحتياج آخر لربنا، ألا وهو الاستغفار. فنخاطبه: «إلهي، أرجوك وأتوسل إليك أن تصفح عني...». بل إن الله قادر على استبدال حسنَةٍ بسيّئتك هذه!

حب الإنسان لربه ينبع من ثنايا نفعيته

ما هو موضع تبلور حب الإنسان لله؟ موضعه الاستغفار، والشكر، واللجوء إلى الله طلباً للنجاة.. نفس هذه الأمور المتداولة، لكننا لا نأخذها بجدية فلا تجعلنا نحب الله! فالبعض لا هو يرى نعمة ربه فيشكرها، ولا هو يلمس مصلحته الطويلة الأمد فيتمناها، ولا هو يُبصر الأضرار المحدقة به فيلوذ إلى الله منها.. ثم يريد أن يحب الله! لا يُدرى على أي أساس يريد أن يحب الله؟! بل إن بعض الناس هو التكبّر بعينه! ويريد أن يحب الله هكذا دون التفات إلى أي واحد من احتياجاته هذه إلى ربه. حب الإنسان لربه ينبع من ثنايا نفعيته، فلو كنتَ نفعياً لأدركتَ علُوّ قيمة الاستغفار! ولو كنتَ نفعياً لاستوعبتَ معنى تبديل السيئات حسنات! أي: إنني أذنب والله يكتب محل ذنبي ثواباً! فإننا قد لا نكون نفعيين أساساً؛ فلا ندرك قيمة عفو الله عنا، ولا قيمة نعمته علينا، ولا قيمة النجاة من العذاب!

علاقة العبد بمولاه تقوم على "نفعية العبد واجتنابه الضرر" و"لطف مولاه به"

الملاحظة الأخرى هي أن علاقة حبنا بالله هي من جنس المحبة بين العبد والسيد، والسيد في هذا النمط من المحبة مانح، لا مُتَلَقٍّ! العلاقة بين العبد والمولى تختلف عن الآصرة الزوجية، وآصرة الأمومة والبنوة، وآصرة الأخوة. فعلاقة العبد بالمولى هي أن تصطنع ألف ذريعة لتأخذ من مولاك. وما معنى الأخذ؟ إنه المنفعة! فالله يلطف بك مرة بحجة كذا، ويلطف بك أخرى بحجة أخرى، ويلطف بك ثالثة بحجة ثالثة... بل ما بيننا وبين الله علاقة سوى هذه؛ إذ ليس في ميسورنا أن نمنح نحن اللهَ شيئاً! تكون علاقة العبد بالمولى مثيرة غرامية رائعة لطيفة إذا كانت على مستوى حب أمير المؤمنين(ع) لربه وأحاسيسه تجاهه وعبَراته وانفعالاته بين يديه! وتكون جميلة إذا بلغَت غَورَ أدعية أئمة الهدى(ع) وارتفاع ضجيجهم المُؤجّج للنشاط في جوف الليل حتى منبلج الصبح على أعتاب الله عز وجل. ولو خُضتَ هذه العلاقة للَمستَ أنها تقوم بشكل رئيس على كسب المنفعة واجتناب الضرر! بل ليست العلاقة بين العبد وسيده إلا هذه!

عـن الإمـام الباقـر(ع) إن اللـه لا يريـد مـن عبـاده غـير أمريـن؛ أولهـما أن يقـرّوا بالنعـم إذا أنعمهـا عليهـم (أن يعرفـوا أنهـا لمنفعتهـم) وثانيهـما أن يعترفـوا بذنوبهـم إذا أذنبـوا (أن يعلمـوا أنهـا مُـضرّة لهـم)، وهـذا حسـبُهم.. وهـو تعـالى لا يتوقّـع منهـم أكـثر مـن ذلـك: «لا وَاللـهِ مَـا أَرَادَ اللـهُ تَعَـالَى مِـنَ النَّـاسِ إِلاّ خَصْلَتَـيْنِ: أَنْ يُقِـرُّوا لَـهُ بِالنِّعَـمِ فَيَزِيدَهُـمْ وَبِالذُّنُـوبِ فَيَغْفِرَهَـا لَهُـم» (الـكافي/ ج٢/ ص٤٢٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ١٢)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ١٧/أيار/٢٠١٩ ـ ١١/رمضان/١٤٤٠

المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)

الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

الخطوة الثالثة على طريق امتلاك الشخصية المتدينة هي "أن تكون أهل سباق"/ ما لم تدخل في سباق فسوف لا تدرك ألوهية الله!/ لا تكبت حس التسابق الجميل عند الأطفال!

حال أيّهما أفضل: الذي يركض هرباً من التعاسة، أم الذي يركض طمعاً للفوز في سباق؟ لا شك أن المتسابق حاله أفضل. لكن الأمهات – مع الأسف – قد يتسبّبن في شقاء أطفالهنّ وينتزعن حس السباق منهم بأن تقول الأم لطفلها: "إن لم تواصل دراستك فستكون تعيساً!"

الذي يريد التديّن عليه أن يوفر في شخصيته بعض الممهّدات

الـذي يريـد التديـن عليـه أن يوفـر في شـخصيته بعـض الممهـدات ويحـلّ في ذهنـه بعـض المشـكلات كي يتعامـل مـع الديـن، ولاسـيما مـع موضـوع «تـرك المعصيـة»، بحساسـية ويقيـم معـه علاقـة جيـدة. مَـن لم يقتنـع بأصـل التديـن فسـوف لا يقتنـع بقضية تـرك المعصية. فقد يكـون الكثيرون أهـل دين، لا بل مؤمنـون ومتدينـون إلى حـد مـا، لكـن لم يختمر التديـن في عقولهم بعـدُ كي يحتل موضـوع المعصية مكانة بـارزة في أذهانهـم! بمعنـى أن قضية تـرك المعصية والتعامل مع الذنب بحساسـية لم تحتل مكاناً مرموقاً في حياتهـم. فالـذي يكـون حساسـاً تجـاه الذنب لا بد أن تصير التوبة بالنسـبة له في غاية العذوبـة والحلاوة.

من أجل التديّن وترك المعصية لا بد للمرء أولاً أن يكون مخططاً لحياته

الـذي يرغـب في أن يكـون حساسـاً تجـاه شيء اسـمه «الذنـب» أو – عـلى نطـاق أوسـع – أن يتعامـل مـع الديـن بحساسـية ويقيـم معـه علاقـة حسـنة فـإن عليـه أولاً أن يكـون مخططـاً لحياتـه. لا بـد لشـخص كهـذا أن يلقَّـن منـذ نعومـة أظفـاره أنـه لم يولَـد في هـذه الدنيـا إلا «ليعيـش حيـاة مُمَنهجـة»؛ فمـن دون برنامـج ليـس بإمـكان المـرء أن يحقـق مصالحـه، ومـن دون خطـة لا يسـتطيع الرجـل درء عـدوّه، ومـن دون منهـاج لا يمكـن التمتـع بالحيـاة، ولا التسـلية فيهـا، ولا الازدهـار.. الـخ.

الإنسان المخطط لحياته يتقبل الدين بشكل أفضل، فهو إن أخطأ في موضع ما انزعج لكون خطته فسدَت؛ كالذي خطط للذهاب إلى مدينة رسول الله(ص) ووضع لكل شيء جدولاً زمنياً دقيقاً، وإذا بمشكلة تعترضه وسط الطريق، كأن تعطل سيارته مثلاً، فيضطرب الجدول الزمني لجميع الأمور التالية! لا شك أنه سينزعج كثيراً، لأنها كانت قطعة في لعبة «بازل» ضخمة وغيابها قد أربك اللعبة بأكملها. متى يشعر المرء بحساسية تجاه العمل الذي يقوم به؟ يشعر بذلك عندما يدرك أن عمله هذا يمثل جزءاً صغيراً من برنامج ضخم! فمثلاً عندما تخطط لتلاوة زيارة عاشوراء لأربعين يوماً فلا بد أن كل خطتك ستفسد إذا لم تتلُها ليوم واحد!

سبب صعوبة الدين عند غالبية مَن يرونه صعباً هو أنهم غير مَنهجِيّين

سبب صعوبة الدين عند غالبية الذين يرونه صعباً هو أنهم غير منهجيين وأنهم لم يعتادوا على العيش وفق خطة وبرنامج. نعم، قد ينجز غير المنهجي جميع أعمال الشخص المنهجي، لكن على شكل ردود أفعال، ومن دون جدوى، وبالإكراه، وباستياء، وبشكل مبعثر، ومن دون نتيجة بالطبع! أما الشخص المنهجي فيقوم بالأعمال نفسها جميعاً لكن وفق برنامج معيّن فيحصل على نتائج جيدة للغاية. إذا بدأتَ بممارسة الدين وفق منهاج خاص فسترى كم سيكون الدين أنيقاً وراقياً في نظرك، وهذه بالضبط هي حقيقة الدين؛ أي إن الدين هو حقاً أنيق وراقٍ إلى هذا الحد، لا أننا نحن الذين نحاول زخرفته!

على كل من أراد التدين أن يكون إنساناً "نفعياً"

الخطوة الثانية للاقتناع بالتدين - كما قد مَر - هي أن يكون كل من أراد التدين إنساناً نفعياً. فحينما يُنجز كل واحد منا عملاً بما تمليه عليه رغبتُه فإنه في الواقع يُشبع رغبتَه وينجز العمل بما يجر عليه هو نفعاً روحياً. بل إن النفعية غير منفصلة عن روح الإنسان. فلماذا تُحمّل الأم نفسَها كل هذا العناء من أجل طفلها؟ إنه على وقع حس الأمومة. الجميع يقول: «الأم لا تفعل هذا بدافع النفعية، بل تقوم به عن محبة!» حسنٌ، إن فعل الشيء عن محبة لا يتعارض مع النفعية! فالمنفعة لا تكون في المال فقط، بل إن إشباع الأم لشعور الأمومة في داخلها هي منفعة أيضاً.. فالنفع الروحي هو الآخر منفعة، والنفع النفسي هو كذلك منفعة.

حب الذات لا ينفصم عن الإنسان في أي حال من الأحوال حتى في ذروة حالات العشق لربه تعالى. فقمة العشق، التي يدعوها العرفاء «الفناء في الله»، هي في الواقع ليست فناءً، بل هو بقاءٌ تام.. هو كسبٌ تام.. هو أخذٌ تام! فالذي يقال إنه «قد فنى في الله» هو - بالمناسبة - قد أخذ من الله أزيد من مما أخذ أيُّ إنسان آخر، وهو الآن أوفر حظاً من الجميع، وقد غدا أكبر من الكل أيضاً!

إذا علم المتدينون أن "التدين يعني النفعية" لم يصابوا بالغرور

التدين هو النفعية! لا بد من قول هذا لغير المتدينين، بل وللمتدينين أيضاً! فلو علم المتدينون أن تدينهم هو عن منفعة فسيذهب عنهم الغرور، إذ سيعلمون أنهم كلما توغلوا في التدين أكثر كان ذلك في مصلحتهم أكثر وسيصبحون مدينين لله أكثر من ذي قبل. ولو عرف المتدينون أنه ما من عمل يأتون به إلا ويصب في مصلحتهم لكان التزامهم بالصلاة أشد. ولو كنا قد أوضحنا لغير المتدينين أن الدين في صالحهم لما شهدنا الآن كل هذه الضجة حول الحجاب! ولما دار الجدل حول ما إذا كان الرقص في المدارس مباحاً أو لا! فمعظم هذه النزاعات التافهة تأتي على خلفية خطابنا الديني الخاطئ! سببها أننا قلنا: «كُفّوا عن هذه الأعمال السيئة من أجل معتقداتكم!» في حين كان علينا أن نقول: «هذه الأعمال لا تصب في صالحكم، بل فيها خسارة لكم!»

الخطوة الثالثة لتكون لنا "شخصية متدينة" هي أن نكون "ذوي سباق"

الخطوة الثالثة من أجل أن نتحلى بشخصية متدينة لا تطيق المعصية وأن نقتنع بالكف عن الذنب هي أن نكون من هواة السباق؛ أي أن لا نكون من القانعين بالحد الأدنى من المنافع، بل أن نطالب بالمنفعة، لا بل نطالب بأعلاها، وبأسرعها، وبجميعها، ونطالب بها أفضل من الباقين. يا ترى ما الذي يطلبه من الدين هذا الذي لا يطالب كثيراً بمنفعة نفسه؟! فليذهب ويشاهد المسلسلات التي تبث مضامين أخلاقية! فإن الذي يفتش عن بعض الأخلاقيات لا حاجة له بالدين!

الدين نهجُ أولئك الذين يطالبون "بالحد الأعلى من المنافع"/ الذي لا يطالب بالحد الأعلى من المنافع لا يتحلى بشخصية دينية

الدين نهجُ أولئك الذين يطالبون بالحد الأعلى من المنافع. الدين لا ينفع الشخص الذي لا يطالب بأعلى حد من منافعه! فإن قلتَ لأحدهم: «لا تستمع إلى الموسيقى السيئة لأنها تعيقك عن بلوغ الحد الأعلى» وأجابك: «أنا لا أريد أن أبلغ الحد الأعلى!» فسوف لا يبقى لديك كلام تقوله له! بل إن الذي لا يطالب بالحد الأعلى من المنافع ولا يريد أعلى الدرجات لا يتحلى بشخصية دينية. بل إن شخصاً كهذا لا يذرف الدمع لمعصيته، لأنه لا يدرك حجم الخسارة التي سبّبَتها له. نعم، البعض يتسابق في أمور هابطة تافهة كي لا يقال عنه أمام الآخرين إنه فاشل! كأن يقيم حفلات ضيافة فارهة كي لا يُوصف بالفشل أمام قريبه الفلاني أو لكي يتفوّق عليه! فمرادُنا ليس هذه المسائل التافهة.

القرآن الكريم يدعونا إلى التسابق!

يقول تعالى في محكم كتابه العزيز: «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» (الحديد/٢١). وعن الإمام علي بن الحسين(ع) أنه قال: «مَعَاشِرَ شِيعَتِنَا، أَمَّا الْجَنَّةُ فَلَنْ تَفُوتَكُمْ، سَرِيعاً كَانَ أَوْ بَطِيئاً، وَلَكِنْ تَنَافَسُوا فِي الدَّرَجَاتِ» (التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري(ع)/ ص٢٠٤). ثم يتابع(ع) بأنك لو أتيت بهذه الخيرات... (مثلاً أن تحسن إلى الفقراء وإخوانك في الدين...) أتدري ما سيحصل؟ إنك ستسبق صاحبك مائة ألف سنة! «وَاعْلَمُوا أَنَّ أَرْفَعَكُمْ دَرَجَاتٍ، وَأَحْسَنَكُمْ قُصُوراً وَدُوراً وَأَبْنِيَةً فِيهَا أَحْسَنُكُمْ إِيجَاباً لِإِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَكْثَرُكُمْ مُوَاسَاةً لِفُقَرَائِهِمْ. إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيُقَرِّبُ الْوَاحِدَ مِنْكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ يُكَلِّمُ بِهَا أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ الْفَقِيرَبِأَكْثَرَ مِنْ مَسِيرَةِ مِائَةِ أَلْفِ سَنَةٍ تَقَدَّمَه» (نفس السابق). يا ترى هل لنا نحن الرغبة في أن نخلف الآخرين وراء ظهورنا ونتقدّم عليهم؟ يسأل سائل: «ما لي لا أذرف الدمع إذا ناجيت الله تعالى؟» نُجيبه: «لأنك لست أهل سباق! فالذي أعدّ نفسه للسباق تراه يبكي إذا خسره!

الدين ليست غايته انتشالنا من التعاسة فحسب

الدين لم يأتِ لانتشالنا من مستنقعات التعاسة الآسنة فحسب، بل جاء لإنقاذنا من أوحال الحياة «بسيارة سباق» ولكي يبلغ بنا الذُرى! أي إن قضية السباق ماثلة منذ البداية، فالأمر لا يقتصر على الانتشال من المستنقعات الآسنة، بل هذه هي خاصية الدين أساساً، وهي أنه ينطوي على سباق. عن رسول الله(ص) أنه قال: «التَّقِيُّ سَابِقٌ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ» (أعلام الدين/ ص١٨٦)؛ أي إنه لا يتعامل مع أي خير تعامُل الحد الأدنى. وهذا هو معنى التقوى تحديداً! والله عز وجل يقول أيضاً: «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» (المائدة/٢٧)؛ أي لا يتقبّل إلا من المتقين، وفيه شكل من أشكال الشعور بالسباق. فالإنسان المتقي هو الذي تكون عاقبته على خير، وليس الإنسان المكتفي بالحد الأدنى من الدين! ويقول عز من قائل أيضاً: «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ» (البقرة/١٤٨)؛ أي تسابقوا من أجل الخيرات! ويقول تعالى في آية أخرى في حق المؤمنين: «وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ» (آل عمران/١١٤). وروي عن الإمام الحسين(ع) قوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، نَافِسُوا فِي الْمَكَارِمِ وَسَارِعُوا فِي الْمَغَانِمِ وَلا تَحْتَسِبُوا بِمَعْرُوفٍ لَمْ تَعْجَلُوا» (كشف الغمة/ ج٢/ ص٢٩)؛ أي لا تعوّلوا أبداً على فعلكم للخير إذا لم تفعلوه بمسارعة وتعجيل واشتياق! ويقول سبحانه وتعالى: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُون» (المؤمنون/٦٠)؛ أي الذين يفعلون ما يفعلون وقلوبهم خائفة من أنهم سيرجعون إلى ربهم. «والوَجَل» لا يعني الخوف السلبي، بل الاضطراب والقلق الخاص الذي يحصل للإنسان في الحالات الإيجابية، ويكون عذباً ولا يحطم أعصاب صاحبه. ثم يقول في الآية التالية: «أُولئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُون» (المؤمنون/٦١)؛ أي يقيسون أنفسهم بغيرهم في فعل الخير كي يسبق بعضهم بعضاً.

ليكن لديكشعورُ سباق!/ لا تكبت حسّ التسابق الجميل عند الأطفال!

يقول عز وجل في كتابه العزيز: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً» (هود/٧)؛ أي لقد خلق كل هذه السماوات والأرض ليرى أيكم أفضل؟ فهو إذن سباق. ويقول في موضع آخر: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً» (المُلك/٢)، فهو لا يختبركم لينظر أيكم صالح وأيكم طالح، بل هو - من البداية - سباق ليرىمَن منكم أفضل من غيره؟ ليكن لديك شعورُ سباق. أما ترى الشعور الرائع الذي يمتلكه الأطفال؟ دائماً يلذ لهم التسابق مع بعضهم البعض. وهذا شعور جميل أُودع في كيان الإنسان لكننا مع الأسف نعمل عادة على كبت هذا الشعور فينا! فكم يتحمس الطفل للتسابق مع أقرانه لكننا ننبّهه باستمرار أن: «اجلس في مكانك! كفاك تهوّراً!» فينسَلّ خلسةً ويتناول لابتوباً أو جوالاً ليلعببالألعاب والسباقات غير الواقعية في الفضاء السيبري وما إليه! في حين أن علينا أن نقحمه في سباقات حياته الجادة. أتدري لماذا يكون البعض سريع البكاء جداً في المناجاة؟ ألأنه غارق في تعاساته؟ كلا، بل لأن الذي يبذل جهوداً مضنية ليفوز في سباق ثم يخبرونه «بأنك لم تفز فيه!» فإنه سيبكي! وليست دموعه هذه ناشئة عن تعاسة، بل هي صادرة عن شعور جميل.

لربما تسبّبَت الأمّهات في شقاء أطفالهن بانتزاع حس السباق منهم

حال أيّهما أفضل: الذي يركض هروباً من التعاسة، أم الذي يركض طمعاً للفوز في سباق؟ من الواضح أن الذي يركض سعياً للفوز في سباق حاله أفضل. لكن الأمهات - مع الأسف - قد يتسبّبن في شقاء أطفالهن فينتزعن حسّ السباق منهم بقولهن لهم: «إن لم تواصل دراستك فستكون تعيساً!» ما طبيعة الحياة التي سيوفرها الإمام صاحب الزمان(عج) للناس إذا ظهر؟ إنه(عج) سيهيئ للناس الحد الأدنى من المعيشة، أما باقي الحياة فستكون سباقاً! فلأن الجميع مرتاح البال من أنه لن يشقى أحد في ذلك الزمن فسوف لا يقصد أحدٌ عملَه بدافع التعاسة. وحتى لو أفلس أحدُهم فإن معيشته مضمونة... إنه(عج) سيخلق هذه الظروف كي يكون الهدف من ممارسة الحياة والعبادة هو الارتقاء والتقدم.

أساساً ما الحكمة من أن تعمد الدولة الدينية إلى ضمان الحد الأدنى من معيشة الناس؟ إنه من أجل أن يصل الناس إلى الله عز وجل، أو بعبارة أخرى: لكي «يصبحوا أهل سباق».

يقول الدين: "ليكن لديك باعثُ سباق" ويقول بعض الأخلاقيين: "لا ينبغي أن يكون لديك باعثُ سباق!"

بعض المفكرين في حقل الأخلاق وبعض النفسانيين ممن يمارس تهدئة الأعصاب هو كارثة بمعنى الكلمة! لماذا؟ لأنه يقول: لا ينبغي أن يكون لديك باعثُ سباق؛ فاضطراب الفوز وألم الخسارة يؤذيانك! أمثال هؤلاء يسعون جهاراً ليجعلوا من الناس عبيداً وخرافاً! لا ريب أنك رأيت كيف أن الخراف لا تتسابق مع بعضها أبداً.. فهي في طمأنينة! يقول بعض المفكرين الأخلاقيين: «لا ينبغي أن يكون لديك باعثُ سباق!» أما الدين فيقول: «ليكن لديك باعثُ سباق!» قد تسأل: «وماذا عن الاضطراب الذي يولّده الفوز والخسارة؟» يجيبك الله: «لكن أنا موجود! لا تغلبُني حتى إغفاءة خفيفة.. أنا أساعدك.. أنا رب! بل أنا أفرح إذا رغب عبدي في الفوز...». فتقول له: «وماذا لو خسرتُ يا ربي؟!» فيجيبك: «أيُعقَل أن أدعَك تخسَر؟!» تقول: «افترض أنني خسرت!» فيقول: «أنا موجود، سأتدارك الأمر لك! لأي شيء تريد إقامة علاقةٍ معي إذن؟!»

كُن أهل سباق! ما لم تدخل في سباق فسوف لا تُدرك ألوهية الله!

أساساً، ما لم تدخل في سباق فسوف لا تدرك ألوهية الله عز وجل! الله يمد لك يد العون منذ اللحظات الأولى من السباق ولا يجعلك تخسره، بل يهيئ لك بنفسه أسباب الفوز فيه. وإن كنت مولعاً بكسب السباق حقاً فسيفتش الله لك عن عمل جميل، يسهُل إنجازُه، فيضعه في طريقك ويقول لك: «أنجز هذا العمل»، أي إنه عز وجل يساعدك على كسب السباق بسهولة! كن أهل سباق! وإلا فكيف تريد أن تستوعب حقيقة المعصية؟! أتدري ما المعصية؟ المعصية هي أن ترتكب خطأ وتخسر هذه الجولة من السباق. ثم يأتي الله ويتدارك لك الأمر! وهاهنا تبدأ علاقتك بالله تعالى.

لو نظرت إلى التدين نظرة سباق لتغيّرَت أجواء حياتك وعبادتك!

لـو نظـرت إلى التديـن نظـرة سـباق لتغـيّرَت في عينيـك أجـواء تدينـك وحياتـك ولباتـت شـيئاً آخـر! يتشـاجر بعـض الأزواج في بيوتهـم ويحـاول كل منهـما التغلـب عـلى صاحبـه فـلا يتنـازل لـه. لكـن لـو تسـابقا عـلى أنـه أيهـما يكـون أكـثر صلاحـاً فإنهـما سـيفكران بالطريقـة التاليـة: «الآن وقـد حصـل شـجار فلـنرَ أي واحـد منـا يحـوز عـلى ثـواب أكـبر؟» فلـو فكـر المـرء بهـذه الطريقـة لتنـازل أمـام الطـرف الآخـر قائـلاً لـه: «حسـنٌ، القـول قولـك!» وعندهـا يكـون المتنـازل هـو الفائـز في السـباق.

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ١٣)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ١٨/أيار/٢٠١٩ـ ١٢/رمضان/١٤٤٠
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

قبل أن نتدين علينا أن نعلم أننا نعيش في "عالم منظّم"/ بعض آثار ونتائج الذنوب يمكن لمسها حتى خارج نطاق الدين/ أول مقترح يقترحه الدين للتعامل مع هذا العالم المنظم هو "التعود على الحذر والمراقبة"

عالمنا هو عالم يتعين العيش وفق ضوابطه ولا يمكن أن يعيش المرء مخالفاً لها. نعم يحاول البعض تناسي هذه الضوابط كي يعيش براحة أكبر، وهذه ليست طريقة سليمة وهي تضر بالإنسان أيما ضرر. الطريقة التي يقترحها الدين هي أن نلتمس الراحة في التعوّد على الحذر والمراقبة واحترام قوانين العالم وضوابطه.

قبل أن نتجه صوب الدين علينا أن نعلم أننا نعيش في عالَم منظَّم أموره محسوبة

من العوامل التي تمنحنا توجّهاً إيجابياً نحو الدين هو أن نعرف أنه: في أي عالم نعيش؟ ومن العوامل التي تثير فينا الحساسية تجاه المعصية هي أن نعرف أنه: في أي عالم نعيش؟ إننا نعيش في عالم هو في منتهى التنظيم، أموره محسوبة بدقة، وله ردود أفعال. وإن آثار الفوضى التي نخلقها فيه تحيق بنا بالكامل. فليس في مقدورنا إذن أن لا نتكيف مع هذا العالم المنظم غاية التنظيم. قبل أن نتّجه نحو الدين علينا أن نعرف أين نعيش؟ هذا العالم ليس عالماً فوضوياً، بل هو منظّم بكل معنى الكلمة. إننا نعيش في عالم منظم كهذا وليس في مقدورنا أن نمارس فيه أي تصرف! بالطبع القبول بمثل هذا العالم المعقد والمنظم جداً والذي تحكمه القوانين صعب بعض الشيء والناس بطبيعة الحال تحب عدم الاكتراث بهذه القوانين كي ترتاح، في حين أن عدم الاهتمام بهذا الموضوع يضر بالإنسان.

قبل أن نتدين علينا أن نقتنع بأنه ليس من حقنا في هذا العالم المنظم أن نمارس ما نشاء

علينا أن نقتنع قبل الدخول في الدين بأنه ليس من حقنا أن نمارس ما نشاء في هذا العالم المنظّم!.. لا ينبغي أن نظن أن الحياة تدار بالصُدَف! فهذا العالم محسوبة أموره حساباً، ولا بد لتصرفاتنا عندما نعيش فيه أن تكون محسوبة، لأن ردود الأفعال على تصرفاتنا ستنعكس ضدنا.

يجب أن نماشي الطبيعة لأننا نحيا معها. فلا نستطيع أن نتعامل مع الطبيعة بالطريقة التي تطيب لنا؛ ذلك أن ردود أفعالها وآثارها السلبية ستنعكس علينا نحن. فالنوم بين الطلوعين مثلاً مضر بصاحبه كل ضرر وهو أشبه بضربات موجعة يوجّهها الإنسان لجسمه ودماغه وأعصابه! فهذه الطبيعة على أية حال تدفعنا إلى مجموعة من التصرفات ولا يسعنا أن نعاملها بعدم اكتراث. لا يستطيع الأبوان أن يعاملا أطفالهما بالطريقة التي تحلو لهما، بل ولا يحق لأحدهما أن يتصرف مع الآخر أو يكلّمه أمام أنظار الأولاد كما يحب، ذلك لأن ردود أفعال هذه السلوكيات ستنعكس عليهما هما وستخلق للأبوين أنفسهم ظروفاً صعبة.

قواعد العالم المعقدة لا تسمح للإنسان أن يتصرف كما يلذ له!

لو كنا نحمل طموحاً عالياً جداً فيما يتصل بمصالحنا، ولو كنا نرغب في الحصول على منافعنا كلها وبلوغ قمة الازدهار، ولو لم يكسّر أحد أجنحتنا، ولو لم نكبُر ونحن عديمي الشخصية، ولم نَقنَع بالقليل، ولو كنا من هواة التسابق - لو توفر فينا كل هذا فلا بد أيضاً أن نعرف العالم الذي نحن نعيش فيه! فلو أدركنا حقاً أنه في أي عالم منظّم نحن نعيش لعرفنا أنه لا ينبغي أن يبدر منا ولو تصرف واحد غير مدروس. وهل يجوز فعل أي شيء في عالم كهذا؟! وهل تتيح لنا قوانين الفيزياء أن نفعل في هذا العالم ما نشاء؟! فما كل هذه الجامعات وما كل هؤلاء العلماء إلا ليتعرفوا على قواعد الطبيعة ويدرسوها قليلاً ليتمكن سكان الأرض من أن يحسّنوا أوضاع حياتهم تحت قوانين هذا العالم المعقدة. وإنها لقوانين خاصة لا ترضخ لأي بشر أبداً وليس فيها أي مرونة على الإطلاق.

من الممكن معرفة آثار بعض المعاصي حتى خارج نطاق الدين

إن من المتيسر دراسة آثار ونتائج بعض التصرفات والمعاصي حتى خارج نطاق الدين. فالآثار السلبية لقضايا من مثل «عدم التحجّب»، «والتفكير في المعصية» هي مما يمكن معرفته وقياسه فسلجياً بكل دقة، ولو شمّرَت جامعاتنا عن سواعدها لأمكنها الحصول على نتائج هذه الأمور، بالضبط كما تتم مشاهدة آثار الكذب بوضع بضع متحسسات على جسد الإنسان.

لا ينبغي أن نغتر بقوة الشباب وعنفوانه فنفعل بأنفسنا في هذه المرحلة من العمر ما يستنزف هذه الطاقة فينا! فمثلاً يجب أن نعلم أنه ليست كل موسيقى هي مناسبة لروح الإنسان، وأن لبعض ألوان الموسيقى آثاراً سيئة على جسم الإنسان وأعصابه وروحه. من ناحية أخرى فإن تعاليم الدين العبادية؛ مثل الصلاة، وقيام الليل، وإطالة السجود، ومدّ القنوت، وصلاة الليل، ..الخ، لها آثار إيجابية حتى على جسد الإنسان. إذن حتى الجوانب الفيزيائية لهذه العبادات يمكن دراستها. فقد جاء في الحديث أن لصلاة الليل والتبكير في الاستيقاظ أثراً في سلامة البدن: «قِيَامُ اللَّيلِ مَصَحَّةٌ لِلبَدَن» (المحاسن/ ج١/ ص٥٣). وجاء أيضاً: «صَلاةُ اللَّيلِ مَرضَاةٌ لِلرَّبِّ.... وَرَاحَةُ الأَبدَانِ» (إرشاد القلوب/ ج١/ ص١٩١). وأملنا في الأطباء والفيزيائيين والكيمياويين وبعض متخصصي العلوم الأخرى أن يعملوا مع مرور الزمن على إثبات الآثار الإيجابية للعبادات.

أول مقترح يقترحه الدين للتعامل مع هذا العالم المنظّم هو "التعود على المراقبة"

نحن نعيش في عالم منظّم ومحسوبة أموره إلى أبعد الحدود وعلينا أن نعرف الطريقة التي علينا اختيارها للتعامل مع هذا العالم؟ يقول البعض ليريح باله: «دعونا ننسى من الأساس أن هذا العالم منظّم إلى هذا الحد!» وهذا أسلوب خاطئ بالتأكيد؛ ذلك أن الآثار السلبية لعدم الاكتراث لنظام هذا العالم إنما تنعكس علينا نحن، ولهذا فلا يمكننا التعامل مع هذه القضية بلاأبالية والتصرف بالشكل الذي نهواه. يقترح الدين علينا مقترحان: الأول هو أن نفعل ما يسهّل علينا مراقبة ومراعاة قواعد حياتنا في هذا العالم، لا أن نسهّل حياتنا من خلال تناسي قوانينه! كأن نستمتع بحياتنا – مثلاً – من خلال التعوّد على تناول الأطعمة المغذية السليمة عوضاً عن الاستمتاع بها من خلال تناول كل ما يلذ لنا تناوله. فهذا القرآن الكريم يخاطبنا: «فَليَنْظُرِ الإنْسَانُ إلَى طَعَامِهِ» (عبس/٢٤) أي فليدقق فيما يأكله! المقترح الأول الذي يقدمه الدين هو أن تعمل لمدة من الزمن على التخطيط لاحترام قوانين هذا العالم حتى يصبح مهارة من مهاراتك. يقول إمامنا الباقر(ع): «عَوِّدُوا أَنفُسَكُم الخَيرَ» (الخرائج/ ج٢/ ص٥٩٦)،

فإذا عودت نفسك على فعل الأمور الحسنة فستسهل عليك الكثير من الأمور. فمن أجل تعلّم قيادة السيارة مثلاً يتحتم عليك أن تكتسب مهارة استعمال دواستي المكابح والقابض وناقل الحركة كل في وقته المناسب. فإنه بعد أن تكتسب هذه المهارة ستقود السيارة بكل سهولة، وليس أن تقود السيارة كما يحلو لك دون اكتساب أي مهارة، لأنك في هذه الحالة ستتكبد ضرراً جسيماً. عالمنا عالمٌ يتعيّن العيش وفقاً لضوابطه ولا يمكن أن يعيش المرء مخالفاً لها. نعم يحاول البعض تناسي هذه الضوابط كي ينعم بعيش أكثر راحة وهذه ليست طريقة سليمة للحياة وهي تضر بالإنسان أيما ضرر.

فلنفتش عن الراحة في التعوّد على المراقبة واحترام قوانين العالم وقواعده

الطريقة التي يقترحها الدين هي التفتيش عن الراحة في التعوّد على المراقبة واحترام قوانين العالم وقواعده. على أنه لا ينبغي انتهاج طرق المرتاضين الهنود بحجة احترام هذه القوانين، ولا الإفراط الشديد في المراقبة؛ فإن للمراقبة حدوداً خاصة وضوابط معيّنة، ولا يجوز للمرء أن يقسو على نفسه في عملية المراقبة. حينما يأمرنا الدين بأوامر ويسمّي عدم امتثالنا لها معصية فلا بد أن نعلم أن العلة من وراء أوامره هي أن هذا العالم يحكمه نظام صارم ومحسوب بدقة. إنك غير قادر على أن تعيش في هذا العالم من دون نظام!.. حتى الحيوانات لا تحيا من دون نظام؛ القطط على سبيل المثال تصاب أحياناً بنوع من الأمراض ولا بد أن تجد طعاماً أو نبتة خاصة تأكلها لتشفى من مرضها، فإذا بغريزتها تدلها على البحث عن هذا الطعام وتناوله لتبرأ من المرض! أما فيما يخص الإنسان فقد تُرك له الخيار لكي يعرف الأشياء المفيدة والصالحة له. ومن هنا يقول تعالى في محكم كتابه: «فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ» (عبس/٢٤)؛ أي عليه أن يتفحص ما يأكله ويتمعّن فيه. والذين يتحرّون الدقة فيما يأكلون تراهم يخرجون بنتائج جيدة (فيما يتصل بصحة أبدانهم وأرواحهم).

المقترح الثاني للدين: لُذ بأحضان الله كي يمحو خطيئاتك

إذن المقترح الأول الذي يقترحه الدين هو: إذا أحببت أن تحيا مرتاح البال «فعليك اكتساب مهارة الضبط والمراقبة». لكن هناك للدين مقترح آخر أجمل من هذا بكثير؛ فهو يقول لك: «إذا كان العيش في هذا العالم المنظم للغاية شاقاً عليك فافعل كما كنت تفعل في أيام الصبا حينما كنت تلوذ بأحضان أمك متى ما أفسدتَ شيئاً لتعمل هي على تدارك ما أفسدتَ أنت (فتغير لك ثيابك، و..) فارتمِ الآن أيضاً في أحضان الله ولُذ به ليبدّد لك هواجسَك ويصلح ما أفسدتَ بخطيئاتك. يقول الله عز وجل لك: «إذا كان العيش في هذا العالم المنظّم والمعقد شاقاً عليك فتعالَ وعش معي! وسآخذ بيدك بنفسي.. سأتدارك أنا ما أفسدتَ!» هل في مقدور الله إذا ما تناولنا طعاماً غير سليم أن يحمينا من آثاره السيئة؟ أجل، فبالدعاء والذكر قد يتم إصلاح ما أفسدناه حتى في مجال الطعام والشراب، وذلك بأن يكتسب المرء طاقة روحية ومعنوية بإمكانها أن تعوّض ما نقَص الطاقة المادية التي كان ينبغي أن يكتسبها جسمه.

للإنسان قوى عديدة ومتنوعة/ مصدر قوة المؤمن ليس طعامه، بل نيّته

مصدر قوة المؤمن - كما في الحديث – ليس طعامه، بل نيته: «إِنَّ قُوَّةَ الْمُؤْمِنِ فِي قَلْبِهِ. أَلا تَرَوْنَ أَنَّكُمْ تَجِدُونَهُ ضَعِيفَ الْبَدَنِ نَحِيفَ الْجِسْمِ وَهُوَ يَقُومُ اللَّيْلَ وَيَصُومُ النَّهَار» (من لا يحضره الفقيه/ ج٣/ ص٥٦٠). فإذا قويَت نية الإنسان استطاعَ أن يحمّل بدنَه الأضعاف من الأعمال. سُئل أمير المؤمنين(ع) عما إذا كانت القوة التي اقتلع بها باب خيبر قوة جسدية فكان جوابه أنها كانت قوة روحية؛ «مَا قَلَعْتُ بَابَ خَيْبَرَ وَرَمَيْتُ بِهِ خَلْفَ ظَهْرِي أَرْبَعِينَ ذِرَاعاً بِقُوَّةٍ جَسَدِيَّةٍ وَلا حَرَكَةٍ غِذَائِيَّةٍ لَكِنِّي أُيِّدْتُ بِقُوَّةٍ مَلَكُوتِيَّةٍ وَنَفْسٍ بِنُورِ رَبِّهَا مُضِيئَة» (أمالي الصدوق/ ص٥١٤). كما سُئل(ع) عن أنه كيف تصرع أعداءك الأشداء أرضاً وتنتصر عليهم؟ فكان جوابه أني - في البدء – أغلبهم بما لي من هيبة في نفوسهم ثم أعالجهم بالسيف؛ أي إني أشل عدوي أولا بنظرة شديدة مني، فتكون ضربة السيف في عدو مشلول متهالك أمراً يسيراً! «وَقِيلَ لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ(ع) بِمَ غَلَبْتَ الأَقْرَانَ؟ قَالَ: بِتَمَكُّنِ هَيْبَتِي فِي قُلُوبِهِمْ» (مناقب آل أبي طالب/ ج٢/ ص١١٦). للإنسان قوى عديدة ومتنوعة. فلا تعجب إذا عرفت أن ابن سينا كان إذا أراد حل مسألة علمية معضلة صلّى ركعتين ثم بدأ يحلّها!

العالم وكيان الإنسان كلاهما له نظام دقيق جداً؛ إذن نحن بحاجة إلى منهاج دقيق جداً

عالمنا عالم منظّم إلى أبعد الحدود، كما أن كيان الإنسان كيان معقد للغاية، ولا بد لنا من التعامل مع هاتين المنظومتين: منظومة كيان الإنسان (روحه وجسمه)، ومنظومة الطبيعة! إذن نحن بحاجة إلى خطة دقيقة ومُحكمة. لا بد أن تزودني بكراس يخبرني بما أصنع. من هنا ترى ديننا قد أعد منهاجاً يستوعب حتى أضأل شؤون الحياة. فلقد وضع - على سبيل المثال - لآداب كنس الدار تعليمات؛ ففي الحديث إنك إن لم تنظف الدار بطريقة كذا فسيدخلها الشيطان، وإن لم تقلّم أظفارك في الوقت المناسب دخل تحتها الشيطان، ..الخ. ويذهب بعض المفسرين إلى أن «الشيطان» في هذه الأحاديث يعني الميكروب نفسه؛ أي الشيء المؤذي لحياة الإنسان. كان الشهيد الكبير الدكتور باكنجاد قد ألّف قبل الثورة كتاباً تحت عنوان «اولين دانشگاه، آخرين پيامبر» (الجامعة الأولى، النبي الخاتم) جمع فيه نتائج الدراسات العلمية حول آثار وفوائد بعض تعاليم الدين الإسلامي. وكنا نأمل أن يصار بعد انتصار الثورة إلى المزيد من الأعمال في هذا المجال لكن هذا لم يحصل مع الأسف. انظر كم من الآداب ذُكرت في تراثنا الحديثي حول تناول الطعام! فكم قد أوصي بتناول الخضار مع الطعام!.. لاحظ أي آداب وتوصيات وردت في تناول البصل واللحم! بل حول كيفية طهي اللحم، سلقاً أو شَيّاً مثلاً! لماذا لا ننظر إلى تعاليم الدين هذه من زاوية صحية طبية أو من منطلق العلوم التجريبية؟! يوصى في أكل التمر مثلاً أن يؤكل عدد فردي من حبات التمر لا زوجي (تمرة واحدة أو ثلاث تمرات مثلاً). ولو تحدثت بهذا إلى بعض الجُهّال فقد يسخرون منك، لأنهم لا يفقهون إلى أي مدى هذا العالم منظّم، أما إذا كلّمتَ به عالماً متخصصاً فسيغوص في أفكاره ويدرس الموضوع للوقوف على أسبابه. ولقد اكتشفوا علل الكثير من التوصيات الدينية عن طريق العلوم التجريبية.إننا إذا تناولنا طعامنا من دون قيود ونمنا وصحونا بلا ضوابط وتصرفنا بانفلات لذهبت عقولنا شيئاً فشيئاً. ففي الحديث إن مقترف المعصية يذهب من عقله بما يتناسب والمعصية التي اقترفها: «مَن قَارَفَ ذَنباً فَارَقَهُ عَقلٌ لا يَرجِعُ إلَيهِ أبداً» (ميزان الحكمة/ الرواية٦٧٥١).

هناك طريقتان لكي لا تصعب علينا الحياة في هذا العالم المعقد والمنظّم:

الذي يرغب في قبول الدين والاقتناع بموضوع «ترك المعصية»، الذي هو العقدة الأساسية لقصة الدين، عليه أولاً أن يقتنع بأنه يعيش في عالم في منتهى التنظيم وأن ردود أفعال هذا العالم تنعكس عليه هو. إن قلتَ: «إن الحياة صعبة شاقة علينا مع كل هذا التعقيد والتنظيم الموجود في البيئة من حولنا!» نقول لك: «هناك طريقتان لإزالة هذه الصعوبة: الأولى أن تداوم على المراقبة وتعوّد نفسك احترام هذه القوانين المنظَّمة. والثانية هي أن الطفل إذا عاش مع أمه لم تصعب عليه الحياة، فعِش أنت أيضاً مع الله تعالى، فإنه سيوفر لك الملاذ ويصلح ما تفسده باستمرار. فإن أخطأت ونمت بين الطلوعين مثلاً فاستغفر الله علّه يتلافى خطأك. بل إن الله موجود لهذا الغرض تحديداً.. فالله لم يتركك قط كي ينظر إليك غير مبالٍ قائلاً: «ما شأني أنا؟! لولا توخّيتَ الحذر!» فإن الله يرعى عبده أكثر بكثير من رعاية الأم الشفوق الحنون لولدها. ثم لا تظن أنك كبرت ولست بحاجة إلى الله! إنك أصغر بكثير من أن تستقل عن الله تعالى.. إنك عاجز عن الافتراق عنه عز وجل لحظة واحدة! إذن فلُذ به دائماً! يقول تعالى في محكم كتابه العزيز: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ» (القمر/٤٩)؛ أي خلقناه بمقدار معيّن محسوب بكل دقة! ويقول أيضاً: «قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً» (الطلاق/٣)؛ أي مقداراً معيّناً. فإنك تعيش في عالم كل شيء فيه موجود بمقدار محدد، ولا يحق لك أن تتصرف فيه من دون مقدار ونسبة معيّنة. هذا ناهيك عن أن لجميع أفعالنا ردودَ أفعال يتم تسجيلها جميعاً في هذا العالم. علينا أن ننظر إلى العالم على اعتبار أنه عالم منظّم، شديد الإحكام، بالغ التعقيد والصرامة والانضباط قائم من حولنا ثم نبدأ فيه بانتهاج سلوك مشوب بالحذر! بالضبط كالحذر الذي نتوخّاه لدى قيادتنا السيارة وسط شوارع مكتظة. تخيّل كم من الحوادث ستحصل لو أننا لم نتحرَّ الحذر والدقة أثناء القيادة! الدين لم يُصمَّم إلا لأجواء منظّمة منضبطة كهذه، ولو أننا أهملنا المراقبة ولم نحذر في مثل هذا العالم المنظّم ولم نعتبر أن الله وأنبياءه هم من يعلّمنا الحذر ويرشدنا لانتهاج هذه المراقبة لواجهنا في تديّننا صعوبة! ولو لم نضع تنظيم العالم وكون أموره محسوبة بدقة بعين الاعتبار لكان من العسير علينا إقناع الناس والشباب حتى ببديهيات الدين الأولية.

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ١٤)

علي‌رضا بناهيان

پناهیان

PANAHIAN.NET

الزمان: ١٩/أيار/٢٠١٩ ـ ١٣/رمضان/١٤٤٠
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

الخطوة الرابعة للاقتناع بترك المعصية هي القبول بالنظام المسيطر على العالم/ إذا لم يرَ الإنسان نفسه تحت سلطة نظام عالمي طغى!/ الالتفات إلى "الزمان" عنصر جوهري في تنشئة الجيل الشاب

علينا، خلال العملية التربوية لأبنائنا، أن نبيّن لهم أن العالمَ الذي نعيش فيه عالمُ فعلٍ وردّة فعل وأن تبعات الفوضى التي نخلقها فيه إنما تنعكس علينا نحن. النظام المسيطر على العالم نظام مهيب حقّاً ولا يتلاءم وأطباعنا نحن معاشر البشر، لذا يحاول الكثيرون تجاهله ليرتاحوا، ذلك أن الإنسان يحب أن يفعل ما يلَذّ له دون أن يتحكم فيه نظامٌ ما!

المشكلة الأساسية تكمن في التديّن، لا في الإيمان!

النهج المتعارف في أصول العقائد يكفي في العادة لإيمان الناس واعتقادهم بالله عز وجل. نعم، ربما هناك مناهج أفضل، غير أن موضوعنا الآن ليس الإيمان، بل التديّن! التدين ربما يَصعُب حتى على المؤمنين! بل إن عدم إيمان الكثيرين بالله إنما يعود إلى كون التدين شاقاً عليهم، ولو كان سهلاً يسيراً عليهم لتحدثوا عن الإيمان بكل سهولة. المشكلة الأساسية إذن تكمن في التدين، لا في الإيمان!

التدين حُلو ويجعل العيش حلواً أيضاً

يتوهّم البعض إذ يتصوّر أن التديّن صعب. فعملية التدين تضم مراحل تربوية إذا اجتازها المرء غدَت حياتُه الدنيا حلوة بكل معنى الكلمة؛ أي ليس التدين حلواً بذاته فحسب، بل إنه يجعل عيش صاحبه حلواً أيضاً، أو فلنقل: إنه يُعِين على تحمّل مرارات الحياة. فالحياة الدنيا بحد ذاتها تنطوي على الكثير من المرارات والآلام التي إنْ لم يلتفت إليها البشر فإنهم يخدعون أنفسهم في واقع الأمر. إذا أصبح التديّن مهمّاً لشخصٍ ما صارت «الذنوب» همّه الأساسي وقويَت علاقته بالله على خلفية المعاصي والاستغفار، وهذا تحديداً ما نشاهده في سيرة أولياء الله؛ فكأن أولياء الله يطيب لهم أن يتحدثوا إلى الله باستمرار حول معاصيهم (أي حول التوبة والاستغفار). على أنهم يراقبون أنفسهم في حياتهم اليومية أيضاً لئلا يقترفوا الخطيئة.

مـاذا ينبغـي أن نصنـع ليصبـح «الكـف عـن المعصيـة» همَّنـا الأول ولتشـكّل التوبـة مـن الخطايـا والاسـتغفار موضـوع حوارنـا مـع اللـه جـل وعـلا؟

لا بد أن تتوفر فينا بعض الميزات لنقتنع بالتدين/ علينا أن نكون "أصحاب مَنهجَة في الحياة" "ونفعيين"

للاقتنـاع بالتديـن وتـرك المعصيـة ثمـة بضـع خصوصيـات أوليـة عـلى الإنسـان أن يمتلكهـا. فقبـل أن يدخـل حضـيرة التديـن عليـه أن يـدرك ويتقبـل حقيقـة «أنني لا أسـتطيع العيش دون أن أُمَنهـج حياتي». فالقبـول بمنهجـة الحيـاة هـو بحـد ذاتـه مرحلـة مـن مراحـل التربيـة ولا بـد أن يبـدأ مـن مطلع السـابعة مـن العمـر، ولا يُؤجَّـل ولـو عامـاً واحـداً! وكل مَـن تأخّـرت عمليتـه التربويـة في هـذا المجـال عليـه أن يجتهـد لتـدارك الموقـف. النقطـة الثانيـة هـي أن عـلى الإنسـان أن يكـون نفعيـاً وأن يطلـب أقـصى منافعـه.. علينـا أن نحـرص عـلى منافعنـا كلهـا. بـل إن الديـن لا يعنـي التنـازل عـن منافعـك! حتـى الـذي يبـذل روحـه في سـبيل اللـه تعـالى فإنـه، في الحقيقـة، يتاجـر مـع ربـه! فـما مـن عمـل تُنجـزه في سـبيل اللـه إلا ويعطيـك اللـه ربحـه، حتـى وإن ذرفـتَ الدمـوع عـلى الإمـام الحسـين(ع) غرامـاً بـه! أي حتـى وإن ترفّعـتَ عـن نفسـك ونسـيتها في ذروة لحظـات العشـق والغـرام فسيسـجّلها اللـه لـك أيضـاً ويُنيلـك أجرهـا. مشـكلتنا نحـن معـاشر البـشر هـي أننـا - في الأعـم الأغلـب - لسـنا نفعيـين بمعنـى الكلمـة أبـداً! أي إننـا مـن المتنازلـين عـن أنفسـهم عبثـاً.. ممـن «خَسِـرَ الدُّنيَـا وَالآخِـرَةَ» (الحـج/١١)! فاللـه عـز وجـل يُقسِـم في كتابـه العزيـز قائـلاً: «وَالعَـصْرِ * إنَّ الإنْسَـانَ لَفِـي خُـسْرٍ» (العـصر/١-٢)؛ أي إنـه يخـسر باسـتمرار! والمعنـى هـو: أيهـا الإنسـان، حـاذر أن تخـسر! عـلى الإنسـان أن يكون نفعيـاً ويطالـب بمنافعه جميعـاً؛ الروحيـة منهـا، والماديـة، والاجتماعيـة، والاعتباريـة، ..الـخ، لا أن يطالـب بجـزء مـن منافعـه ويقنـع بـه ويعيـش في حالـة مـن الكآبـة المزمنـة المسـتفحلة مفتقـراً للكثـير مـن منافعه يائسـاً مـن نيلها!

الخطوة الثالثة للاقتناع بالكف عن المعاصي هي أن نكون من "أهل السباق"

المرحلة الثالثة للتدين والكف عن المعاصي هي أن يكون المرء من أهل السباق! فيا ترى إلى أي شيء في الإنسان نظرت الملائكة عندما خلقه الله فاعترضَت على خَلقه؟ لقد نظرت إلى «ما ينشب بين الناس من عداوات وخصومات» فكانت هذه أهم ميزة سلبية رأتها الملائكة في الإنسان! الإنسان مخلوق محتاج إلى باقي البشر. فإن أخضَعَ احتياجَه إلى الآخرين هذا «لبرنامج الدين» تحول إلى تنافس في الخيرات؛ «فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ» (البقرة/١٤٨) أي إنه سيحاول سبق الآخرين. ومن السباق هذا ينبثق التعاون والإيثار أيضاً! إذن الإيثار هو أيضاً أحد نتائج السباق هذا؛ فهو ينصحك بأن «تعطي ما تملك وما أنت بحاجة إليه إلى الآخر كي تسبقه!»

ما الذي يجعل الناس تتجه نحو التنابذ بدل التنافس؟

الناس بحاجة إلى بعضهم البعض. فإن كانوا ضمن إطار الدين سُمّي احتياجهم هذا تنافساً وتسابقاً في الخيرات، أما إذا كانوا خارج نطاق الدين فسيندرج احتياجهم في خانة العداوة، وهي تبدأ بالحسد. والحسد ينشأ عند الأطفال منذ سن الثالثة! وهو أول صفة سيئة تظهر في الإنسان بعد حُب الراحة. ينجم الحسد عن تلك العلاقة القائمة بين الناس والتي يعمل الله تعالى على تحويلها إلى تنافس وتسابق. واللافت أن الناس يشعرون بالحساسية تجاه بعضهم البعض، لكنهم حينما يأتون إلى مسألة التدين لا يكون لأحدهم شأن بالآخر عادة؛ أي لا يودّون التنافس فيما بينهم وسبق بعضهم البعض في مضمار التدين، وهذا أمر سيئ. انظر كم صفحة من القرآن الكريم قرأ صديقُك اليوم؟ ألا تود أن تتقدم عليه؟! ألا يخامرك إحساسٌ ما بسبب سَبقِ صديقك لك؟! ألا تغبطه لذلك؟! الناس بحاجة إلى بعضهم البعض، فماذا نصنع ليكون هذا الاحتياج وهذا الارتباط فيما بينهم إيجابياً وبنّاءً؟ الحل هو أن نقحمهم في تنافس إيجابي. على أنّ للتنافس الإيجابي آدابه أيضاً؛ وهذه الآداب مندرجة ضمن منهاج يزوّدنا به الدين. البعض، إذ يشاهد الآثار السلبية للتنافس، تراه ينكر التنافس والتسابق من الأساس بحجة أنه «يخلق اضطراباً!» وهذه رؤية خاطئة.

ماذا يصنع المعلم التربوي لاجتثاث الحسد من نفوس الأطفال؟

إذا أراد المعلم التربوي في مدرسة ما السموَّ بتلاميذه ليصبحوا متدينين وولائيين فيما بعد، فما الذي عليه صنعه؟ عليه أن يمحو صفة الحسد في نفوسهم؛ كأن يشجّعهم دوماً على تقبّل امتيازات زملائهم والحديث عنها. لا يجوز تقريع تلميذ بامتيازات تلميذ آخر! لا تقولوا له: «انظر إلى زميلك كيف هو مستواه الدراسي؟!» فقد تكون قابلية الأخير على الدراسة عالية، ثم قد لا يُعَدّ مستواه الدراسي الجيد امتيازاً كبيراً له! لا ينبغي لإمام المسجد إذا نظر إلى المؤتمّين به أن يقول: «لاحظوا هؤلاء الذين يحضرون الجماعة بانتظام، إنهم في منتهى الإيمان!» فلا يجوز تقريع مُصَلّين على خلفية انتظام غيرهم! إذ لربما كان هؤلاء المنَظّمون منَظّمين في كل شيء عموماً فلا يُعد انتظامهم (بالصلاة) امتيازاً خاصاً لهم. ولعل هذا الذي لا يصلي في وقتها إلا أحياناً أشد تقوى من أولئك! إحدى الأمور التربوية المهمة هي أن يُقرّ أفراد الجماعة «بالنظام التسخيري»؛ أي أن يقرّوا بأنه لكل فرد من الناس امتياز، ولكل واحد منهم نقطة ضعف.. أن يقرّوا الاثنين معاً. علينا أن نفهّم التلميذ المُجِد وذاك الضعيف في الصف معاً بأنه «لا أنت بأدنى من الباقين، ولا ذاك بأعلى منهم!» فلا ينبغي أن يتهيّبَ فردٌ فرداً، وليعترف كلّ فرد بالآخر؛ كأن يقول طالب عن الطالب المحاذي له: «ذاكرته في منتهى القوة»، ويقول الثاني في الأول: «هو بارع جداً في حل المسائل». فلا نحطّمَنّ الأشخاص بسبب امتلاكهم صفة أو افتقارهم لها، بل لنرى لكل فرد امتيازاً خاصاً به. لا ينبغي أن نعمل – مخافة التصادم والاشتباك –على أن لا يتصل الناس مع بعضهم، ولا يقيسوا بعضهم ببعض، ولا يتسابقوا فيما بينهم! فتصرّف كهذا هو تصرف غير صحيح وهو ركونٌ إلى الدعَة، فلسنا في صدد تربية مجموعة من الخراف! يجب أن نُقحم الناس في حلبة تنافس وسباق، لكن علينا أن ننهاهم عن التحاسد والتفاضل فيما بينهم. لكن عليهم جميعاً – في الوقت ذاته –أن يتسابقوا مع بعضهم. تسابَق يا أخي لكن لا توبّخ الآخر.. تسابَق ولا ترَ لنفسك فضلاً.. تسابَق ولا تحسد.. تسابَق لكن لا تفرح بسقوط أحد.

الخصوصية الرابعة الضرورية للاقتناع بالتدين هي "أن يعلم الإنسان أنه يعيش في عالم منظّم"

لا بـد للإنسـان مـن امتـلاك بضـع خصوصيـات تؤهلـه لتقبـل الديـن وتقنعـه بالإقـلاع عـن المعـاصي. فناهيــك عــن كــون المــرء نفعيــاً، وذا منهــج، وأهــل تســابق - وهــو مــا ذكرنــاه في المحــاضرات الفائتـة - فـإن الخصوصيـة أو العامـل الرابـع الـضروري للاقتنـاع بالتديـن هـو أن يقتنـع المـرء بأنـه: أيُّ عـالم منَظَّـم ومـدروس هـذا العـالم الـذي يعيـش فيـه! عليـه أن يـدرك أن هـذا العـالم هـو عـالم فعـل وردة فعـل، وأن هنـاك ردة فعـل لـكل فعـل تفعلُـه. نعـم، إذا أخطـأت فثمـة فـوق رأسـك «ربٌّ يتـدارك أخطـاءك ويدعمـك». إن للعـالم نظامـاً صارمـاً في غايـة الاسـتحكام.. إن نظـام هـذا العـالم مهيـب حقّـاً، وهـو لا يتـلاءم وطباعنـا نحـن معـاشر البـشر! والنـاس في العـادة يغفلـون عـن هـذا النظـام، ويحاولـون تناسـيه سـعياً منهـم لمُجاراتـه. فالإنسـان يحـب أن يفعـل مـا يحلـو لـه دون أن يحكمـه نظـام مـا، حتـى أن اللـه تعـالى قـد خلـق الجنـة وأخبرنـا أنـك في الجنـة تفعـل مـا يطيـب لـك، فليـس هنـاك أيّ نظـام يحكمـك! «وَفِيهَـا مَـا تَشْـتَهِيهِ الْأَنْفُـسُ» (الزخـرف/٧١).

لا بد أن يفهم الأطفال أثناء العملية التربوية كيف أن النظام المسيطر على العالم يقهر الإنسان

هـذه الخصوصيـة الرابعـة هـي في الحقيقـة بمثابـة معرفـة تجـاه هـذا العـالم. إن علينـا أن نخـبر الأطفـال في عمليتنـا التربويـة كـم أن هـذا العـالم عـالم مُنظَّـم! وأنـه عـالم فعـل وردة فعـل، وأن الفـوضى التـي نخلقهـا فيـه إنمـا تنعكـس نتائجهـا علينـا نحـن وتُلحـق بنـا ضرراً. والإنسـان خاضـع لسـلطة هـذا النظـام المهيمـن عـلى العـالم. نعـم قـد يسـتطيع الإنسـان التغلـب عـلى قوانـين العـالم الصارمـة؛ كتغلبـه عـلى ظاهـرتي الـبرودة والحـرارة، لكـن ثمـة ظاهـرة مثـل «الزمـن» ليـس مـن ميسـور الإنسـان التفـوق عليهـا؛ فالزمـن يمـر بـكل قسـوة قاهـراً الإنسـان، قائـلاً لـه: «كـن مَـن تكـون، فقـد انتهـى زمنـك!»

الالتفات إلى مرور "الزمان" هو عنصر جوهري في تنشئة الجيل الشاب

يُعدّ الالتفات إلى «الزمان»، كأحد عناصر النظام المهيمن على العالم، النظام الذي يحيا الإنسان مقهوراً له - يُعدّ عنصراً جوهرياً وركيزة تربوية في تنشئة الجيل الشاب. فعن أمير المؤمنين(ع)، وهو معلم الأمة الإسلامية بعد رسول الله(ص) والذي يسعى لتعليم الجيل الشاب الدين، أنه يخاطب الشاب في الكتاب المرقم ٣١ من نهج البلاغة: «مِنَ اَلْوَالِدِ اَلْفَانِ اَلْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ»، والمُقِرّ لعُنف هذا الزمان، ولقاهريّته! «...اَلْمُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا» وللدهر! أي: إنني لم أستطع التسلط على هذا الدهر، بل هو الذي تسلط عليَّ؛ وما الدهر إلا هذا التقلب للأيام وهذه الطبيعة العصية على التغيُّر والتبدل! على الإنسان أن يدرك هذا النظام المسيطر على الحياة، ومن المسائل الهامة لإدراكه الالتفات إلى مُضي الزمان بلا هوادة؛ فلا بد للإنسان – على سبيل المثال – أن يقر «بالموت» كواقع يفرضه عليه تقلّب الأيام. لكن ألا ينخفض منسوب نشاطنا في الحياة إذا أدركنا هذا النظام المهيب وأقررنا به؟! بلى، سينخفض، لكن علينا أن نتزوّد بالنشاط من منبعه الحقيقي، لا أن نسعى وراء النشاط غافلين عن النظام الذي يسود العالم، قائلين مثلاً: «لا تفكر بالموت، وعش أيامك القلائل في الدنيا بسعادة!»

إن الإنسان ليطغى إذا لم يرَ نفسه مقهوراً لنظام العالم!

يقول تعالى في كتابه العزيز: «إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ» (العلق/٦)؛ أي: يا للناس! ما إن يروا أنفسهم مستغنين حتى يطغون! وهذه من أوائل الآيات التي نزلت على نبينا الكريم(ص)، فهي إذن تشير إلى مدى أهمية «طغيان الإنسان». ما هي الخطوة الأولى لتبديد حالة الاستغناء هذه التي تراود ابن آدم؟ إنها الطبيعة! فقبل أن تجعل هذا الإنسان يستسلم لله عز وجل اجعله يستسلم للطبيعة ولهذا النظام الذي يسود العالم. فلا بد للإنسان أن يلمس ضعفه تجاه الطبيعة ونظام العالم.. فهو إن لم يرَ نفسه خاضعاً لسلطة الكون ونظام العالم هذا فإنه سيطغى. حتى في المواطن التي يتغلب فيها الإنسان على الطبيعة فإنه - في الحقيقة - يجاري القوانين المهيمنة عليها، لا أنه يُبطل هذه القوانين! فعندما يتغلب – مثلاً - على الجاذبية الأرضية ويطير في السماء فإنه يستعين بقوانين الطبيعة ذاتها، وإلا فإن قانون الجاذبية يستحيل محوه!

إذا تأهّلتَ للعيش في هذه الدنيا تفتّحَت أبواب العالم الآخر أمام ناظريك!

إنـك إن شـاهَدتَ هـذا العـالم المنظّـم، وكنـتَ – مضافـاً إلى هـذا – «نفعيـاً، ومُمَنهجـاً، وأهـل تنافـس وتسـابق» فسـتكون أهـلاً للعيـش في هـذه الدنيـا، وسـتتفتح أبـواب العـالم الآخـر أمـام ناظريـك. فحينـما تكـون إنسـاناً قـد ذاق طعـم هـذه الحيـاة وصـار أهـلاً للعيـش في هـذا العـالم فستُكشـف أمامـك مشـاهد العـالم الآخـر وسـتكون حياتـك قـد شرعَـت للتـو! مـا الـذي يوجـد في العـالم الآخـر ذاك؟ إنـه عـالم خالـد.. خالـد إلى الأبـد! وقـد تحـدث اللـه عـز وجـل في كتابـه العزيـز عـن هـذا الموضـوع زهـاء الثمانـين مـرة. لكـن مـا فـرق ذلـك العـالم عـن هـذا؟ في هـذا العـالم كل شيء - تقريبـاً - مفـروض فرضـاً. ولا نريـد بالطبـع أن نسـلك مسـلك الجبريـة، فـإن للإنسـان اختياراتـه عـلى أيـة حـال، غـير أن اختياراتـه هـي ضمـن دائـرة مـا رسـمه اللـه لـه. أمـا في ذلـك العـالم فسـيكون كل شيء – مـن الصفـر حتـى المائـة - باختيـارك! في هـذا العـالم هـل أنـت الـذي قـرّرتَ مـن يكـون أبويـك؟! وهـل أنـت الـذي حـدّدتَ الموهبـة التـي تُعطاهـا؟ والصـورة التـي تُجعَـل عليهـا؟ وفي أي مسـتوى مـن المدينـة سـتعيش؟ ومَـن يكـون جيرانـك؟ وعندمـا تتـزوج فهـل أنـت حقـاً مَـن يختـار زوجـك؟ فأنـت في النهايـة تصطفـي خيـاراً مـن بـين بضـع خيـارات، لكـن مَـن الـذي وضـع هـذه الخيـارات القليلـة أمامـك؟ عـلى أن لدينـا بعـض الصلاحيـات، وبهـذه الصلاحيـات القليلـة التـي في حوزتنـا سـنعمل عـلى تنظيـم عالمنـا الآخـر إلى الأبـد.. إنـك سـتختار (في ذلـك العـالم) بيتـك لبنـة لبنـة، وتحـدد مسـاحته، وتختـار زوجـك، وتصطفـي جيرانـك، وكل شيء، وهـي أمـور سـتبقى ثابتـة لـك إلى الأبـد! ففـي هـذا العـالم أنـت في طـورِ اختيـارِ «حياتـك في العـالم الآخـر» وهـي حيـاة سـتبقى لـك إلى أبـد الآبديـن، فأنـت لـن تسـتطيع العـودة إلى هـذه الدنيـا لإعـادة بلـورة حياتـك هنـاك، كـما أنـه ليـس هنـاك مجـال للتغيـير!

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ١٥)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ٢٠/أيار/٢٠١٩ ـ ١٤/رمضان/١٤٤٠

المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)

الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

المرحلة الخامسة في بلورة شخصية الإنسان المتديّن هي "الإيمان بالآخرة"/ الذي يؤمن بالمعاد يصبح عالَمُه أوسع/ مآسي الإنسان كلها تنشأ من "صِغَر عالَمه"/ إذا كبُر عالَمُك ازدادتْ فداحة الذنب عندك، فالذنب عنوان الحقارة

من الخصائص التي تُرسي دعائم شخصيّة الإنسان المتديّن وتؤهّله لقبول الدين هو الإيمان بالمعاد، ولا بد لهذه الخصيصة أن تحل في معتقد الإنسان واهتمامه، بل وفي شخصيته أيضًا. وليس الإيمان بالمعاد والآخرة مقولة معرفية محضة، بل هي مقولة شخصية، وإن الذي يؤمن بالمعاد يصبح عالَمُه أوسع.

ينبغي لمَن يريد التديّن أن يُعِدّ شخصيّته على مراحل لتقبّل الدين

لا بد لعملية تكوُّن شخصية الإنسان من المرور بمراحل تعمل بشكل مُطّرد على تشكيل أجزاء شخصيته حتى يكتسب في نهاية المطاف شخصيته المطلوبة. إن من الواجب على كل من يسعى لإيجاد تغيير في نفسه، وبلوغ مستوى من التكامل، واكتساب روح سامية أن يُقنع نفسَه ويتمرّن، في شتى المجالات، مرحلةً مرحلةً حتى يتكامل. وهذا في العادة لا يمكن أن يحصل بين ليلة وضحاها. لا بد، فيما يتصل بتهذيب إنسانٍ ما، من اجتياز مراحل للوصول إلى المنزلة والحالة المطلوبة. والشيء ذاته ينطبق على طالب التديّن؛ فالذين يرومون بناء ذواتهم، أو تهذيب إنسانٍ ما ينبغي لهم، على وجه الخصوص، أن يضعوا هذه الحالة المُحبَّذة نُصبَ أعينهم، ويجزّئوها أجزاءً، ثم يعملوا بالتسلسل على جعل هذه الأجزاء قابلة للتصديق بالنسبة لهم، والتمرُّن عليها، وتسهيلها لأنفسهم جزءًا جزءًا. وحينئذ سترى أن هذا الإنسان عمومًا قد قطع مراحل وحَلَّ لنفسه كل مُشكِل. هذه الحال ذاتها تنطبق على الكثير من الألعاب الرياضية؛ فإن أرادوا تعليم شخصٍ السباحةَ علّموه إيّاها مرحلةً مرحلة. وإن أحبّوا تدريب شخص على الجمباز فسوف لا يطلبون منه منذ اليوم الأول تنفيذ عشر قلبات هوائية! إذ قد تُكسر يده أو رجله في اليوم الأول من التدريب. لذا يقال له أولًا: «حاليًّا سِرْ على البساط». ثم: «الآن ارفع قدميك أكثر قليلًا». ثم: «اقفز»... أي إنهم يُعِدّونه تدريجيًّا لأداء القَلبة الهوائية.

تكوين شخصية الإنسان وتغييرها يحصل بالتدريج

حينما يكون بإمكاننا أن نتصوّر تجزئة الأمور إلى مراحل بالنسبة لجسم الإنسان فإن الأمر ذاته ينطبق على روحه. أقول هذا بالطبع من باب التشبيه وليس الاستدلال. حتى أولئك الذين تدهورتْ شخصياتهم إنما وصلوا إلى هذا المستوى بالتدريج؛ أي إنهم اقتنعوا بهذا الوضع بالتدريج، ونسوا الحقائق المهمة بالتدريج، وسهُلَ عليهم ممارسة الموبقات بالتدريج، بل لربما كان الأمر صعبًا عليهم في البداية. نعم، من الممكن أحيانًا أن يتنبّه الإنسان فجأة في غضون لحظات ويطرأ عليه تغييرٌ ما، لكن في وسعنا - إذا تغاضينا عن الحالات الشاذة الخاضعة هي الأخرى للنقاش - أن نقول عمومًا: إن التدرّج ضروري لتكوين شخصية إنسان، أو تغييرها، أو بلورة شخصية دينية.

مراحل إرساء دعائم شخصية المتدين

لقد استعرضنا في الحلقات السابقة أربع خطوات أو مراحل للاقتناع بالتدين والإقلاع عن الذنوب؛ بدءًا من النفعية، وتقبّل مَنهَجَة الحياة، وصولًا إلى كون المرء ميّالًا للتسابق مع الآخرين ومشاهدته لجَبْر المحيط وألوان الجَبْر الموجودة في حياة الإنسان. هذه هي مراحل إرساء دعائم شخصية المتدين، فإن قامتْ هذه الدعائم لَبِنة لَبِنة يصبح المرء مُعَدًّا لتقبّل الدين. على الإنسان أن يقتنع تمامًا بكل واحدة من المراحل والخصائص الآنفة الذكر، ويتمرّن عليها، ويعيشها مُدة من الزمن، ويشتغل على نفسه. فليس باستطاعة الإنسان أن ينقلب متديّنًا دفعة واحدة دون قطع هذه المراحل. وإن شاهدنا أن شخصًا ما غير متدين فعلينا العمل عليه بشكل تدريجي، وإن أفضل برهة لتربية الإنسان هي سنوات الطفولة حتى آخر مرحلة الدراسة الابتدائية؛ فلا بد من تطبيق هذه المراحل خطوة خطوة على الأطفال في السنوات الأربع عشرة الأولى من أعمارهم. حتى الألعاب التي يمارسها الأطفال في المنزل والروضة ينبغي أن تكون مدروسة بدقة ليكون لها أثر في بلورة الشخصية الإنسانية الراقية في الأطفال.

المرحلة الرابعة: لا بد أن يطّلع الإنسان على قيود هذا العالم ويقْبَل بها

المرحلة الرابعة التي ذكرناها تميل أكثر إلى البُعد المعرفي؛ أي ضرورة معرفة الإنسان كم أنّ هذا العالم باعث على التقييد. وهناك كلام كثير في هذا الباب. نعم قد يكون مُرًّا أيضًا، لكن على الإنسان أن يتقبّل هذه القيود. إنه لَمن الخيانة أن لا نخبر مراهقينا أن الدنيا مليئة بالقيود، وبالفشل، وبسوء التفاهم، وبالتعثّر! فإن لم نُعَلّم مراهقينا وشُبّاننا على هذا نكون قد خُنّاهم. على الناس أن يُصدّقوا ويَقبَلوا بأن المرارات والإخفاقات في هذه الدنيا كثيرة جدًّا ويتعيّن أن يستعدّوا لذلك ويتوقّعوه. بالطبع هذا يختلف كثيرًا عن سوء الظن بالدنيا والنظر إليها بسلبية وسوداوية، لكن في النهاية لا ينبغي تنشئة الأطفال والمراهقين على الأوهام، بل ولا يجوز أن نبقى نحن واهمين!

نحن في العادة مصابون بمرض اسمه "نسيان الموت"

للأسف نحن في العادة مصابون بمرض خاص هو، في واقع الأمر، ضَرب من الذُهان وإن على كل مصاب به أن يراجع الطبيب؛ لأنه مرض يذهب بالعقل، وهو مصدر فساد الروح. إنه يسلُب صاحبه القدرة على التفكير السليم ويدفعه للتفكير غير المنطقي. إنه يُعمي قوة نُطق الإنسان، ويُحِلّ البُغض والعداء محل الحب والصداقة. إنه مرض مُهلك، إنه مرض «نسيان الموت»! لماذا ندعو هذا «مرضًا»؟ لأنّ أعظم حِسّ لدينا هو «حِسّ طلب الخلود» وإن الغافل عن هذا الحس لديه هو، في الواقع، مريض لا يعيش حالته الطبيعية. أوَيُمكن أن تنسى أهم إحساس لديك؟ ما الذي صنعته بنفسك يا ترى؟! أيُّ بليّة أنزَلتَ بنفسك؟! طبعًا ثمة لهذا المرض مستشفى أو مستوصف يمكنك مراجعته للعلاج منه. أين يوجد هذا المستوصف؟ هناك مقبرة تُدعى «جنة الزهراء(س)» هي مستوصف لعلاج مرض «نسيان الموت»! باستطاعة الإنسان التوجه إليها ليتذكّر الموت ويحدّث نفسَه أن: «أجَل، إنني سأرقد هنا يومًا ما...».

مـن علامـات مـرض نسـيان المـوت هـي اعتقـاد المـرء بأنـه مـا زال أمامـه وقـت طويـل جـدًّا قبـل أن يمـوت! فقـد يكـون أمامـه، مثـلًا، عـشرون عامًـا فقـط ليمـوت لكنـه يحسـب أنـه لا يمـوت حتـى بعـد ألـف عـام! والمصـاب بهـذا المـرض يكـون في العـادة إنسـانًا عديـم الاتـزان. شـخصٌ كهـذا لا يعـود يمتلـك مـن العقـل الكثـير، ولـذا يُسـتبعَد أن يقـدر عـلى اتخـاذ قـرارات سـليمة في أيّ مجـال. بـل إن اللـه تعـالى، ناهيـك عـن المـوت، يُذكّرنـا بـكل صراحـة بمرحلـة الشـيخوخة أيضًـا قائـلًا: «وَمَـنْ نُعَمِّـرْهُ نُنَكِّسْـهُ فِي الْخَلْـقِ أَفَـلا يَعْقِلُـونَ» (يـس/٦٨)؛ أي: إن الـذي نُطيـل في عمـره سـنُضعِف بدنَـه ونُبْليـه. وهـذا شيء يسـتطيع كل امـرئ أن يـراه في الطريـق وفي كل مـكان بـأم عينيـه ويُذكّـر بـه نفسَـه. فعندمـا تشـاهد مُسـنًّا فاعلـم أن هـذه هـي نهايتـك في هـذه الدنيـا!

الذي يقبل بقيود الحياة وصعوباتها يصبح ذا شخصية مختلفة

المرحلـة الرابعـة إذًا هـي تقبّـل صعوبـات الحيـاة. فـإن حصل هـذا التقبّل تسرّبَ إلى شـخصيتك وسـتتولّد لديـك حينئـذ شـخصية مختلفـة. بالطبـع معرفتُـك بـأنّ «الدنيـا مليئـة بالمصاعـب والمقيّدات» هـي مجرد معلومـة لا صلـة لهـا بشـخصيتك. أمـا أن تقبَـل بهـذه الحقيقـة وتكـون متأهّبًـا للتعاطـي مـع الصعـاب تعاطيًـا سـليمًا؛ فـلا تقـع في شـباكها، ولا تهـرب منهـا، ولا تُنكرهـا، ولا تنسـاها، فـإن هـذا سـيصبح جـزءًا مـن شـخصيتك وسـيُضفي عليهـا ميـزات جيـدة. مـن الطبيعـي أن تكـون قيـود الحيـاة الدنيـا إذا واجَهتَها مُـرّة بعـض الـشيء! لا بـأس، اصبِرْ، فثمـة لحظـةُ خـلاص وفـرَج! لمـاذا تحـاول أن تكون سـعيدًا عـن طريق نسـيان هـذه القيـود؟! اِقبَـل بهـذه القيـود المعقولـة، ثـم انطلـق نحـو مسـاحات الحريـة المتوفّـرة! لمـاذا تريـد أن تقيّـد نفسـك بسـلوك خاطـئ يمنحك فرحـة تافهة؟! كلا، عليـك أن تتصرف بـكل عقلانية وبمنهجَة في تعاملـك مـع قيـود الحيـاة الدنيـا. لا تظـن أن الـذي يُمَنهِـج حياتَـه ويبرمجهـا لا يصيـب مـن اللـذة إلا القليـل، فليـس أن صاحـب المنهـاج في الحيـاة لا تتراجـع لذتـه فحسـب، بـل وتـزداد أيضًـا. فـما مـن بـين الخصائـص أو المراحـل الأربـع التـي مـر ذكرهـا مـا يجعـل حيـاة الإنسـان تعيسـة، هـذا وإن تصـوّر البعض أن كل واحـدة منهـا تخلـق لنـا قيـودًا. فهـي إنْ نُفّـذتْ بشـكل جيـد وصحيـح فسـتكون ممتعـة للغايـة.

الخصيصة الخامسة للاقتناع بالتدين هي الإيمان بالمعاد والآخرة/ الذي يؤمن بالمعاد يصبح عالَمه أوسع

الخصيصة الخامسة التي على الإنسان الاتصاف بها للاقتناع بالتدين وترك المعصية هي الإيمان بالمعاد والآخرة. ويجب أن تَحُلّ هذه الخصيصة في اهتماماته، وفي معرفته، وفي معتقده، بل وحتى في شخصيته. وما الإيمان بالمعاد والآخرة بمقولة معرفية محضة، بل هي مقولة ترتبط بالشخصية. فالإنسان المؤمن بالمعاد يصبح عالَمه أوسع. نحن الآن في صدد فتح باب جديد في بحثنا الحالي وهو «الالتفات إلى حياة الآخرة». فنحن معاشر البشر لا يمكن أن نقتنع بأننا غير خالدين! فالاعتقاد بالخلود متأصّل في فطرتنا.

أعمق حاجات الإنسان طلب الخلود

أعمق حاجة عند الإنسان، والتي هي أنشط من عبادة الله، طلبُ الخلود؛ وهي قوله: «لا أريد أن أموت، لا أوّد أن أفنى!» وإنّ نزعة طلب الخلود هي في الإنسان أقوى من عبادة الله تعالى. وانخداع نبي الله آدم(ع) كان لهذا السبب؛ إذ قد نسيَ اللهَ عز وجل لِلَحظة فأخذه طلبُ الخلود: «قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى» (طه/١٢٠). إننا جميعًا نجتهد في نسيان الموت، في حين أنه تحفيز مهم لنزعة طلب الخلود في الإنسان. لا يمكن للإنسان أن يقتنع بأنه غير خالد، وأنه سيفنى يومًا ما! ومهما لقّنتَه بهذه الفكرة فإنه سيرفضها في النهاية. بل ما من حاجة إلى مجيء نبيّ ليثبت للإنسان «وجود المعاد» فيقول الأخير: «ما أروعه من خبر! أحقًّا ما تقول؟!» كلا، فالمعاد ماثِل في فكر الإنسان، وإن الأخير - من تلقاء نفسه - رافض لفكرة موته، وجُلّ استنكاره للموت هو قوله: «إذًا ما الداعي لمرحلة الموت هذه؟!» والله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم لم يتعرّض تقريبًا لإثبات المعاد، إذ لا حاجة إليه، بل وصفَه وصفًا.

في عالم الآخرة لا وجود لقيود الدنيا/ لو نظرتَ إلى الآخرة ببصر قلبك لسقطتْ لذائذ الدنيا من عينك

كيف يكون عالَم الآخرة؟ إنه عالم غاية في السِعَة وقمة في الروعة! هناك ليس ثمة أية قيود من التي يعيشها الإنسان في الدنيا! في الحياة الآخرة لا يشيخ إنسان! وهو هناك لا يُكلَّف بشيء، ولا يُقيَّد بحدود (بالطبع أهل العذاب لهم حكم آخر). يروى عن أمير المؤمنين(ع) أنه قال في الآخرة: «فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا [الآخرة] لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا» (نهج البلاغة/ الخطبة ١٦٥). ثم يسترسل(ع) في خطبته واصفًا كيفية تشابك أفنانِ أشجارِ الجنة مع بعضها البعض، وزَهرها، والأنهار الجارية تحت الأقدام، ...الخ قائلًا (ما مضمونه): «ارمِ ببصر قلبك نحو ذلك المكان لتعلم ما فيه! فلو نظرت إلى الآخرة بهذه الطريقة لعزفتْ نفسُك عن الدنيا، ولما استهوتك شهواتُها ولذائذها. في الحقيقة إنها ستسقط من عينك! الحق أن للإنسان هذه القابلية، وهي أن يتصوّر الآخرة بقوة خياله. فقوة الخيال في الإنسان عظيمة جدًّا، وليست هي للفنون فحسب! فهو إن لم يوظّف قوة خياله لتعطّلتْ ربع آيات الذكر الحكيم. فبقوة الخيال هذه تحديدًا يتعيّن تمثُّل الجنة والنار، إذ ليس ثمة ما يشبههما في الدنيا. فالقرآن يصف ألوان عذاب الآخرة وثواب الجنة ونعماءها بشتى الطرق.

النزوع إلى الخلود يجرّ الإنسان نحو التفكير في الآخرة/ جميع مآسي الإنسان تنشأ من "ضَآلة عالَمه"!

النزوع إلى الخلود يجُرّ الإنسان نحو التفكير في الآخرة، ذلك العالم الذي لا يتسنّى – في الحقيقة – وصفه. فإن تمثَّل الإنسانُ الآخرةَ كبُر هو؛ بمعنى أن الإنسان يَعظُم إذا آمن بالمعاد، وهذا تحديدًا هو الأثر الذي يتركه الإيمان بالمعاد وعدم إنكاره على شخصية الإنسان. إنّ مآسي الإنسان جميعًا تنشأ من «ضآلة عالمه»، كما أنّ مسراته كلها تنبع من «ضخامة عالمه». فعندما يؤمن الإنسان بعالم الآخرة العظيم ذاك يَعظُم هو الآخر، وحينما يعْظُم يغدو «نبيلًا»! فإن صار المرء نبيلًا غابت عنه السيئات. فالإنسان إذا ساء وفسد اتّضح أن عالَمَه صغير، وهو إن وَسَّع عالَمَه فسيصلُحُ هو دفعة واحدة.

علينـا أن نبـدأ مـع أطفالنـا منـذ سـن الروضـة والتعليـم الابتـدائي فنوسّـع عالمَهـم. لقـد خَطـا علـماء النفـس خطـوات إلى الأمـام فيـما يتصـل بفهـم الطفـل للمـوت والآخـرة فقالـوا: الطفـل إلى الخامسـة أو السادسـة لا يتقبّـل المـوت كثـيرًا. فـإن قلـتَ لـه مثـلًا: «فـلان فـارق الدنيـا» يتصـوّر أنـه ذهـب إلى مـكان مـا وسـيعود! لكنـه بعـد السادسـة أو السـابعة سـيدرك أن هـذا الذهـاب سـوف لا تعقُبـه عـودة إلى هذا العـالم. حينـذاك سـيتحوّل طلـب الخلـود لديـه إلى قضيـة مُلِحّـة! مـن هنـا علينـا أن نوضـح لـه الأمـور بدقـة ونحدّثـه عـن عـالم آخـر، وهـو سـيفهم ويتقبـل كلامنـا لأنـه لا يمكـن أن يقتنـع بفنـاء الإنسـان.

على طالب التديّن أن يصبح أوّلاً إنسانًا عظيمًا/ من المستحيل أن يصير المرء عظيمًا دون التفاته إلى الآخرة

يجـب أن نلتفـت إلى «عـالم الآخـرة الواسـع» أتـم الالتفـات وأن نضـع لهـذا الأمـر منهاجًـا لـكي نتكامـل. ومـن أفضـل المناهـج التربويـة في هـذا المضـمار آيـات القـرآن الكريـم. انظـر مـاذا يصنـع القـرآن الكريم؟ إنـه يأخـذ الإنسـان إلى عـالم القيامـة ويُرجِعـه منـه عـلى نحـو موصـول، وكأن قضيـة اللـه المُلحّـة أساسًـا هـي القيامـة، فكأنـه يقـول لـك: «إن أحببـت أن تخالطنـي فلقـد خلقـتُ لـك عالَـمًا أوسـع أسـمَيتُه عالَـم الآخـرة، ولـذا سـأحدثك عنـه بكـثرة، فـلا تُطِـل الـكلام معـي عـن الدنيـا!» فحينـما تُجالـس العظماء يتحتـم عليـك أن تتحـاور كالعظـماء! السـبب في أن اللـه دائمًـا مـا يطيـل الوقـوف عـلى موضـوع الآخـرة هـو أنـه تبـارك وتعـالى يحـرص عـلى شـخصية الإنسـان. مـن هنـا فـإن المُكـثِر مـن قـراءة القـرآن الكريـم تَعظُـم شـخصيتُه، وتَـرِقّ روحُـه كل رقـة، وتحصـل لـه أمـور في منتهـى الجـودة والروعـة. الاهتـمام بعـالم الآخـرة يجعـل الإنسـان عظيـمًا حقًّـا. ومَـن أراد التديـن يجـب عليـه أوّلًا أن يصبـح عظيـمًا، وإنّ العظَمـة دون عـالم الآخـرة مسـتحيلة تمامًـا. البعـض يتّخـذ هيئـة العظـماء مـع أنـه، في واقع الأمـر، وضيـع يتظاهر بالعظمـة! فالعظـماء لا يصبحـون عظـماء إلا بالإيمـان بالمعـاد، والاعتقـاد بعالَـم الآخـرة، والتعمـق فيـه.

علينـا أن نبـدأ مـع أطفالنـا منـذ سـن الروضـة والتعليـم الابتـدائي فنوسّـع عالمَهـم. لقـد خَطـا علـماء النفـس خطـوات إلى الأمـام فيـما يتصـل بفهـم الطفـل للمـوت والآخـرة فقالـوا: الطفـل إلى الخامسـة أو السادسـة لا يتقبّـل المـوت كثـيرًا. فـإن قلـتَ لـه مثـلًا: «فـلان فـارق الدنيـا» يتصـوّر أنـه ذهـب إلى مـكان مـا وسـيعود! لكنـه بعـد السادسـة أو السـابعة سـيدرك أن هـذا الذهـاب سـوف لا تعقُبـه عـودة إلى هـذا العـالم. حينـذاك سـيتحوّل طلـب الخلـود لديـه إلى قضيـة مُلِحّـة! مـن هنـا علينـا أن نوضـح لـه الأمـور بدقـة ونحدّثـه عـن عـالم آخـر، وهـو سـيفهم ويتقبـل كلامنـا لأنـه لا يمكـن أن يقتنـع بفنـاء الإنسـان.

على طالب التديّن أن يصبح أوّلاً إنسانًا عظيمًا/ من المستحيل أن يصير المرء عظيمًا دون التفاته إلى الآخرة

يجـب أن نلتفـت إلى «عـالم الآخـرة الواسـع» أتـم الالتفـات وأن نضـع لهـذا الأمـر منهاجًـا لـكي نتكامـل. ومـن أفضـل المناهـج التربويـة في هـذا المضـمار آيـات القـرآن الكريـم. انظـر مـاذا يصنـع القـرآن الكريم؟ إنـه يأخـذ الإنسـان إلى عـالم القيامـة ويُرجِعـه منـه عـلى نحـو موصـول، وكأن قضيـة اللـه المُلحّـة أساسًـا هـي القيامـة، فكأنـه يقـول لـك: «إن أحببـت أن تخالطنـي فلقـد خلقـتُ لـك عالَـمًا أوسـع أسـمَيتُه عالَـم الآخـرة، ولـذا سـأحدثك عنـه بكـثرة، فـلا تُطِـل الـكلام معـي عـن الدنيـا!» فحينـما تُجالـس العظماء يتحتـم عليـك أن تتحـاور كالعظـماء! السـبب في أن اللـه دائمًـا مـا يطيـل الوقـوف عـلى موضـوع الآخـرة هـو أنـه تبـارك وتعـالى يحـرص عـلى شـخصية الإنسـان. مـن هنـا فـإن المُكـثِر مـن قـراءة القـرآن الكريـم تَعظُـم شـخصيتُه، وتَـرِقّ روحُـه كل رقـة، وتحصـل لـه أمـور في منتهـى الجـودة والروعـة. الاهتـمام بعـالم الآخـرة يجعـل الإنسـان عظيـمًا حقًّـا. ومَـن أراد التديـن يجـب عليـه أوّلًا أن يصبـح عظيـمًا، وإنّ العظَمـة دون عـالم الآخـرة مسـتحيلة تمامًـا. البعـض يتّخـذ هيئـة العظـماء مـع أنـه، في واقـع الأمـر، وضيـع يتظاهـر بالعظمـة! فالعظـماء لا يصبحـون عظـماء إلا بالإيمـان بالمعـاد، والاعتقـاد بعالَـم الآخـرة، والتعمـق فيـه.

إذا كَبُر عالمُك ازدادت فداحة الذنب عندك/ الذنب عنوان الحقارة والصِغَر

حين يكبُر عالَم المرء تزداد شيئًا فشيئًا فداحة ظاهرة ما عنده، وهي «المعصية». فعندما يكون الثوب نظيفًا للغاية تظهر فيه بقعة القذارة بوضوح مهما صغُرتْ. وحين يكبُر عالَم الإنسان يبدو للأخير قُبح الخطيئة بوضوح؛ ذلك أن الذنب علامة الحقارة والصِغَر. ولذا يشعر المرء بالعار منه إلى درجة أنه يود لو يبيد بسبب ذنب واحد! ومن هنا قالوا: لا توبّخ العاصي، إذ لربما تاب من معصيته، فإنك ستحطّمه كلما وبّختَه بسببها! دعه يبقى كبيرًا! بل لا توبّخه حتى إن لم يكن نبيلًا، ولم يتُب من خطيئته؛ لا تجعله أحقَر وأحقَر! فالذنب عنوان الحقارة والصِغَر. الذنب تارة يعني «الخسارة»، وأخرى يعني «العمل خلافًا للمنهاج»، وثالثة يعني «رفض ما يوجَد في هذا العالم من قيود وأوامر معقولة». فما معناه يا ترى في هذه المرحلة من بحثنا (الذي يدور حول المعاد والآخرة)؟ إنه هنا يعني «التضاؤل».

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ١٦)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ٢١/أيار/٢٠١٩ ـ ١٥/رمضان/١٤٤٠

المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)

الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

مقيّدات الدنيا تقودنا نحو "نقطة خلاص"/ يطلب الإنسان "الراحة المطلقة"، إذاً لا بد من موضع تُلبّى له فيه هذه الحاجة!/ نقطة خلاص الإنسان من المقيّدات تكون في "الآخرة" لا في الدنيا!

إن إحدى دعائم المعنويات وتقبّل الدين والاقتناع بترك المعصية هي أن نرى عالم الآخرة ونشتاق إليه. أتدري متى يصبح الذنب للإنسان مُرّاً؟ عندما يُفرحُه التفكير "بعالَم الآخرة الحُلو"! حينذاك ستتألم أنت كثيراً إذا أذنبت وتخاطب ربك: "إلهي، نَجّني من ذنبي هذا، إنني أتألم...".

طبيعة قيود الدنيا هي أنها تقودنا إلى "نقطة خلاص"

موضوع بحثنا إلى هذه اللحظة ارتبط أكثر ما ارتبط «بممهدات التديّن» وما زال غير ديني. الكثير من الممهدات الضرورية للتدين (والتي أحصينا خمسة نماذج منها) تدل، كل واحدة بحسبها، على قيود. على سبيل المثال الدنيا والبيئة المحيطة بنا مليئة بالآلام والمآسي التي لا تتيح للإنسان نيل ما يحب بسهولة. وإنْ ركّزنا في هذه القيود نجد وكأنها قد أحاطتنا من جهات بسياج وهي تسوقنا إلى جهة معينة؛ جهة تمثّل نقطة خلاص حيث لا تعود ثمة قيود. لا يحاصر اللهُ عزّ وجل الإنسانَ بقيود جمة بحيث يرى الإنسان نفسَه حبيسَ دائرة موصَدة لا مجال أمامه للفرار والخلاص والتكامل. فالله تعالى يحُدّ مواضع خاصة ثم يفتح باباً، وهذ الباب إذا انفتح أمام الإنسان نظر الأخير إليه على أنه نقطة خلاص ومجال للتحليق. تفرض علينا الدنيا مشاقَّ كثيرة ولطالما قدّم القرآن الكريم لنا توضيحاً حول هذه المشاق. لكنه ثمة إلى جوار كل هذه المقيدات نقطة خلاص في وسع خيالنا التركيز عليها، وهذا يذكّرنا بما روي عن أمير المؤمنين(ع) من ضرورة أن تنظر إلى عالم الآخرة وإلى مكامن جماله وعظمته ببصر قلبك: «فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا [الآخرة]...» (نهج البلاغة/ الخطبة ١٦٥).

إننا حقّاً لا نملك نقطة خلاص من القيود في الدنيا!

يحاول الكثيرون أن يخلقوا لأنفسهم وللآخرين في عالم الدنيا وهماً ساذجاً، أو في الحقيقة «وهمَ خلاص»؛ فيُظهرون في بعض الأفلام، على سبيل المثال، أن بطل الفيلم قد بلغ في نهاية المطاف مُناه وانحلّتْ معضلاته جميعاً، فينفَضّ جميع المشاهدين عند نهاية الفيلم مسرورين! في حين أننا حقّاً لا نملك في الدنيا نقطة خلاص. الموضع الوحيد الذي يسعنا - في المرحلة الأولى - التفكير فيه كمنفذ للخلاص هو وجود رب العالمين ولقائه هو نفسه، أما في عالم الدنيا فمهما نظرنا من حولنا نجد الصراعات والمشاق، وهي مشاق لا ينبغي لنا إنكارها، بل علينا القبول بوجودها، وإلا أصابنا التعب والاكتئاب. ويجب أن نقارع هذه الصعاب، فإننا إن قارعناها قوينا، وإن لم نقارعها ضعفنا أكثر. كما يتعين علينا الاجتهاد في إزالة هذه الصعاب، لكن ليكن في علمنا أيضاً منذ البداية أننا سنفلح في إزالة بعض هذه المصاعب والقيود وحسب، لا كلها. ألا يوجد أمام هذا الإنسان، وهو طالبُ خلاص، مجالٌ للخلاص مع كل هذه القيود؟ أيتوجَّب عليه القعود هكذا متخبّطاً في أخيلته الساذجة دائمَ الغوص في أوهامه؟ كأن يتوهّم أنه: «يا ليت لدينا مصباحاً سحريّاً يخرج منه مارد يقوم على خدمتنا ويحل مشاكلنا!»

نقطة خلاص الإنسان من المقيدات تكون في "الآخرة" لا في الدنيا!

عندما نقول: «ليس للإنسان في الحياة الدنيا منفذ للخلاص، ولا محلٌّ للخيالات غير الواهمة، ولا مرتع ينال فيه ما يصبو إليه فؤاده» فمن الطبيعي أن يكون إذعان الإنسان لهذا الواقع مثارَ أسىً كبير. ومن ناحية أخرى، إنْ كان ثمة له نقطة خلاص كهذه حقّاً فإنها - ومن دون مجاملة - تكون في الآخرة! فعالَمُ الآخرة عالَمٌ يُطلَق فيه سراح الإنسان ويتحقق له فيه ما يتمنّى: «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ» (الزخرف/٧١). فالإنسان الطالب للخلاص والواهم يفتش عن حياة مثالية منزوعة الآلام محفوفة باللذات المتميّزة والنجاحات المتوالية الممتعة (لا النجاحات المملة)! لكنّ مأساة الدنيا هي أنه ما من نجاح تحقّقُه أو لذة تجنيها فيها إلا ويتلوه إحباط وألم. وماذا عن عالم الآخرة؟ هناك ينال الإنسان حقّاً كل ما يشتهي ثم لا يُحبَط بعد ذلك.

ما دام الإنسان يطلب "الراحة المطلقة" فلا بد من موضع تُلبَّى له فيه هذه الحاجة!

يقول الإمام الخميني(ره): «من فِطَر الله التي فطَرَ عليها الأُسرة البشرية قاطبة وسلالات الناس كافة هي فطرة حب الراحة» (شرح جهل حديث «شرح الأربعين حديثاً»/ ص١٨٦). فحب الراحة صفة فطرية في الإنسان لم يتعلمها من أحد، ولا يتخلّى عنها بسهولة أيضاً. ثم يقول(ره): «ولمّا كان العثور على محبوب بني البشر هذا (الراحة المطلقة) في هذا العالم متعذّر إذاً لا بد – في دار التحقق وعالم الوجود – من عالَم لا تكون فيه الراحة مشوبة بالآلام والمتاعب» (المصدر نفسه)؛ أي: بما إن الإنسان طالب للراحة المطلقة فلا بد من وجود موضعٍ يلبّي حاجة الإنسان هذه! طريقة استدلال الإمام الراحل(ره) هي التالي: «أيها الإنسان، ما دمتَ تهوى شيئاً فهناك مكانٌ ما يُلبّي لك هذه الطلب!» وهنا يسوق الإمام(ره) للمعاد برهاناً فطرياً فيقول: بما أنني طالب للراحة المطلقة فلا بد من وجود ما يلبّي طلبي هذا. فالشخص الذي يدّعي عدم وجود ما يشبع طلبه للراحة المطلقة يكون حزيناً كئيباً، أما الذي يقول بوجود ما يلبّيه فيكون إنساناً مؤمّلاً، إيجابياً، ثاقبَ البصر، متقدّماً، في طور الازدهار. كم يشقى الإنسان عندما يكذب على نفسه ويُنكر ذاته! والإنسان الكافر أيضاً ينكر في البداية ذاته. كم هو جميل أن نتكلم عن المعاد «بأدبيات إنسانية»! فحينما أراد الإمام الراحل(ره) هنا سوقَ دليل على المعاد لم يقل: بما أن القرآن يقول بوجود الآخرة، فهي موجودة حتماً! بل قال: الإنسان طالب للراحة المطلقة ومن المستحيل أن لا يوجد ما يلبّي طلبه هذا!

المعاد قضية إنسانية وليس قضية دينية بحتة!

المعاد قضية إنسانية وليس قضية دينية بحتة! مثلما أن «الموت» ليس مقولة دينية؛ بمعنى أن الموت يحل بالناس حتى لو لم يكن ثمة دين! كما أن الرأفة وعدم الظلم قضيتان إنسانيتان. فالظلم قبيح حتى من دون الدين، وهذا أمر يدركه الناس جميعاً. اللطيف هو أننا جميعاً نحمل في المعاد رأياً إيجابياً، إذ لا يسعنا تخيُّل أن الإنسان يفنى. فإنني، كإنسان، أريد عالم الآخرة. إذاً هي قضية إنسانية، يدل عليها العقل أيضاً، بل وتدل عليها كذلك فطرة الإنسان وانجذابه الروحي.

يقول صدر المتألّهين في كتاب «الأسفار»: «فكونُ النفوس [أرواح البشر] مجبولةً على طلب البقاء ومحبّة الدوام دليلٌ على أنّ لها وجوداً أُخرويّاً باقياً أبدَ الدهر وذلك لأنّ بقاءها في هذه النشأة الطبيعية أمرٌ مستحيل!» (الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة/ ج٩/ ص٢٤١). فكون الناس لا يريدون الفناء ويحبون أن يبقوا إلى الأبد هو دليل على أننا لا نفنى وأنه ثمة عالَم آخر سنُخَلَّد فيه! وهذا دليل فلسفي لا ديني! ثم يتابع: «...لأن بقاءها في هذه النشأة الطبيعية أمر مستحيل. فلو لم يكن لها نشأة أُخرى باقية تنتقل إليها لكان ما ارتكزَ في النفس وأُودِع في جبلتها من محبة البقاء السرمدي والحياة الأبدية باطلاً ضائعاً» (المصدر نفسه). كما أن بعض الكفار يحملون الفَهْم ذاته فيقولون للشخص: «لا ينبغي أن تكون طالبَ خلود! لماذا تطلب الخلود؟! اقبَل بحقيقة أنك تموت وتفنى!» أي إنهم يحاولون فرض هذه الفكرة على الإنسان غير أنه لا يقنع بهذا!

يجب أن نؤمن بالمعاد قبل قبول الدين/ كيف ينبغي أن يكون تصوّرنا عن عالم الآخرة؟

إننا بحاجة إلى أن نتصوّر عالم الآخرة عالَماً جميلاً، حُرّاً، خالداً، لا نهاية له. ثم بعد هذا التصوّر، وحين نبدأ بحب عالم الآخرة، ندخل دائرة التدين، ليطرحوا علينا في الدين مسألة الحساب في الآخرة فنقول: «يا ليت حسابَ الآخرة لم يكن، إذ كنا سندخل تلك الحياة اللامتناهية بكل سهولة! فلولا هذا الحساب لكان عالم الآخرة غاية في الروعة». أي لا ينبغي أن تتخلّى عن حلاوة عالَم الآخرة وروعته، بل أن تضعها نُصب عينك وتقول: «فماذا أصنع بصعوبات الموت ومشاق حساب الآخرة؟» هكذا يجب أن يكون شعور المرء، لا بد أن يشتاق إلى عالم الآخرة، لا أن يخاف الذهاب إليه تماماً! للقبول بالدين علينا أولاً أن نؤمن بالمعاد، بل أن نؤمن به على اعتباره مقولة إنسانية. فالبعض يتصور «المعادَ قضية دينية محضة وأنه من أطروحات علماء الدين!» فيتخذ وِضْعَةً خاصة قائلاً: «لا أريد أن أعيش متديناً!» حسنٌ، ماذا تريد أن تصنع بنفسك إذاً؟ إذاً متى ستبتغي النشاط والحيوية؟

اسأل أي شخص: أيهما يُفرِحك أكثر أن «تفنى بعد الموت» أم أن «تبقى بعده»؟ من الطبيعي أنه سيجيبك: بقائي بعد الموت يفرحني أكثر. إذاً هذا الأمر يمنح الإنسان حيوية. عرَض التلفزيون قبل مدة فيلماً وثائقياً من إنتاج غربي عن «تجربة الموت» يتحدث فيه أشخاص عن تجربةِ موتٍ عاشوها بأنفسهم ثم عادوا إلى الدنيا (على أن الإيرانيين أضافوا إليه مقاطع يتحدث فيها إيرانيون عن تجارب مشابهة حصلت معهم). القاسم المشترك عند أغلب هؤلاء لوصف اللحظات الأولى للموت هو أنه ضَربٌ من التحرُّر، الانفتاح، النورانية، الارتفاع إلى الأعلى. لا أريد القول بأنهم كانوا أشخاصاً صالحين أو سيئين، لكن الواحد منهم كان يقول: «لقد صعدتُ إلى الأعلى، لقد تحرّرت، حصلتْ حالةٌ من الخلاص!» أي إنهم تحدّثوا عن ذلك العالَم بتعابير إيجابية جميلة.

كيف ننظر إلى المعاد؟/ أهمّ أوصاف القرآن الكريم للمعاد ترتبط بـ"خلود الإنسان"

إحدى مقدمات التدين هي الإيمان بالمعاد. لكن كيف نؤمن بالمعاد؟ وبأي طريقة ننظر إليه؟ هي أن نرى كيفية تعاطي الله سبحانه وتعالى مع المعاد في القرآن الكريم. أهم صفة ذكرها الله عز وجل للمعاد وعالم الآخرة، والتي ساقها في القرآن بأكبَر نسبةِ تكرار، بل وكرّرها في مواطن حساسة، هي صفة «خلود الإنسان»! لقد تكرر في القرآن الكريم الكلام عن الخلود حوالي ثمانين مرة. على أنه استخدم له أحياناً تعابير أخرى، لكن الكلمات المشتقة من جذر «خلد» تكررت ثمانين مرة! على سبيل المثال حينما يريد القرآن التعبير بأن «الملائكة تسلّم على الداخلين إلى الجنة» فإنه يذكُر سلام الملائكة بالتعابير التالية: «ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُود» (ق/٣٤)؛ أي: إنك قد أصبحتَ اليوم خالداً! ويقول في آية أخرى: «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» (الزمر/٧٣). انظر مدى تعلّق الإنسان بالخلود إلى درجة أن الله سبحانه يأمر ملائكته عند باب الجنة بأن يخاطبوا أهلها بهذه الكلمة.

كان "الخلود" مُهمّاً لآدم(ع) حتى في الجنة

نحن معاشر البشر مخلوقات تطلب الخلود، وهذا ما يشاهَد في قصة نبي الله آدم(ع) إذ أن إبليس حين أراد خداعه قال له: أتريد أن تكون خالداً؟ «يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ» (طه/١٢٠). فهَمُّ الخلود هذا لا يَذَر آدمَ(ع) وشأنه حتى في الجنة، وإنّ التساؤلَ: «هل نحن خالدين؟» تساؤل مُهِمّ جدّاً بالنسبة له. أعظم ما يخيف الإنسان الموت وأكبر بلية تنزل به «فقدان الأمن». لكن، ما بالنا نحن معاشر البشر لا نحب الموت؟ إنه بسبب الميل إلى الخلود! إذاً تعالوا نُنَمّي هذا الميل في نفوسنا، فإنه ثمة حقّاً ما يُلبّي هذا الميل إلى الخلود فينا، وهذا سيكون في عالم الآخرة؛ بل إن طبعنا قد صُمِّم للآخرة ولم يُصمَّم للدنيا. الإنسان من دون الجنة مهموم وهو دائماً بحاجة إلى تذكيره بها. على الإنسان دوماً أن يرى هذا العالم الفسيح أمام عينيه. وإنْ رغِبتَ في التأهّب للتديّن فلا بد أن تضع هذا العالم في حسبانك؛ بجنته وناره!

تعالوا نتفكّر في عالم الآخرة بدافع الميل إلى الخلود والراحة المطلقة

تعالوا نتفكّر في عالم الآخرة، ولو بمعزل عن الدين! فلنتفكر فيه بدافع الميل إلى الخلود، بباعث حب الراحة المطلقة، بحافز الرغبة في عالم حر بالمعنى الحرفي للكلمة، عالَم لا أشعر فيه بالسأم، عالَم مجرّد من خصائص هذه الدنيا الدَنِيّة. ما أجمل أن ننغمس في عالم الآخرة وروائعه! وهذا ما يصنعه القرآن الكريم معنا. لاحِظ مثلاً ما أجمل وصفَ عالمِ الآخرة في سورة الواقعة! يقول علماء النفس: آخر موضوع تفكّر فيه قبل الإيواء إلى الفراش يترك جسدَك وروحَك تحت وطأة تأثيره حتى الصباح، بل إنك ستظل خاضعاً لتأثير هذه الفكرة طيلة نهار الغد أيضاً. ثم - من جانب - نلاحظ أننا أُوصينا بقراءة سورة الواقعة قبل النوم! إنك بقراءة هذه السورة ستفكر في الجنة ضعفين، وفي النار قليلاً، وفي الموت بعض الشيء.

الحق أن الجنة التي جاء وصفها في سورة الواقعة لفي منتهى الروعة. ومن الطبيعي أنّ الإنسان الذي يفكر في عالم الآخرة كل ليلة قبل أن ينام سيكبُر ويتعاظَم وستحصل له أمور أخرى حسَنة. أولياء الله هم الآخرون كانوا جميعاً مشغولين بقضية الموت والآخرة وكانت مواقفهم تجاه الآخرة مواقف في غاية الشفافية والوضوح. فلقد كانت الآخرة عندهم من العظمة ما جعل أمير المؤمنين(ع) يقول فيما يروى عنه: «غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ» (نهج البلاغة/ الخطبة ٣٢)؛ أي إن ذكر الآخرة أعماهُم عن هذه الدنيا.

متى يصبح الذنب للإنسان مُرّاً؟ عندما يُفرحه التفكير "بعالَم الآخرة الحُلو"!

إن إحدى دعائم المعنويات وتقبّل الدين والاقتناع بترك المعصية هي أن نرى عالَم الآخرة ونشتاق إليه. أتدري متى يؤرّقُ الذنبُ صاحبَه ويصبح مذاقُه عنده مُرّاً؟ عندما يُفرحُه التفكير «بعالَم الآخرة الحُلو»! حينذاك ستتألم أنت كثيراً إذا أذنبتَ وتُخاطب ربك: «إلهي، نَجّني من ذنبي هذا، إنني أتألّم...». كما قد سلف منّا القول فإن على المرء، من أجل قبول التدين وترك الخطيئة، أن يوجِد في شخصيته خمسة عناصر: وهي أن يكون مُبَرمِجاً لحياته، وممن يطالب بمنفعته بالحد الأقصى، وأن يكون من أصحاب التسابق، وممن يتقبّل قيود الحياة الدنيا. كل هذه أسس وتمهيدات من أجل يصل المرءُ مستوى النفور من شيء اسمه «المعصية»، بل أن يصير للمعصية عنده معنىً. فإن تبلورتْ دعائم الشخصية هذه في الإنسان فإنه سيصل مرحلة يصبح «الذنب» محور مغازلته لله عز وجل؛ وذلك بأن يراقب نفسه طيلة نهاره لئلا يذنب، ويبقى طول ليله يناجي ربه معتذراً مستغفراً؛ أي الحالُ ذاتها التي كان عليها أولياء الله. وهذه المراقبة تدعى «التقوى».

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ١٧)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ٢٢/أيار/٢٠١٩ ـ ١٦/رمضان/١٤٤٠
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

السؤال: "وماذا بعد؟" يأخذ الإنسانَ إلى أسمى الأهداف/ الإنسان بحاجة إلى هدف سامٍ تنتظم باقي الأهداف بنظامه/ الذنب هو كل ما يُقصي الإنسان عن أسمى أهدافه.

على كل امرئ أن يجيب عن السؤال التالي: "افرض أني بلغتُ جميع أهدافي، وماذا بعد؟ ماذا سيحصل في النهاية؟" يفتّش الإنسان عن هدف يعلو على جميع الأهداف التحضيرية والوسطية، وعلى جميع الأهداف الأخرى في كل مرحلة من حياته. هو يسعى لوضع الهدف الأسمى ذاك نُصب عينيه لتسكُنَ روحُه فلا يعود يسأل: "وماذا بعد؟"

الفاقد لهذه الخصائص لا تتلاءم شخصيّتُه مع الدين أساساً؟

ذكرنا في الحلقات الفائتة خمس خصائص كممهّدات للتديّن؛ وهي أن يكون المرء طالباً للنفع نافراً من الضرر، ومُمَنهجاً لحياته، ومن أهل التنافس، وأن يُذعن لقيود الدنيا. أما الخصيصة الخامسة فهي أن يرى عالم الآخرة، ويؤمن بالمعاد، ويكون عالَمُه واسعاً. فالذي يمتلك هذه الخصائص يكون مهيَّأً للتديّن والإقلاع عن المعصية، ويكون في وسعنا التكلم معه عن الدين، لأن الفاقد لهذه الخصائص لا تتلاءم شخصيته مع الدين أساساً! وما زلنا، في بحثنا هذا، لم نتطرّق بعدُ إلى موضوع الدين، والإيمان، وأوامر الله تعالى. ومن ميسورنا القول، إنْ صَحَّ التعبير: بهذه الخصائص تُكتسَب «التقوى السابقة للإيمان».

ما معنى "التقوى السابقة للإيمان"؟

المراد من التقوى السابقة للإيمان هو أن يكون المرء من أهل المراقَبة، والتفحّص في الأمور، وأن يتصرّف بعقلانية. فشخصية إنسانٍ كهذا تكون مهيَّأة لتقبّل الإيمان، بل إنها تتقبّله بسرعة. يستهلّ الله سبحانه وتعالى كتابَه العزيز بقوله: «ذٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» (البقرة/٢)، ولعل مراده من التقوى في هذه الآية هو ما ذكرنا من التقوى السابقة للإيمان. فهو تبارك وتعالى لا يقول: «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمؤمنين»؛ إنه لا يقول: هذا الكتاب يهدي المؤمنين؛ إذاً لا بد أن تؤمن أوّلاً، وعندها فقط سأكلّمك! بل يقول:

«هـذا الكتـاب يهـدي المتّقـين»؛ أي فلتحصـل، بـادئ ذي بـدء، عـلى بعـض التقـوى كي أكلمـك، وعنـدذاك سـتؤمن! بمعنـى أن أمثـال هـؤلاء يؤمنـون ويُصَلّـون لأن في داخلهـم جوهـرة اسـمها «التقـوى»؛ «ذٰلِـكَ الْكِتَـابُ لا رَيْـبَ فِيـهِ هُـدىً لِلْمُتَّقِـينَ * الَّذِيـنَ يُؤْمِنُـونَ بِالْغَيْـبِ وَيُقِيمُـونَ الصَّـلاةَ وَمِـمَّا رَزَقْنَاهُـمْ يُنْفِقُـون» (البقـرة/٢-٣). والحقيقـة، اسـتناداً إلى الآيـة القرآنيـة أعـلاه، إن القـرآن الكريـم يعجـز عـن هدايـة الفاقـد لهـذه الجوهـرة (التقـوى). فمهـما أتيـتَ شـخصاً كهـذا بالبراهـين وأثبَـتَّ لـه وجـود اللـه لا يقتنـع، وإن اقتنـعَ فـلا جـدوى مـن اقتناعـه.

السؤال: "وماذا بعد؟" يأخذ الإنسانَ إلى أسمى الأهداف

مَـن يتوافَـر عـلى الخصائـص أعـلاه يسـعُنا أن نكلّمـه عـن موضـوع في غايـة الأهميـة وهـو: «إنـك مـن الذيـن يطلبـون منفعتهـم، ويُمَنهجـون حياتهـم، ومـن أهـل التسـابق والتنافـس، ومتقبّـل لقيـود الدنيـا، ومُحـبّ لعـالم الآخـرة، لكـن مـاذا بَعْـد؟ مـا الـذي سـيحصل في النهايـة؟» إنـه سـؤال في منتهـى الأهميـة، وقاتـل! إذ حـين يتبـادر هـذا السـؤال إلى ذهـن الإنسـان ولا يعـثر لـه عـلى جواب، فإنـه سـيهلك! ولا تعود ثمـة جـدوى لأي شيء آخـر تعرِضُـه عليـه، إذ سـيقول: «لا شيء في هـذا العـالم عـلى الإطـلاق ذو قيمـة أو فائـدة!» يبحـث الإنسـان عـن جـواب لأسـئلته: «ومـاذا بعـد؟ ثم مـاذا؟ مـا هي النتيجـة؟» وهذه الأسـئلة تأخـذ الإنسـان إلى أسـمى الأهـداف! وإنْ كان المـرء مـن المنهجـين لحياتهـم فسـتُوصِلُه هـذه المنهجـة تحديـداً، في نهايـة المطـاف، إلى اللـه؛ ذلـك أن المُمَنهِـج لحياتـه يُحـصي أهدافـه، ويبحـث عـن أسـماها، ولهـذا يتسـاءل: «والآن، مـا الهـدف الـذي هـو أعـلى مـن هـذا الهـدف؟ مـاذا بعـد؟» وعـلى هـذا المنـوال سـيصل إلى اللـه تعـالى. الطالـب للنفـع والفـارّ مـن الـضرر يصـل في النهايـة إلى اللـه عـزّ وجـلّ. والـذي نهجُـه التسـابق يصـل أيضـاً، في آخـر طريقـه، إلى اللـه، لأنه يسـأل نفسـه: «ماذا سـيحصل لو أنني سـبقتُ الجميـع وفُـزتُ في جميـع السـباقات؟ ألـن ينفـد صبري؟» وكـذا الـذي يفكّـر في عواقـب الأمـور فهو يصل في النهايـة إلى اللـه، لأنـه يتسـاءل: «هَـبْ أننـا روَينـا ظمأَنـا في الجنـة مـدة مـن الزمـن ونَعِمنـا بلذّاتهـا وآلائهـا، ومـاذا بعـد ذلـك؟ لنفـرض أننـا تلذّذنـا بنعيـم الجنة مليـاراً مـن السـنين، ألا ينفد بعدهـا صبرُنا؟»

دُلَّني على هدف لا أمَلّ منه حتى أبد الآبدين!

أسأل الله تعالى أن يتغلغل هذا السؤال المهم إلى قلوبكم جميعاً بقوة حتى تسقط الدنيا، بل والآخرة أيضاً، من أعينكم، فتقولوا: «ثم ماذا؟ أخذَ السأمُ يتملّكني! دُلَّني على هدف لا أتخلّى عنه حتى أبد الآبدين ولا أمَلّ تعقُّبَه!» الإنسان مخلوق يحمل هذه الرغبة الفطرية، وأنبياء الله إنما يأتون لينفُضوا عن رغبةِ الإنسانِ الفطريةِ هذه الغبار لكي يسأل هذا السؤال المهم: «ثم ماذا؟ ما هي النتيجة؟» إذذاك سيصبح هذا الإنسان عارفاً! وصاحب العصر والزمان(عج) هو الآخر يملأ الأرض قسطاً وعدلاً تلبيةً للحد الأدنى من الحياة البشرية لكي يصل البشر إلى التساؤل: «ثم ماذا؟» على أن باستطاعة البعض أن يسأل نفسه السؤالَ ذاتَه في زمن الغيبة أيضاً؛ أي على الرغم من الكروب الحافّة بهم فإنهم يجلسون مفكرين في أنه: «هَبْ أن كروبي هذه تبدّدتْ، ثم ماذا؟» والله عز وجل يفرح لعبد كهذا أيّما فرح، وكأنه يقول: «عبدي في كَرْب ومعاناة، ولا بد له الآن، بطبيعة الحال، أن يتوسّل إليّ أنْ: إلهي، فرّج كربي.. أنا ليس بوسعي التفكير في شيء آخر! لكنه اتّخذَ رُكناً وراح يحدّث نفسه: ماذا سيحصل بعد أن تزول كروبي هذه؟» والله سبحانه يضُمّ عبداً كهذا إليه. والذي وصل بفكره إلى سؤال كهذا يكون قد توصّل إلى جوابه أيضاً! فما إن تصل إلى مرحلة السؤال: «ثم ماذا؟» تكون قد علمتَ إلى أي مدىً كبرتَ! لأنك رأيتَ النهاية! تخطّيتَ الجنة والنار كذلك، لتتساءل: «وماذا بعد ذلك؟» فحينما تبلغ كل هذا الارتفاع ستكون قادراً على مشاهدة الله من وراء الحُجب التي أسدلوها أمام ناظرك؛ أي ستكون قادراً على الإحساس بالله بقلبك.

الإنسان بحاجة إلى هدف سامٍ تنتظم باقي الأهداف بنظامه

يحتاج الإنسان لحياته إلى أعلى الأهداف، هدف تنتظم بنظامه جميع أهدافه الأخرى الأسفل منه ويصل فيما بينها. فالإنسان الذي يملك بضعة أهداف مبعثرة هو إنسانٌ مشتَّت الفكر والوجود، وإنسان كهذا لا يعود مُحبّاً. مَن يحمل ألفَ هدف متنوّع هو إنسان مشتّتُ الكيان، إذ عليه أن ينهض بأعمال شتّى ويبلغ أهدافاً متعدّدة. فأحد أهدافه، مثلاً، «شراء المنزل»، وهدفه الآخر «الزواج»، والهدف التالي «بلوغ مركز اجتماعي»، ...الخ. غير أنه لا صلة بين أهدافه هذه، وهو يسعى إليها بباعث الحاجة والميل. الشخص «المتعدد الأهداف» يُشقِي نفسَه؛ هو شخص منفعل، لا حرارة فيه؛ إنه إنسان بارد مُحطَّم الأعصاب.

هـو دائـم اللَّهَـث وراء نَيـل هـذا النفـع أو ذاك، أو دفـع مـا يحيـق بـه مـن أضرار مختلفـة، ولهـذا تـراه، عـلى الـدوام، متعبـاً عديـم الـرضى، دائـم الشـكوى، غـير شـاكر! فـإن أوى إلى الفـراش كان مـن الإنهـاك والكآبـة مـا لا يسـعك أن تطلـب منـه الاسـتيقاظ في السـحَر! إن الإنسـان بحاجـة إلى هـدف سـامٍ يوجّـه جميـع أهدافـه الصغـيرة، وكافـة غاياتـه القصـيرة الأمـد والطويلتـه. (ولا دخـل لنـا، في الوقـت الحـاضر، باللـه والهـدف الإلهـي). فـإن عـثر الإنسـان عـلى هـدف كهـذا؛ هـدف يُشـبع، أوّلاً، رغبتـه في الخلـود كل إشـباع، إلى درجـة أنـه لا يعـود يسـأل: «ثـم مـاذا؟»، فإنـه يمثّـل أسـمى أهـداف الإنسـان، ويُلهـب كيانـه. ثانيـاً، سـيحقق هـذا الهـدف جميـع الأهـداف الصغـيرة الأخـرى. يقـول علـماء النفـس: «إن الإنسـان بحاجـة إلى هـدف كهـذا». بـل وقـال بعـض علـماء النفـس الآخريـن أيضـاً: «النتيجـة الوحيـدة التـي اسـتنتجها الإنسـان لهـذا الهـدف هـو اللـه».

أول التفات الإنسان إلى الله هو حينما يختاره كأسمى هدف له

تتطلـب روح الإنسـان هدفـاً سـامياً؛ وإذا فكّـر الإنسـان «بأسـمى هـدف» تفكـيراً عميقاً فسيحسّـه بقلبه! وكل مَـن فكّـر في هـذا الهـدف قليـلاً فإنـه سـيرى اللـه رويـداً رويـداً؛ أي سيحسّـه بقلبـه! كيـف؟ كالأم التـي تترقـب مجـيء ولدهـا ولا يمكنهـا الاتصـال بـه، وإذا بولدهـا يقـف عـلى بـاب الـدار! فتقـول: «كأنّي بولـدي خلـف البـاب!» ثـم يطـرق ولدُهـا البـاب ويدخـل! فكيـف أحسّـتْ هـذه الأم بوجـود ولدهـا وعلمـتْ بقدومـه؟ لأنهـا تقـول: «قلبـي دليـلي!» كقصـة نبـي اللـه يعقـوب(ع) الـذي كان يترقّـب مجـيء يوسـف(ع)؛ إذ حينـما انطلقـوا بقميـص يوسـف إليـه أحـسّ يعقـوب ذلـك بقلبـه عـلى مسـافة شاسـعة فقـال: «إني لأشـم رائحـة يوسـف»: «وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُـفَ لَـوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ» (يوسـف/٩٤). لقـد أحـس يعقـوب رائحـةَ قميـص يوسـف عندمـا خرجـوا مـن مـصر متوجّهـين بـه إليـه، وهـو عـلى مسـافة شاسـعة منـه، وهـو قميـص ولـده، وليـس موجـوداً بعظمـة «اللـه تبـارك وتعـالى» الذي صنعـك لنفسـه، والقريـب منـك أيمـا قـرب، إلى درجـة أنـه قـال: «نَحْـنُ أَقْـرَبُ إِلَيْـهِ مِـنْ حَبْـلِ الْوَرِيـدِ» (ق/١٦). أيـن يبـدأ التفـات الإنسـان إلى ربـه؟ حينـما يجعلـه الهدفَ الأسـمى بالنسـبة إليه؛ الهـدف الذي يصبـو لبلوغـه بعـد كل شيء ولا ينعـم بالسّـكينة حتـى يصـل إليـه هـو. وحينهـا سـتغدو الجنـة برُمّتهـا محـل إقامـة للقـاء اللـه عـزّ وجـلّ! وسـترجع جميـع محاسـنها في نظـرك إلى كونهـا مـن اللـه، وكأن اللـه قـد بعـث إليـك ببطاقـة دعـوة خاصـة. وسـتعود مـرارات جهنـم إلى كونهـا تَجَلّيـاً لغضـب اللـه وسـخطه.

الإنسـان في حياتـه بحاجـة إلى هـدف. بالطبـع هنـاك أهـداف مبعـثرة تحيـط بـه في العـادة، لكنـه بحاجة إلى الهـدف الأسـمى الـذي مـن شـأنه أن يوحّـد أهدافَـه جميعـاً؛ أي يجمـع شـتات قلبـه فيجعلـه خالصـاً لا شـائبة فيـه؛ وهنـا تحديـداً ينبثـق الحـب. حتـى أولئـك الذيـن يحبّـون بالخطـأ (أي تأسرُهُـم أنمـاط حـب أخـرى) يـودّون لـو يكـون كل شيء فيهـم - كنمـط سـلوكهم، وكلامهـم، ..الـخ - في سـبيل محبوبهـم. مـا الـذي سـيحصل لمـن أصبحَ قلبُـه خالصـاً؟ سـيتحفّز التفـاتُ قلبِـه جميعـاً ويتركّـز في نقطـة واحـدة؛ كالعدسـة المقرّبـة التـي توضـع أمـام أشـعة الشـمس وتركّزهـا جميعـاً في نقطـة واحـدة فتُحـدث في تلـك النقطـة حـرارة شـديدة إلى درجـة الإحـراق.

خصيصة الإنسان الطبيعي أنه «مُحِبّ»

مـن الخطـأ أنْ نسـأل: «مـا هـي خصائـص الإنسـان الطبيعـي؟» سـؤالنا يجـب أن يكـون: «مـا هـي خصيصـة الإنسـان الطبيعـي؟» والجـواب: خصيصـة الإنسـان الطبيعـي أنـه مُحِـبّ! إنـه قـد شـاهد نهايـة العـالم، واختـار أعـلى الأهـداف. بـل وكـم مـن الأهـداف الأخـرى في العـالم أساسـاً كي نرغـب في اختيارهـا؟! وكَـمْ مـن «اللـه» عندنـا كي نـود التوجّـه إلى سـواه؟! ألا وإنـه مـا مـن أحـد بعظمـة اللـه تعـالى في هـذا العـالم! وكل مَـن اختـار غـير اللـه فإنـه، في الحقيقـة، لم يصـل إلى اختيـاره النهـائي بعـد! عـلى الإنسـان، لتحديـد هدفـه، أن يسـأل نفسـه السـؤال التـالي: «مـا الـذي سـيحصل بعـد بلوغـي أهـدافي الصغـيرة هـذه؟ مـا هـي النتيجـة؟» الإنسـان يفتـش عـن هـدف يعلـو عـلى جميـع الأهـداف التحضيريـة والوسـطية وعـلى جميـع الأهـداف الأخـرى في كل مرحلـة مـن حياتـه. إنـه يسـعى لوضـع الهـدف الأسـمى ذاك نُصـب عينيـه لتسـكُن روحُـه فـلا يعـود يسـأل: «ومـاذا بعـد؟» لا بـد للإنسـان أن يتعـرّف هـذا الهـدف العـالي، «وهـو قُـرب اللـه»، تعرُّفـاً بحيـث يقـول: «لقـد فهمـتُ مـا القصـة!» شـخص كهـذا بعـد أن يختـار هـذا الهـدفَ الأسـمى لا يعـود يقـول: «ثـم مـاذا؟» فهنـا تبـدأ للتـو معرفـة اللـه! فحـين يبلـغ الإنسـان مثـل هـذا الهـدف السـامي، تتّخـذ جميـعُ أهدافـه الوسـطية والقصـيرة الأمـد وكافـة أهدافـه الأخـرى في أبعـاد حياتـه المختلفـة وُجهـة واحـدة! وقـد طالبَنـا اللـه تعـالى أيضـاً بـأن: «كُلْ لي أنـا، ونَـمْ لي أنـا، وقُـم لي أنـا، وألبَـس لي أنـا، ...الـخ».

مَن لا نيّةَ إلهيةَ لكلّ حركة من حركاته فهو من الغافلين!

في وصية النبي الأعظم(ص) لأبي ذر(رض) أن فلتكن لك نية التقرب إلى الله حتى في نومك وأكلك: «يَا أَبَا ذَرٍّ، لِيَكُنْ لَكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ نِيَّةٌ حَتَّى فِي الْأَكْلِ وَالنَّوْمِ» (مجموعة ورام/ ج٢/ ص٥٨)؛ أي اجعل جميع أعمالك وتصرفاتك لله. وفي الخبر إن مَن لا ينوي التقرب إلى الله في كل عمل من أعماله وكل حركة وسكنة له فهو من الغافلين: «فَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ خَالِصِ النِّيَّةِ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بِهَذَا الْمَعْنَى يَكُونُ غَافِلاً، وَالْغَافِلُونَ قَدْ ذَمَّهُمُ اللهُ تَعَالَى فَقَالَ: «إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً» وَقَالَ: «أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ»» (مصباح الشريعة/ ص٥٣-٥٤). ويقول تعالى: «أُولئِكَ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» (الأعراف/١٧٩). ولماذا هؤلاء أسوأ من الحيوانات؟ يجيب الله: لأي شيء قد خلقتك؟ وانظر بماذا أنت مشغول الآن؟! تعالوا نبدأ من هذه اللحظة ونسأل أنفسنا: «ما هدفك؟» ما هي أهدافكم الآن؟ أيها الطالب المدرسي المحترم، يا طالب الثانوية العزيز، يا تلميذ الابتدائية الحبيب، ما هو هدفك في الوقت الحاضر؟ قد تجيب: «هدفي الحصول على فرصة عمل، فأذهب يوميّاً إلى عملي ثم أكسب بعض المال لأتمكّن من تسيير حياتي ضمن الحد الأدنى». سنسألك: "ثم ماذا؟" ويودّ الشيطان لو يُلهينا عن هذا السؤال الخطير والمفتاحي، كأن يعمل، من خلال الأغاني المختلفة والتسالي غير المناسبة، على أن لا يتبادر مثل هذا السؤال إلى أذهاننا قطّ.

يُلهي البعضُ نفسَه بانفعالات عبثية فراراً من أن يسأل نفسه: "وماذا بعد؟"

أحد أسباب تحريم الإسلام للكثير من الممارسات التي تولّد انفعالات عبثية (كشرب الخمر، والرقص، والدبكة، ولعب القمار، وما إليها) هو أن الناس يُلهون أنفسهم بهذه الأمور كي لا يسألوا أنفسهم السؤال التالي: «وماذا بعد ذلك؟ إلى أين أريد الوصول بعد هذا؟!» لو توصّل المرء إلى جواب لتساؤله: «ثم ماذا؟» فسينعم بنشاط يزيد ألف مرة على ما يجنيه بالرقص، بل إنه لن يجد الحاجة إلى الرقص أصلاً! فمن أجل ماذا يرقص؟! ولأي شيء يشتّتُ ذهنَه؟ ولأيّ داعٍ يبحث عن هذه الانفعالات العبثية؟ إن شخصاً كهذا يطارحُ هدفَه الغرام، فلماذا يشغل نفسَه بهذه الانفعالات الذميمة؟!

لا بـد للإنسـان مـن النشـاط. غـير أن الـذي لم يعـثر عـلى جـواب لسـؤاله: «ثـم مـاذا؟» ولم يضـع لنفسـه هدفـاً سـامياً سـيضطر إلى التـماس بعـض النشـاط عـبر أفعـال مقيتـة لـكي ينـسى همومـه، وينتشـل نفسَـه مـن الاكتئـاب لبعـض اللحظـات. فليهلَـك كل مَـن يعمـل في مجـال الثقافـة، والتربيـة والتعليـم، وفي كل مجـال عـلى تشـتيت أذهاننـا عـن هـذا السـؤال المقـدس وهـو: «ومـاذا بعـد؟» لقـد جعـل اللـه عـز وجـل «نفسَـه»، ولا غـير، جوابـاً لهـذا السـؤال، وليـس لأيّمـا امـرئ أن يخـدع نفسـه ويضـع شـيئاً آخـر محـلَّ اللـه بوصفـه هدفـاً أسـمى؛ ذلـك أن اللـه وحـده هـو الجـواب عـلى هـذا السـؤال!

لأي شيء تريد الله أساساً؟!

والآن لأي شيء تريـدُ اللـه؟ يجيـب: أريـده لأراه، لأذهـب عنـده، لأتقـرب منـه، ...الـخ. الـكلام هنـا بلـغ إلى حيـث لا يدركـه كل إنسـان! كل مـا في الأمـر أنـك إن سـألت نفسَـك بمجامـع قلبـك: «ومـاذا بعـد ذلـك؟» فسـيَطلُع لـك اللـه تعـالى، كـما تطلُـع الشـمس عنـد الفجـر وترتفـع شـيئاً فشـيئاً. اللـه هـو الآخـر سـيُظهِر لـك نفسَـه رويـداً رويـداً، فتحـسّ انجذابـاً إليـه، وتتعلـق بـه بشـكل تدريجـي. أتعلـم في أي مرحلـة عمريـة يطـرأ سـؤال: «ثـم مـاذا؟» عـلى ذهـن الإنسـان؟ قبـل الرابعـة عـشرة! ثـم أتـدري متـى ينضـج هـذا السـؤال بشـكل كامـل في ذهـن الإنسـان؟ في الثامنـة عـشرة مـن العمـر! وكلـما تأخّـر هـذا السـؤال في التبـادر إلى الذهـن فهـو مـؤشّر عـلى أن في النظـام التربـوي التعليمـي مشـكلة. ينعـم الإنسـان بسَـكينة خاصـة لـدى توصّلـه إلى رد عـلى هـذا السـؤال، وفي ظـل هـذه السَّـكينة ينجـز جميـع أعمالـه عـلى أتـم وجـه؛ يواصـل دراسـته، يتقـدم عـلى صعيـد العلـم، يتـزوج، يكـون موفقـاً في إدارتـه وعملـه، لكنـه يظـل مشـغول البـال باللـه تعـالى، لأنـه بـات يعلـم أنـه «مـن أجـل أي هـدف يحيـا؟» وهاهنـا يبـزغ في قلـب الإنسـان شيء اسـمه الحـب! أيمـا غايـة غـير «القـرب مـن اللـه» تضعهـا لنفسـك فإنـك لـن تحبهـا، ولـن تـذرف الدمـع مـن أجلهـا، ولـن تشـتاق إليهـا. صحيـح أنـك قـد تحـب هـذه الغايـة، لكـن هـذا لا يسـمى «حُبّـاً». فـإن البعـض يحـبُّ أشـياء، لكنـه لا يفقـه مـا هـو الحـب؟!

الجنة فندقٌ لإقامة مُلاقي الله!

بطبيعـة الحـال الشـخص المحـترم – الـذي يتحـلّى، عـلى الأقـل، بالخصائـص الخمـس المذكـورة في المحـاضرات الفائتـة – يتبـادر إلى ذهنـه السـؤال التـالي: «ثـم مـاذا؟ ومـا النتيجـة؟» إنـه يعلـم أنـه لا بـد في نهايـة المطـاف مـن أن يصـل إلى غايـة لا تنتهـي أبـداً! فـماذا سـيحصل لـو كان هدفنـا اللـه عـزّ وجـلّ؟ عـلى سـبيل المثـال، عندمـا تذهـب يـوم القيامـة للقـاء اللـه مـاذا سـيحصل بعدهـا؟ إنّ الأمـر لـن ينتهـي عنـد هـذا الحـد، بـل سـتتعطش بهـذا اللقـاء إلى لقـاء آخـر. فـإن لاقيـتَ اللـهَ مـرّة أخـرى ستشـعر وكأنـك لم تـره قبـل الآن، وسـيتولّد لديـك اندفـاع واشـتياق وانجـذاب غايـة في الـضراوة للقائـه مـرة أخـرى. وفي اللقـاء اللاحـق سـتقول: «إننـي، إلى الآن، مـا عرفـتُ اللـه أبـداً!» إلى متـى تسـتمر هـذه الحالـة؟ ستسـتمر إلى الأبـد، ولا أحـد سـوى اللـه مـن شـأنه أن يكـون كذلـك، لأنّ اللـه وحـده لا نهايـة لـه! لكـن مـا معنـى أن اللـه لا نهايـة لـه؟ يعنـي أنـك كل مـرة تـراه يتجـلَّى جـزءٌ منـه فيـك، وفي المـرة التاليـة يتجـلّى فيـكَ جـزءٌ آخـر منـه. وليـس للـه مـن نهايـة! إنّ اللـه هـو الموجـود الوحيـد الـذي لا ينتهـي، وإنـك تظـل إلى أبـد الآبديـن تنعـم بلقائـه. والجنـة، مـن بـاب التشـبيه، فنـدقٌ تقيـم أنـت فيـه لأجـل هـذا اللقـاء المثـير! فهـي إذاً فنـدق لإقامـة الوفـود القادمـة للقـاء اللـه! إذ لا بـد لـك، في النهايـة، مـن أن تقيـم في مـكان يهيّـئ لـك أسـباب الراحـة، وهـذا هـو الغـرض مـن الجنـة، أمـا الهـدف الرئيـس فهـو لقـاء اللـه تعـالى. بالطبـع هنـاك مـن النـاس مـن يلاقـي اللـه في الدنيـا أيضـاً! فأئمـة الهـدى(ع)، بحسـب بعـض الروايـات مثـلاً، يُدركـون في كل ليلـة جمعـة شـيئاً عـن اللـه تعـالى حتـى وكأنّهـم، قياسـاً بهـذا الإدارك، لم يكونـوا يعرفـون اللـه قبـل ذلـك الحـين!

حين تجعل "لقاءَ الله" أعلى هدفٍ لك فإنّ محبته تستقر في قلبك

حين تجعل «لقاء الله» أعلى هدف لك فإن محبّته تستقر، شيئاً فشيئاً، في قلبك ويتولّد لديك انجذاب شديد نحوه! فقد روي عن الإمام الصادق(ع) قوله: «حُبُّ اللهِ إِذَا أَضَاءَ عَلَى سِرِّ عَبْدٍ أَخْلاهُ عَنْ كُلِّ شَاغِلٍ، وَكُلُّ ذِكْرٍ سِوَى اللهِ ظُلْمَة» (مصباح الشريعة/ ص١٩٢). وعن أمير المؤمنين(ع) قوله: «حُبُّ اللهِ نَارٌ لا يَمُرُّ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا احْتَرَق» (بحار الأنوار/ ج٦٧/ ص٢٣-٢٤). ثم يقول(ع): «وَنُورُ اللهِ لا يَطْلُعُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَضَاءَ، وَسَحَابُ اللهِ مَا يَظْهَرُ مِنْ تَحْتِهِ شَيْءٌ إِلَّا غَطَّاهُ»؛ أي إن الله كسحاب رحمة إذا علا شيئاً غطّتْ آثارُ رحمة الله هذا الشيء تغطية كاملة. «وَرِيحُ اللهِ مَا تَهُبُّ فِي شَيْءٍ إِلَّا حَرَّكَتْهُ، وَمَاءُ اللهِ يَحْيَا بِهِ كُلُّ شَيْءٍ». ثم يتابع(ع): «فَمَنْ أَحَبَّ اللهَ أَعْطَاهُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْمَالِ وَالْمُلْك»؛ هذا على الرغم من أنّ شخصاً كهذا لا ينظر إلى مثل هذه الأمور. فقد نُقل، على سبيل المثال، عن المقدس الأردبيلي(ره) أنه قصد ذات يوم البئر ليأخذ منها ماءً يتوضّأ به للصلاة فإذا بذهب يخرج له بدل الماء! فقال: «إلهي، أريد ماءً أتوضّأ به»... وأدلى بالدلو مرة أخرى فخرج ذهب أيضاً! العرفاء حقّاً يكتسبون قوة، أما نحن فإن الله لا يعطينا هذه القوة كي لا نفسد! الله تعالى يُنيل عناياته هذه لمَن قد استقام أمرُه، وهو يذيقه بهذه العنايات لذة.

الذنب هو ما يعمل على النأي بالإنسان عن أعلى هدف له، وهو "الله"

والآن، وبالالتفات إلى ما مَرّ، نسأل: ما معنى الذنب؟ الجواب: عندما تتبلور هذه المحبة تجاه الله تعالى وتتكون هذه العلاقة، بوصفها أسمى هدف للإنسان، يكون الذنب ذلك الشيء الذي يعمل على النأي بالإنسان عن الله عزّ وجلّ. ومن هنا تحديداً يتحوّل البحثُ إلى بحث «ديني». البعض هنا يعترض بأنه: «إذا عرضنا الدين بهذه الصورة نكون، في واقع الأمر، قد قدّمناه بصورة عرفانية!» أقول: وما المشكلة في ذلك؟! يقول الإمام الخميني(ره): «الذين يدعون الناس بشكل محض إلى صورة العبادات فقط قائلين إنه لا معنى ولا حقيقة للشريعة سوى هذه الصورة والقشور هم شياطين الطريق إلى الله وأشواك سبيل الإنسانية» (آداب الصلاة/ ص١٥٤/ حسب النسخة الفارسية).

فإن من الخيانة للدين أن يعلّم المرءُ الدينَ بمعزل عن أبعاده العرفانية مدّعياً بأنه ما الدين إلا هذه الأحكام الشرعية ولا غير. يقول البعض: «ما دَخلُنا بالأبعاد العرفانية للدين واتصالك بالله؟! لقد قال الله: هذا ذنب. إذاً لا تُذنب، وكفى!» والسؤال هنا هو: «لأيّ هدف لا أُذنب؟ بل من أجل أي شيء حرّم عليَّ اللهُ هذا الفعل؟» أفصِحْ عن ذلك الهدف السامي والعالي! تكلّمْ عن تلك الغاية الجميلة والجذابة؛ دع الحياة تدبّ بروحه من جديد! مَن ذا الذي يدرك هذا الهدف السامي؟ يدركه مَن ارتقتْ شخصيّتُه قليلاً! لأنّ الذي لَـمّا ترتقِ شخصيته لا يصغي أساساً لمثل هذا الكلام الجميل، ذلك أنه عالقٌ في بعض المراحل التحضيرية والابتدائية. فلا استعداد لشخص كهذا لأن يصبح عارفاً.

لقد تبلورت شخصية الشهيد إبراهيم هادي بحيث كان على استعداد لأن يصير عارفاً

لقد تبلورت شخصية الشهيد إبراهيم هادي بحيث كان على استعداد لأن يصير عارفاً. ومن بين ذكرياته، في كتاب «سلام بر إبراهيم» (السلام على إبراهيم) اجتذبتني هذه القصة أيما اجتذاب: «ذات يوم عندما كان الشهيد إبراهيم في عمر المراهقة عنّفَه أبوه وطرده من المنزل. حتى المساء لم يجد إبراهيم في نفسه الجرأة على العودة إلى المنزل. وعندما عاد سأله أبوه: أين كنت طوال اليوم؟ قال: بعد المدرسة ذهبت إلى السوق، واشتغلت، وكسبت مقدار كذا من النقود. تصدّقتُ بجزء منها على فقير، واشتريتُ بالجزء الآخر طعاماً أكلتُه». هذا هو مثال الشخصية الراقية! طيّب، من الطبيعي أن يصبح شخصٌ كهذا، بمثل هذه الشخصية، عارفاً لأن فيه الاستعداد لذلك. لكن هناك مَن إذا طرده أبوه من المنزل انحدر في هاوية إدمان المخدرات! بل إنه يُدمن عليها حتى وإن لم يطرده من البيت؛ ذلك أن شخصيته لم تتبلور بشكل سليم.

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ١٨)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ٢٣/أيار/٢٠١٩ ـ ١٧/رمضان/١٤٤٠
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

تعالوا نطلق في العالم تياراً من أجل "حس العبادة" يفوق "الحملة" / ليس حِسّ العبادة مجرّد اعتقاد بالله وحمده تعالى، بل هو إحساس بالحاجة إلى طاعته/ يقول البعض بلسان إبليسي: "اِحمَد الله، لكن لا تُطِعه!"

حينما يكون الله نفسُه هو الهدف الأسمى والمقام الأعلى الذي من مقدور المرء الوصول إليه والاستمتاع به فسينتاب الأخير حماس واضطراب خاص تجاهه، ثم يطرأ عليه تحوُّل إيجابي وهو "استيقاظ حسّ العبادة"! حين يلتفت المرء إلى الله يستيقظ عنده شعور أنه: "إلهي، أريد أن أعبدك.. أن أطيعك

ما التحوّل الإيجابي الذي يحصل لروح الإنسان الذي يقطع طريق المئة عام في ليلة واحدة؟

يقطع البعض طريق المئة عام في ليلة واحدة. كما تطرأ على البعض الآخر يقظة في لحظةٍ ما، كأن تكون في إثر حادثة أليمة. ولربما صَحا قلبُ إنسان ووجدَ الطريق السالكة على أثر أضألِ تعليمٍ للدين، أو نتيجة أضعف أسلوب لبيان المعارف الدينية. من هنا تلاحظون أن هذه الأساليب الشائعة، وأحياناً الهزيلة، في تقديم الدين قد أيقظت الكثير وأوصلتهم إلى ذُرى الشهادة والقرب من الله عزّ وجلّ. ما الذي يحصل لأولئك الذين يستغلّون أضأل الفرص فيتيقّظون؟ ونريد في محاضرة الليلة التحدث عن هذا التحوّل الإيجابي؛ التحوّل نفسه الذي نصبو إلى حدوثه بعد كل ما قدّمناه في المحاضرات الفائتة من مباحث تحضيرية. أي إذا عاش الإنسان حياة سليمة وامتلك شخصية مُتّزِنة فلا بد أن يطرأ عليه هذا التحوّل الإيجابي ذاتُه؛ التحوّل الذي يحصل للبعض في ظروف خاصة فتطرأ عليهم، في لحظة ما، صحوة من دون اجتياز هذه المقدمات. إذا حصل هذا التحوّل الإيجابي لشخص ما فإنه سيدرك معنى المعصية، ويصبح متحفّظاً تجاهها، ويصير من المتقين ومن أهل التوبة والاستغفار، ويعيش حياة في قمة الحلاوة، والإثارة، والروحانية، والنورانية، والمتعة. بل ما «التربية الصالحة» إلا تهيئة المُمَهّدات لحصول هذا التحوّل الإيجابي! وإنّ من أضأل فوائد هذا التحوّل هو تحسُّن أخلاق صاحبه.

ما التحوّل الذي ينبغي أن يطرأ علينا كي نحدد موقفنا من "أسمى هدف"؟

ما هو هذا التحوّل الإيجابي؟ إنه استيقاظُ باعثٍ غريزي، لكنه صامت وخفي، في كيان الإنسان يحدّد له موقفه من أسمى هدف يمكنه أن يضعه لنفسه في حياته. يقول أحد علماء النفس، ويُدعى كولمان، حول «الهدف»: «إذا سُئل طفل: لماذا بعض الأحجار حادّة الطرف؟ أجاب: كي لا يجلس عليها أحد!» ويخرج من هذا الأمر بنتيجة مفادها: «أنّ الأطفال، منذ نعومة أظفارهم، يفتّشون عن هدف لكل شيء». ويقول علماء نفس آخرون: «منذ سنّ الثالثة يتصوّر الإنسان هدفاً لكل ظاهرة». يقول السيد كولمان: «إنه لأمر غريزي أن نرى كلَّ شيء في هذا العالم هادفاً». وتُثبت الأبحاث أن الكبار يفتشون دائماً عن معنى في الحياة (والمعنى يعني الهدف النهائي الذي ينبغي أن يكون لحياتنا). ذكرنا في المحاضرة الفائتة أننا إن كنا من المنهجين لحياتنا فإنّ هذه المنهجَة ستجعلنا ممَّن ينظر إلى الأهداف بشفافية، ومن ثم نسعى - شيئاً فشيئاً - لتحقيق أسمى هدف. وأننا إن كنا طُلّاب منفعة، فسنفتّش عن أقصى منفعة. ولا يمكن أن يكون أسمى هدف للإنسان سوى الله سبحانه وتعالى!

التحوّل الإيجابي الذي ينبغي طروؤه علينا جميعاً هو "استيقاظ حِسّ العبادة"!

إذا «التفتَ» الإنسان إلى هذا الإله قليلاً «وآمن» به بعض الشيء فسيحصل له تحوُّل إيجابي؛ أي سيستيقظ في كيانه حِسّ، وستنشط في وجوده غريزة تُحدِث انقلاباً في حياته. هذا الحِسّ سيدفعك إلى القول: «أيها الهدف العالي، إنّ صِلَتي بك تختلف عن صِلَتي بباقي أهدافي في الحياة!» فلو كان هدفك تحصيل شهادة الدكتوراه مثلاً فليس في مقدور هدفٍ كهذا أن يُلهبَ كيانك! أما إذا كان هدفُك اللهَ عزّ وجلّ، فإن حدَثاً آخر سيحدث. إذا كان الهدف الأسمى والمقام الأعلى الذي يتسنّى للمرء بلوغُه والاستمتاع به هو الله جلّ شأنه، فسيجتاح هذا الإنسان حماسٌ واضطراب خاص تجاه هذا الهدف، ومن ثم سيطرأ عليه هذا التحوّل الإيجابي؛ ألا وهو استيقاظ حس العبادة!

ليس حسّ عبادة الله مجرّد اعتقاد بالله وحمده، بل هو إحساس بالحاجة إلى طاعته

على أن حس العبادة لا يقتصر على أن نؤمن بالله تعالى ونحمده، بل هو حقيقة تعلو على الاعتقاد برب العالمين، أو حبه، والثناء عليه. حس العبادة يعني إحساس الحاجة إلى طاعة الله وامتثالِ أمرِهِ. إذا التفت الإنسان إلى ربه صَحَا في كيانه حِسٌّ هو حس العبادة، أو ما يُدعى بغريزة العبادة! وهو قوله: «إلهي، أريد أن أعبدك، أحب أن أطيعك، أريد أن أكون لك، أريد أن تكون مالِكي، أودّ لو أكون عبدَك، ومتعلّقاً بك...» وبالتدريج سيكون جُلّ ما يتمناه المرء هو امتثال أمر الله! وما هذا بطقس يؤدَّى، بل هي غريزة.. هو إحساس باطني وفطري!

الهدف من بناء شخصية مُتّزنة للبشر هو استيقاظ "حس العبادة" فيهم

الذين يطوُون طريق المئة عام في ليلة، أو الذين تنقلب حالُهم ويحصل عندهم تحوُّل في لحظة إنما يستيقظ لديهم هذا الحس فجأة، وهو أنه: «إلهي، أحب أن أعبدك!» يطوي البعض طريق المئة عام في ليلة واحدة ما إن تتحدث معهم عن الله تعالى، من دون أن يكونوا قد اجتازوا المراحل التحضيرية للاقتناع بالتديُّن! فبمجرّد أن تقول له: «الله موجود» يقول: «ثمة في داخلي حس يقول لي بأني أريد أن أعبد هذا الإله! هل يُمكن أن أطيعه؟ وهل وجَّهَ إلَيَّ أمراً؟» وهذا حس ينبغي أن يستيقظ في أعماق الإنسان. نِيّتُنا بناءَ شخصية مُتَّزنة للبشر ما هي، في الواقع، إلا لأجل استيقاظ هذا الحس بالذات. ونيّة صاحب الزمان(عج) الظهورَ ليبسط العدل ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً وسَكينةً وأمْناً ما هي إلا لأجل صحوة هذا الحس القائل: «إلهي، أريد أن أطيعك، أريد أن أجيبك: سمعاً وطاعة! أُحبّ أن توجّه إلَيَّ أمراً!» والآن ماذا سيحصل إنْ صَحا حس العبادة هذا فينا؟ سيظهر صاحب الزمان(عج)! لأن صاحب الزمان(ع) لا يأمُرُ إلّا المؤتمِرَ بأمر الله الطائع له!

تعالوا نطلق في العالم تيّاراً أوسع من مجرّد حملة اسمه "حِسّ العبادة"!

يرفع بعض التعساء شعاراً فيه فناء فطرتهم وهو: «لا نريد طاعةَ أمرِ الله!» فإن كان الأمر كذلك، فلماذا لا يرفع المستيقظون شعارَ: «إلهي، أريد أن أعبدك، أريد أن أطرق كلَّ بابٍ بحثاً عن أوامرك لأُنفّذها.. هذه أمنيتي.. مُرني ولا تحرمني من أوامرك!» تعالوا نطلق في العالَم لهذا التحوّل الإيجابي تيّاراً أوسع من مجرّد حملة، وننادي به بأعلى أصواتنا؛ فلنعمل أصناف الهاشتاغات، ونُلهب الأجواء في الأنترنيت، ونُعلن أنفسَنا أعضاءَ في تيار هذا التحوّل الإيجابي وحزبه ونحيا به.. نمارس لأجله نشاطات ثقافية، ونحدد في ظله نمطاً للحياة.. نُنشِد فيه الأناشيد، ونُؤسِّس له المدارس. هلُمّوا ننتمي إلى الفرقة الناجية؛ فرقة الذين يحبّون تنفيذ أمر الله، ويرونَ حاجتهم فيه. من الذين يريدون أن يعبدوا الله عبادة العبيد. لقد شُكّلتْ في هذا العالم فِرَق جَمَّة؛ إذ يودّ البعض (من الرجال) أن يسير على الأربع كالكلب مُسَلِّماً سلسلة طَوقه بيد امرأة (أو تسلّم امرأة سلسلة طوقها بيد رجل). هذا نمط من الفِرَق الصغيرة الموجودة! ورفعَ البعضُ الآخر راية عصيان الدين، بل عصيان الثقافة. أو عصيان كل ما يراه الناس في العادة حسناً! فالناس، على سبيل المثال، تكره الملابس المُمزَّقة وتدعو إلى «ارتداء الملابس الأنيقة»، وإذا بالبعض يتمرّد على هذه الأمور أيضاً؛ أي يُشيع التمرّد على الثقافة، وعلى التقاليد، وعلى كل ما يُقِرّه ضمير البشر وأخلاقهم! حسنٌ، لماذا لا تُشيعون أنتم ثقافة إطاعة الله يا ترى؟!

ارفعوا في العالم راية للتعريف "بحزب العبادة"

من الضروري أن تنبري في العالم جماعةٌ لرفع رايةِ حزبٍ اسمه «حزب العبادة» أو «حزب العبودية» ويُعلنَ أعضاؤها انتماءهم لهذا الحزب وينادوا بذلك بكل فخر. إذا استيقظت هذه الغريزة وهذا الحس فيك فنادِ به وقل: «أيها المُنساق إلى شهوتك، أنت مَيّال إلى الشهوات، وأنا بدوري أُعلن عمّا أميل إليه، أنا الآخر أُشبِع مَيليَ الباطني؛ غاية مُنيَتي هي أن أعبده (الله)، أن أطيعه...» اصرخوا بهذا الفكر، وسترون ما سيحصل في العالم!

لقد جعلَ الله تعالى لهذه «الفرقة الناجية» منهاجاً؛ مثلاً منهاج صلاة الجماعة! تعالوا وأَقحِموا أنفسكم في هذه الصفوف ثلاث مرات في اليوم لتعلنوا ذلك للجميع. هُبّوا أنتم أيضاً لمواجهة مَن يعصون الله تعالى؛ قولوا: «أنا مطيعٌ لله». إذ تختلف قضيّة الصلاة عن الكثير من الأعمال الصالحة الأخرى (مثل التخلّق بالأخلاق الحميدة)؛ لأنك في الصلاة تعلن أنك تعبد أحداً.. أنك تنفّذ أمراً؛ أي إنك ترفع راية العبادة! ولهذا فإن قيمة الصلاة فُراداً لا ترقى أبداً إلى قيمتها جماعة. فالصلاة راية، والراية لا تُرفع في حُجرةٍ في منزل! علينا أن نطلق في هذا العالم تياراً، وننادي وسط البشرية بصوتٍ عالٍ أنْ: «نريد أن نطيع الله. لا نريد أن نؤمن به وحسب، لا نريد أن نطرُق بابَه ونستَعطيه عندما تعضّنا الحاجة فقط، بل نريد أن نقول له: سمعاً وطاعة.. إننا نفتّش عن أوامره».

المُمنهِج لحياته يستيقظ عنده حس العبادة شيئاً فشيئاً

الحقّ أنّ حسّ العبادة هذا غريزة في الإنسان تَحدَّث عنها علماء النفس أيضاً، وقد تستيقظ هذه الغريزة في لحظة ما. لماذا ندعو إلى أن يكون الإنسان ذا منهج في حياته؟ لأجل أنْ تصحو هذه الغريزة فيه. فالتزام المنهج يضيّق الخناق على الهوى بعض الشيء حتّى ليُمكن، بعد ذلك، التحدُّث إلى هذا الشخص ببعض الكلام المفيد! لماذا نوصي بضرورة أن يكون الإنسان طالباً للنفع وفارّاً من الضرر؟ لأنه إذا طالبَ بمنافعه، ومن ثم – تدريجيّاً - بمنافعه الراقية، فسيتبادر إلى ذهنه السؤال الراقي جداً: «ثُمّ ماذا؟» لماذا يتحتّم على الإنسان أن يعرف قيود الدنيا، ويدرك أنّ الدنيا مليئة بالقيود؟ من أجل أن تسكُن نفسُه ولا يجزع أمام هذه القيود، فإن هدَأ وسكنتْ نفسُه أمكنَ للتو التحدث إليه بالقول: «إنك لم تُولَد في هذه الدنيا لتُحَلَّ مشاكلُك، هذه المشكلات قائمة! قد تنقص وقد تزيد، لكنها لا تزول! دعكَ من هذه المشاكل وانظر لأيّ شيء خُلِقتَ؟» لماذا يجب على الإنسان أن يحدّد لحياته هدفاً، بل وأرقى هدف؟ وما هو أرقى الأهداف؟ إنه الهدف الذي يُلهبُني، ويثير فيَّ العشقَ والاضطراب، وكلما أطلتُ التفكير فيه أحرَقَني أكثر بنار الحب! وليس ذلك الهدف الذي إنْ تصوّرتُ بلوغَه كان بوسعي أن أتساءل: «وماذا بعد؟» حتى الجنة التي وعدَ الله هي من هذا القبيل، إذ يمكنني أن أتساءل: «وماذا بعدها؟» والجواب هو: «بعدها الله نفسُه!»

ما إن يستيقظ حس العبادة فيك حتى تفتّش عن "أمرِ الله"

حين يكون الله نفسُه هو هدف الإنسان، وحين يهتمّ الأخير بهذا الهدف السامي يتولّد في داخله شعور أنه: «إلهي، أريد أن أعبدك! إلهي، هذا الحسّ كان مفقوداً، لكن ما إن لقيتك حتى استيقظ في داخلي! فإني إن صادفتُ زهرة قلتُ: ما أرَقَّها وأجملها! ما أطيب رائحتها! من الجميل أن أشُمّها! وإن وجدتُ طعاماً لذيذاً وأحسستُ بالجوع قلتُ: ما أحسن أن أتناول هذا الطعام! وإذا رأيتُ ماءً عذباً تذكّرتُ عطشي فقلتُ: من الأفضل أن أشربه! ..الخ. لكنني، يا ربِّ، ما إن رأيتُك قلتُ: ما أجمل أن أعبدك! أن تأمرني فأرُدّ: سمعاً وطاعة!» إذا صحا حس العبادة في كيانك ستخاطب ربك: «إلهي، ما الأمر الذي تودّ توجيهه إليَّ؟» وإنّ الله سبحانه، وبباعثِ رحمتِه ولُطفِه، لم يدَعْ هذا الطلب الغريزي من دون استجابة، فوجّه لعبده الأوامر، لأنه يعلم ماذا يريد عبدُه!

ما الشعور الذي يستيقظ في الشخص النفعيّ إذا وصل إلى الله؟

ما الحس الذي لا بد أن يستيقظ عند الإنسان النفعي إذا فكَّ أسرَه من نير العبودية للأغيار ووصلَ إلى الله عزّ وجلّ؟ إنه الحس القائل: «إلهي، كنتُ حرّاً قبل أن أعرفَك، أَصرخُ بوجه كلّ مَن يحاول استعبادي، أما الآن فأودّ أن أكون عبدَك!» ليس الله عزّ وجلّ خالقَنا وحسب، وما علاقتنا به مجرّد علاقة استرزاق واستعانة! وهل نحن نَمْل؟ النَمْل والحيوانات تستمدّ من الله العون وتسترزقه وحسب. جميع الحيوانات محتاجة إلى الاسترزاق من ربها. أما البشر فإنّ حسّاً آخر، يختلف عمّا تستشعره الحيوانات، يجتاحهم إذا وصلوا إلى الله، وهو حس العبادة. بل إن البشر إذا وصلوا إلى الله تعالى لا يسبّحوه وحسب. يشير الله عزّ وجلّ في كتابه إلى أنه ليس من الإنجاز أنْ تسبّحَني، فالسماوات والأرض كلّها تسبّحُني: «يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض» (الحشر/٢٤)؛ أن تُثني عليَّ وتسبّحَني فهذا ليس إنجازك أنت وحدك؛ وإلّا فما فرقُك عن الحيوانات والنباتات والجمادات؟!

إلهي، أريد أن أطيعك طاعة العبد لمولاه!

إن كنـتَ متيقّـظ القلـب أو صحَـا قلبُـك يومـاً فعرفتنـي فسيسـتيقظ في أعماقـك هــذا الحـس الغريـب، ويحصـل لـك هــذا التحـوّل الإيجـابي وهــو أنـه: «إلهـي، أريـد أن أطيعـك طاعـةَ العبـد لمـولاه! لا طاعـةَ السـائق لشرطـي المـرور، ولا طاعـةَ التلميـذ لمعلّمـه ولمعـاون مديـر المدرسـة، بـل هـي فـوق هـذه الأصنـاف مـن الطاعـة. أريـدك أن تكـون مالِـكي ومَـن بيـده أمـري! العبـد لا يكـون مالـكَ أمـر نفسـه أبـداً! ولهـذا يخاطـب ربـه: «إلهـي، مـاذا أصنـع عنـد بـزوغ الفجـر؟» «صَـلِّ ركعتـين». «وكيـف أُصَـلّي؟» «توضّـأ، وأقِـم للصـلاة». «ثـم مـاذا؟» «اتـلُ الذِكْـر». «ومـاذا بعـد؟» «لا آمـرُك بـشيء!» «لكـن إلهـي، إن لم تأمـرني هلكـتُ!» «حسـنٌ، اسـعَ في كسـب رزقـك!» بـل إن العبـد لا يقـدر أبـداً عـلى العيـش مـن دون أوامـر مـولاه. إذا تهيّـأتْ هـذه الممهّـدات في شـخصية الإنسـان يسـتيقظ في داخلـه الحـس القائـل: «إلهـي، أريـد أن أعبـدك، وإنّ عبادتـك في طاعتـك!»

ما إن تعرف مَن الذي خلقك حتى تود أن تكون عبده!

تعالـوا نطلـق لأنفسـنا تيّـاراً! هلمّـوا ننتمـي إلى ديـنٍ أو فِرقـة؛ الديـن أو الفرقـة القائمَـين الآن فعـلاً؛ وهي «العبوديـة للـه»؛ وهـو مـا يدعـو القـرآن الكريـم إليـه تحديـداً: «يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ اعْبُـدُوا رَبَّكُـمُ الَّـذِي خَلَقَكُـم» (البقـرة/٢١)؛ أي إن سـبب وجـود هـذا الحـس في داخلكـم هـو أن اللـه قـد خلقكـم. بمعنـى أنـه إن كانـت فطرتـك يقِظـة فـما إن تعـرف مَـن خالقُـك حتـى تـودّ لـو تكـون عبـده! لا بـد لـكل مَـن لم يَصحُ هـذا الشـعورُ في أعماقـه أن يراجـع «محلّـلاً نفسـانيّاً»! ومـاذا يصنـع المحلّـل النفـسي؟ إنـه يُنقّـب في أنفسـنا عـن العُقَـد ليعـرف حـين يجدهـا: «أيـن مَكمَـن مشـكلتُنا؟ لمـاذا نحـن ضَجِـرون؟ مـا سـبب الخلـل الفـلاني فينـا؟ ولِـمَ نحـن متوتّـرون عصبيّـاً؟ ...الـخ» يـا حبّـذا لـو كان هنـاك مَـن يفتّـش في كلّ واحـدٍ منـا، بطريـق التحليـل النفـسي، عـن سـبب هـذه العقـدة الروحيـة، وهـي أنـه «لمـاذا لم يسـتيقظ فيـك حـس العبـادة؟ لمـاذا لم تنشـغل بالعبوديـة لـه وحـده دون غـيره؟ لمـاذا لم يتّجـه ولعُـك هـذا التوجّـه؟»

انظر ماذا يصنع الله تعالى لإيقاظ حس العبودية هذا فينا!

انظر ماذا يصنع الله تعالى لإيقاظ حس العبودية هذا فينا! لقد جعلَ لنا الجنّة تشويقاً، والنار تنبيهاً! جعلَ في الحياةِ الموتَ والآلام. إنّ فلسفة كل ما في حياة البشر من مقدَّرات صعبة هي أن نستشعر يقظة هذا الحس في داخلنا، لكننا نطرق باب الله تعالى على الدوام طالبين إليه: «إلهي، عالج لي مشكلتي هذه!» فيخاطبنا الله: «فإن عالجتُها لك، ألا تعود ثمّة حاجة أخرى عندك؟! هذه المشكلة أنا مَن خلقَها لك! الآن، إذ قصدتَني لتخاطبني، ألم يَصْحُ فيك أيُّ إحساس آخر؟!» يُمسك الله تبارك وتعالى أحياناً عن قضاء حاجة عبده ليرى أيَصحو حس العبادة هذا فيه أم لا؟ وقد يقضي له حاجته ويحلّ عقدته سريعاً قائلاً له: «حسنٌ، أتريد الآن أن تعبُدني أم لا؟» ولربما زادَ عليه نعمتَين أُخريَين ليُريح بالَه، ثم يقول له: «والآن! ألا تأتيني فتعبدني؟!»

إذا استيقظ حسّ العبادة صار للذنب معنىً أيضاً

إنّ هذا أساساً هو الهدف من خلقتنا: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (الذاريات/٥٦). إذ يريد الله تعالى أن يصحو هذا الحس الإيجابي فينا. فإنْ صحا هذا الحس، وصل الإنسان إلى مرحلة الذنب؛ والذنب يعني خطابي لربي: «إلهي، لَم أُطِعْك!» حينذاك حتى لو قال الله تعالى: «لا بأس عليك يا عبدي...» يقول العبد: «إلهي، لماذا لا بأس عليَّ؟ بل هناك بأس كبير!» وهكذا هم أولياء الله؛ ألا وإنّهم لا يذنبون، بل وقيل إنهم «لا يتركون الأَوْلى» أيضاً، غير أنّ أموراً تطرأ عليهم هي بالتأكيد غير مريحة لهم، وهم إنما يبكون ويضجّون بالشكوى ويستشعرون كل هذا الحياء بسبب هذه الأمور بالذات!

تعالوا نجعل من العبودية ثقافة لنا ونادي بها باعتزاز!

إنّنا نريد أن نطلق تيّاراً، ونحوّله إلى ثقافة. بالطبع ثقافة متأصّلة فينا، لا ثقافة وتقليد كتقليد «السِّيزْدَه بِدَر» (عيد الطبيعة لدى الإيرانيين)! فإن لم يمارس امرؤٌ (إيراني) تقليد «السِّيزْدَه بِدَر» فإنه لا يُهلك نفسه بالنحيب، بل يقول، مثلاً: «طيّب، هذا العام طرأ طارئ فلم نستطع إقامة السِّيزْدَه بِدَر...» نحن نريد تحويل هذا الدين وهذا الحسّ العبادي فينا إلى ثقافة متأصّلة؛ ثقافة ننادي بظاهرها بأعلى أصواتنا، أمّا طبقاتها الباطنية فتُلهِب في أعماق أنفُسنا حُبّاً ضارياً وتُضرم في دواخلنا ناراً مُستعرة! نريد أن نصنع ثقافة فننادي: «إنّنا عَبَدةُ الله! إنّنا مُطيعو الله!» علينا أن ننادي بهذا باعتزاز، ومن شأن ندائنا هذا أن يوقظ القلوب ويُحدث في العالَم ضجّة! وحينذاك سيكشف أعداء العبودية عن أنفسهم رويداً رويداً. بالطبع الآن أيضاً تُشاهَد أصناف العِداء والبغضاء هذه. فأعداء البشرية، الذين يرومون أن ينصاع الإنسان إليهم، يصرّون على منعه من التوجّه نحو طاعة الله تعالى؛ لأنه إن أطاع الله عزّ وجلّ فسيرفض غيره ولا يرضخ لعدوّه!

لماذا يحجُب اللادينيّون أنفسَهم في دولة صاحب الزمان(عج)؟

عندذاك ستكتشف أنّ أصل قضية اللادين هي، في الحقيقة، مؤامرة سياسية؛ فالإنسان لا ينحو مَنحَى اللادين بهذه البساطة! في دولة صاحب الزمان(ع) سوف لن يُخدَع أحدٌ من أجل أن يُسلَب دينَه ولا يُكرَه على ترك دينه. لكن سيكون كلّ امرئ حُرٌّ في ترك دينه. غير أنّه إذا ترك المرءُ دينَه فسوف يُخفي نفسَه ويحجُبها بنفسه! لماذا؟ لعلمه بأنّ اللادين شيء قبيح وأنّ الناس يستقبحون هذا النمط من الحياة. وعليه، فإنه على الرغم من حُرّية اللادين، تراه لا يُعلن عن لادينيّته لأنه لا يرغب في أن يكون حقيراً في أعيُن الناس. عندذاك سوف لا يرى غيرُ ذي الدين لنفسِه شأناً ولا يشمخ بأنفه؛ ذلك أنَّ غريزة العبادة قد صحَتْ عند الجميع وبات الكُلّ يعرف أن حس العبودية هذا حسٌّ في غاية الروعة ومدعاةٌ لأيّما فخر والجميع يَطرَب له. وتؤول الأمور إلى حيث تُصبح طاعةُ الله سبحانه وخشيتُه مثاراً للفخار؛ وهو قول الناس: «إني أحب أن أطيع الله، إني أخاف الله!»

غاية مغازلة الله لعبيده هي توجيهُه الأمر إليهم

إنّ حِسّ العبادة غرام! وإن غاية مغازلة الله عزّ وجلّ لعبيده ومنتهى ذوبان العبيد بحبّ ربّهم يكمُن في أن يوجّه اللهُ لعبدٍ أمراً. ولهذا فإنه تعالى يوجّه للنبي(ص) أوامر أكثر منّا؛ فقد أمَرَه مثلاً أنّ: «صلاة الليل عليك واجبة!» طوبى لرسول الله(ص)، كم قد تلقّى من الأوامر أكثر منا! على أنّ الله سبحانه قد صمّمَ لأوليائه أوامرَ أخرى لا نبلغها نحن إطلاقاً، لأننا لا نصبر عليها. يقول رب العزة في الحديث القدسي: «يَا ابْنَ آدَمَ، أَنَا غَنِيٌّ لَا أَفْتَقِرُ، أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ غَنِيّاً لَا تَفْتَقِرُ. يَا ابْنَ آدَمَ، أَنَا حَيٌّ لَا أَمُوتُ، أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ حَيّاً لَا تَمُوت» (عدة الداعي/ ص٣١٠). في أيّ سنّ يستيقظ هذا الحس في الإنسان، وهو أن «يحب الإصغاء إلى الأوامر وامتثالها»؟ يجيب علماء النفس: منذ سِنّ السابعة! فلو أننا لم نُفسد أطفالنا لصَحا فيهم هذا الحس منذ السابعة من أعمارهم؛ فيبلغ هذا الحس الذروة في البنات في التاسعة من أعمارهنّ، وفي الأولاد في الرابعة عشرة؛ أي إنهم، في هذا العمر، سيحبّون أن يطيعوا أحداً.

يقول البعض بلسان إبليسي: "اِحمَد الله، لكن لا تُطِعْه!"

هل يرغب الإنسان في أن يطيع كلّ ما يحبّه؟ لا! فهو، مثلاً، يحب الطعام ويأكله. وهل يرغب المرء في أن يعبد كلّ ما يحبه؟ لا! فإنْ أحبّ عطراً، مثلاً، رغب في أن يشمّه؛ «كلٌّ بحسَبه». أما إذا عرف امرؤٌ اللهَ تعالى وأحبّه فسيحب أن يعبده ويطيعه. وهنا يبلغ البعضُ من التفنّن مبلغاً فيقول بلسان إبليسيّ: «تعال واعبد الله، وسبّحه.. اعترِف به، آمِن به، لكن لا تُطِعْه!» لاحظ ما الذي يصنعه الشيطان بأمثال هؤلاء! بل إنهم هم الأبالسة! لا بدّ لحسّ العبادة أن يشتبك مع حسّ الحسد، ومع حسّ حبّ الدنيا - بأنواعه وأشكاله - وهذان لا يقوَيان على مجابهة ذاك، لأن حس العبادة أقوى بكثير. فشهر رمضان المبارك، ولا سيّما إذا كان في أيام الصيف، يمثّل ساعات مغازلة مع الله عزّ وجلّ؛ فإنك فيه تقول وأنت صائم: «إلهي، انظر كيف أعبدُك، كيف أطيعُك!» لذا يتعيّن القول لمن لا يصوم في شهر رمضان: «لكن ماذا عن حبّك للعبادة؟ ماذا عساك تصنع معه؟ ألا تتأذى حين لا تُشبع إحساسك هذا؟! ثم ماذا ستصنع مع روحك حينها؟»

يقول الله: أطعني أكُن أذُنَك وعينَك!

يُـروَى عـن رسـول اللـه(ص) عـن اللـه عـزّ وجـلّ: أنَّ عبـدي إنْ أطـاع أوامـري فسـأكون أذُنَـه التـي يسـمع بهـا، وعينَـه التـي يُبـصر بهـا، وسـأكون لسـانَه، ويـدَه... : « وَمَـا تَقَـرَّبَ إِلَيَّ عَبْـدٌ بِـشَيْءٍ أَحَـبَّ إِلَيَّ مِـمَّا افْتَرَضْـتُ عَلَيْـهِ، وَإِنَّـهُ لَيَتَقَـرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَـةِ حَتَّـى أُحِبَّـهُ، فَـإِذَا أَحْبَبْتُـهُ كُنْـتُ سَـمْعَهُ الَّـذِي يَسْـمَعُ بِـهِ، وَبَـصَرَهُ الَّـذِي يُبْـصِرُ بِـهِ، وَلِسَـانَهُ الَّـذِي يَنْطِـقُ بِـهِ، وَيَـدَهُ الَّتِـي يَبْطِـشُ بِهَـا» (الـكافي/ ج٢/ ص٣٥٢).

سُـئل السـيّد فَخْـر الطهـراني(ره) عـن سـبب امتناعـه عـن تنـاول بعـض الأكلات بدعـوى «أن فيهـا شُـبْهَة» فقيـل لـه: «كيـف لـك أن تعـرف أنّ هـذا الطعـام قـد اشـتُرِي بمـالٍ اختلَـط ببعـض الحـرام؟» فقـال: «الطعـام نفسُـه يقـول لي: لا تأكلنـي! لمـاذا أنتـم لا تلتفتـون إلى ذلـك؟!» وهـذه أيضـاً مـن ثمـار العبـادة؛ فـإنّ الإنسـان إذا تقـرّب مـن اللـه عـزّ وجـلّ يتفتّـح سـمعُه وبـصرُه وينشـط حسُّـه. فهـو يحظـى بمثـل هـذه الفوائـد ناهيـك عـن اشـتياقه إلى بارئـه، وناهيـك عـن حُبّـه للطاعـة، وعـدم اكتراثـه لأيّ شيء آخـر، لأنـه يـودّ أن يُشـبع غريزتَـه العباديـة؛ أو بتعبـير أدق: يريـد أن يُـبرِز غريـزةَ عبوديّتـه وكونَـه مملـوكاً. واللافـت أن اللـه تعـالى يهَـب عبـده هـذه الفوائـد في إثـر عبوديّتـه، أمّـا العبـد الواصـل إلى هـذه المرحلـة فيقـول: «أنـا لا أريـد هـذه الأمـور، بـل أريـدك أنـت...».

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ١٩)

علي رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ٢٤/أيار/٢٠١٩ ـ ١٨/رمضان/١٤٤٠

المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)

الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

يودّ الإنسان لو يتعلّق بسلطةٍ ما ويطيع صاحبها/ إنْ لم يُشبَع حِسّ الطاعة لديك بامتثال أوامر الله تعالى فسيتّجه نحو الطاغوت/ يُثبت لنا التاريخ أن "مَن لم يُطِع وليّ الله أطاعَ عدوّه"

حسّ العبادة والطاعة هو إحساس ذاتي في الإنسان بحيث إنه إذا لم يُطع اللهَ عزّ وجلّ ولم يُقم له وزناً يأخذ بطاعة غيره وإقامة وزنٍ لسواه. إذ من غير الممكن أن لا يكون الإنسان "عبداً"، فإن لم تكن عبداً لله، فانظر عبدُ مَن أنت إذاً؟

ثمة في الإنسان إحساسان متضادّان: العصيان والطاعة!

ثمّة في الإنسان إحساسان متضادّان: ففيه خصيصة الرغبة في العصيان من جهة، وينتابه إحساسُ كونِه متعلّق بصاحب سلطةٍ ما وأنّ عليه طاعتَه من جهة ثانية. ومن الميسور مشاهدة ذلك في حياة الإنسان بشكل تجريبي أيضاً؛ على سبيل المثال، البعض، ممَّن يشبه فرعون في سلطانه وتجبُّره، تراه أحياناً يفتّش عن فرصة ليقول لأحدٍ ما: « سمعاً وطاعة»! إنّ جذور عصيان الإنسان لله تعالى ماثِلة في كيانه، وإنّ رغبته في طاعته عزّ وجلّ نابعة هي الأخرى من فطرته، حتى ليُمكن أن يقال لهذا الإنسان: «تعصي مَن أنت، وتطيع مَن أنت؟»

الإنسان لا هو عاصٍ محض ولا هو مُطيعٌ محض!

الإنسان لا هو «عاصٍ» بشكل مطلق، ولا هو «مطيع» بشكل مطلق؛ وهذا يعتمد على أنه في ماذا نشّطَ إحساسَيه هذين، ولأيّ داعٍ استخدمهما. حتى لَيُمكن القول: إن لم يكن المرء طائعاً لله فيتعيّن أن نسأله: «فمَن تطيع إذاً؟» وإن لم يقبل المرء بولاية الله المطلقة فيتحتّم سؤاله: «ولايةُ مَن قَبِلتَ، وغلامُ مَن أنت إذاً؟» فإن قال: «لستُ غلامَ أحد» فكلامه هُراء لا يُعتنَى به. فمن المتعذّر أن يقال: «إن الإنسان، أساساً، مخلوق مستقل!» فهو، أصلاً، لم يُخلق مستقلاً، والاستقلال بالنسبة إليه محال؛ أوَيُمكن أن يستقلّ الإنسانُ عن الله تعالى؟! فكما أنه، جسدياً ومادّياً، فقيرٌ في كل لحظة من لحظاته إلى اهتمام الله عز وجل فإنه، روحيّاً ونفسيّاً، فقيرٌ دوماً إلى اهتمام الله وإرادته.

حين يشاهد الإنسان سلطة الله تشتد فيه حالة التعلّق والانصياع

حالة التعلّق والانصياع التي تشاهَد عند الطفل تظل في الإنسان حتى يطعن في السن. بل قد نرى بعض المسنّين قد جعلوا أنفسَهم متعلّقين بأطفالهم. هذا التعلّق بسلطةٍ ما في الإنسان لا بد أن يكون بالسلطة المتمثلة بالله تعالى، لا بسواه. فلو شاهد الإنسان قدرة الله وتنبّه إليها لاشتدّتْ فيه حالة التعلّق والانصياع هذه! ولهذا نرى كم يُبرِز الله تعالى نفسَه في القرآن الكريم مقتدراً! وكم يُبيّن أنّه على كلّ شيء قدير، وأنّ غيرَه عاجز ولا أثر له في العالم! لاحظوا كم يحاول الله في القرآن الكريم أن يسلب الإنسانَ استقلالَه ويقول له: «أيّها الإنسان، إنّك حقّاً غير مستقل! ومهما سخّرتَ لنفسك الأدوات والأسباب، تبقى الأمور في يدي! بل إنك إن نظّمتَ شؤونك مرّةً وأنجزتَ عملاً ما بإتقان، ففي الحقيقة إنه أنا الذي أتَحتُ لك ذلك، ورتّبتُ لك الأمور. فلا تظنَّنّ أنك أنت مَن رتّبَ جميع الأمور بدقة فخرجَ بالنتائج!» سُئل أمير المؤمنين(ع) مرّةً عن مصدر ما يملكه من معرفة عالية بالله سبحانه وتعالى فقال، فيما روي عنه: «عَرَفْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِم» (نهج البلاغة/ الحكمة٢٥٠)؛ أي: عرفتُ اللهَ عن طريق تبديد الخُطَط التي أضعُها! فقد أعزِمُ على الأمر وأهيّئ له المقدّمات وإذا بخطّتي تنهار، ومن هنا عرفتُ أنّ الأمر في يد أحد آخر! والله يصنع هذا بعباده دائماً كي ينظروا إليه باستمرار! تلاحظون كيف يهوَى البعضُ أن يكون غلاماً ومريداً لغيره. وقد يَجمَع مستبدٌّ من ذوي العربدة حولَه عدداً من الصبيان يكونون دائماً في خدمته، وهم لا يستحون ولا يشعرون بالانكسار أبداً من كونهم في خدمته. فلقد استيقظ في داخلهم حس التبعية لسلطةٍ ما وشعور الطاعة لهذا الشخص المستبد، وهم يستمتعون بهذا.

القرآن الكريم يضبط حِسَّي العصيان والطاعة فينا/ التربية القرآنية هي مما يُعِدّ الإنسان لطاعة الله

حِسّ العصيان وحِسّ الطاعة موجودان كلاهما في الإنسان. والله عزّ وجلّ يعمل في قرآنه الكريم على ضبط هذين الحِسَّين في الإنسان، فينهاه عن عبادة الشيطان ويأمره بعبادة الله: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيم» (يس/٦٠ و٦١). وقد عَدَّ اللهُ تعالى في كتابه العزيز كونَ الإنسان عبداً أمراً حتميّاً وأنّه لا بدّ وأن يكون مريداً لأحدٍ ما وأن يحسبَ له حساباً. يقول تعالى، على سبيل المثال: «فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ» (المائدة/٣)! أي: أنا أعلم بأنه لا بد للخوف والهلع والقلق أن يراودك، لكن لماذا تخاف منه هو؟ خَفْني أنا! ألا إنني أفضل، وإنني أحامي عنك، وأنا رحيم، ولا أظلم.. إنني أنفعك، أمّا هو فلا يُجديك نفعاً. إنّ التربية القرآنية لفي قمة الجمال والروعة؛ إذ ينشئ القرآن الكريم الإنسانَ بحيث يقيم لله وزناً ويجد في نفسه الاستعداد لطاعته! بل لقد فعل الله تعالى في القرآن ما يجعل الإنسان يحسب لله حساباً؛ فإنّ طريقة كلامه هي مما يجعل الإنسان يتنبّه لحاله. بالطبع الذي قرأ القرآن ولم تصلُح حالُه فلا بد أنه يعاني من مشكلة، وهذا ما يتعيّن مناقشته في موضعه.

إذا لم يمتثل الإنسان أمرَ الله سيأخذ بامتثال أمرَ غيرِه

حِسّ العبادة والطاعة حِسّ ذاتي في الإنسان بحيث إنه إذا لم يطع اللهَ جلّ وعلا ويحسب له حساباً فإنه سيأخذ بطاعة غيره وحسابِ حسابٍ لسواه. فإن قلتَ للبعض مثلاً: «هذه الصلاة تُصلَّى بثلاث ركعات وهذه بأربع، هذا أمر الله ويجب امتثاله تعبُّداً» أجابك متعجرفاً: «كلا، لا بد أن أعرف لماذا ثلاث ركعات!» وإن دقّقتَ لوجدتَ أنّ هذا الشخص نفسه يتعامل مع مصدر أوامر آخر بشكل تعبّدي محض؛ أي إنه يضع نفسَه، أعمىً أصَمّ، في خدمة غير الله!

لا يمكن أن لا يكون الإنسان "عبداً"؛ إن لم تكن عبدَ الله فانظر عبدُ مَن أنت؟

لا يمكن أن لا يكون الإنسان «عبداً»؛ إن لم تكن عبدَ الله فعبدُ مَن أنت إذاً؟ إذا لم تكن متعبّداً لله فلمَن أنت متعبّد؟! واجهتُ أوائل انتصار الثورة بعض عناصر الزُمَر الإرهابية ممن كان لهم موقف مناهض جدّاً «للتعاطي مع أحكام الإسلام تعبّديّاً» ويسخرون من انصياع الناس للأحكام القرآنية، أما هم فكانوا يتعاطون مع أوامر التنظيمات المنتمين إليها بمنتهى التعبُّدية، ويقتلون البشر كشُربة الماء، لا لشيء إلا لأن «تنظيمهم أمَرَهم»! يتعيّن أن يقال لشخص كهذا: «ليس لك أن تهزأ بعباد الله لأنهم يمتثلون أوامره، لأنك أنت أيضاً عبد! كل ما في الأمر هو أنه ينبغي أن نرى: عبد من أنت؟ مَن تريد أن تطيع؟

البعض يؤمن بالطاغوت عوضاً عن الإيمان بالله!

يقول الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز: «اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوت» (النحل/٣٦). ومَن هو الطاغوت؟ إنّه الذي يتغطرس ويتجبَّر.. إنه الذي يزعم أن له سلطاناً.. إنه الذي يخيفك ويرعبك.. إنه مَن ترغب أنت في التقرّب منه كي ينالَك شيءٌ من سلطانه. ويحدّثنا القرآن بأنّ البعض يؤمن بالطاغوت عوضاً عن إيمانه بالله: «يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ» (النساء/٥١)؛ والمراد مِن «يؤمنون بالطاغوت» هو أنهم يمتثلون كل ما يأمرهم الطاغوتُ امتثالَ الأعمى ويثقون به. وما حِسّ العصيان في الإنسان بسيِّئ في أصله، لكن المفترض هو أن يتجذّر هذا الحس في نفوسنا ضد إبليس والطاغوت فنعصيهما! وكذا الكفر، فهو ليس صفة سيئة في الأصل، لكن أيُّ كفر؟ إنه الكفر بالطاغوت! يقول عز من قائل: «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِالله» (البقرة/٢٥٦)؛ فإنه يتوجب عليكم الكفر بالطاغوت والوقوف أمامه بشدة؛ فلا بد أن تحملوا تجاه الطاغوت مشاعرَ الكفر ذاتَها التي يحملها الكفار تجاه الله عزّ وجلّ. وقد جعل الله تعالى الطاغوتَ في القرآن الكريم في إزائه هو؛ فكأنّما يخاطب الإنسان قائلاً: «أيّها الإنسان، إمّا أن يكون الله هو مصدر القوة الذي تتشبّث به أو أن يكون الطاغوت! اختَر أنت بنفسك!»

في التعاليم الدينية الشائعة لا يقال: "إن لم تصبح عبداً لله ستصبح عبداً للطاغوت!"

مع الأسف إنّ ما يعيب أكثرَ تعاليمنا الدينية، التي تُدرَّس في الحوزة والجامعة والمدرسة والمسجد، عموماً هو أنها تدعو الناس إلى العبودية لله تعالى لكنها لا تنهاهم عن عبادة الطاغوت! هذا وكتاب الله يأمرنا بـ«أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوت» (النحل/٣٦). وهذا، على حَدّ قول القرآن الكريم، شعارُ الأنبياء. إذاً لا يجوز أن تكتفوا بموعظة الناس «كونوا عباداً لله»، فيردّ البعض: «أنا لا أرغب في أن أكون عبداً لله!» بل عليكم أن تصرّحوا بالوجه الآخر من العُملة وهو: «إن لم تكن عبداً لله فإنّك عبدٌ للطاغوت، عبدٌ لإبليس!» قولُنا بأن تعاليمنا الدينية خاطئة نوعاً ما هو لأنّ وجهاً واحداً من العملة هو الذي يُصرَّح به فيقال: «لماذا تكفُر بالله يا هذا؟! آمِنْ به!» أمّا وجهُها الآخر فيُسكَت عنه، وهو «إنك إن كفرت بالله يا هذا فستؤمن بالطاغوت لا محالة!»

يؤمن البعض بالديمقراطية الغربية ولا يطيق انتقاصها!

يؤمن البعض بالديمقراطية الغربية وبالأنظمة الرأسمالية الانتهازية المجرمة؛ أي يؤمن، في واقع الأمر، «بالطاغوت». وهو على جانب من التعلّق بها والتعصّب لها بحيث ما إن تنقُد هذه الديمقراطية حتى تثور حفيظته أيما ثورة إلى درجة أنه يبدأ بشتمك! في حين أن عدداً من مُفَكّري الغرب ينقدون الديمقراطية أيّما نقد، ويعدّونها خدعة. علينا، إذا علّمْنا الناسَ العبودية لله سبحانه وتعالى أن نقول لهم أيضاً: «إنْ لم تُصبح عبداً لله فعبدُ من تُصبح إذاً؟» وفي هذه الحالة سيخاف أن يكون عبدا للشيطان أو للطاغوت، وسيميل، بطبيعة الحال، إلى أن يصير عبدا لله جل شأنه. لكنه لا أحدَ في عصرنا يحمل، عادةً، هذا التصوّر، لذا نستطيع القول إن أسلوبنا في تعليم الدين والدعوة إليه خاطئ. كان لدينا بعد انتصار الثورة فرصة أربعين عاماً لزيادة عدد عبَدَة الله من خلال إظهار «قباحة عبادة الطاغوت»، لكننا لم نستغلّ هذه الفرصة كما ينبغي.

هـذا مـا يعلّمنـا إيّـاه القـرآن الكريـم: «عوضـاً عـن أن تخافـوا سـطوة الطاغـوت خافـوا سـطوة اللـه: «فَـلا تَخَافُوهُـمْ وَخَافُـونِ إِنْ كُنْتُـمْ مُؤْمِنـين» (آل عمـران/١٧٥). أمـا نحـن فنقـول: «خَـفِ الله» وحسـب! فـإن قـال أحدهـم: «لم أصـل مرحلـة الخـوف مـن اللـه لحـد الآن!» كرّرنـا عليـه الموعظـة بقولنـا: «كـن خائفـاً رجـاءً!» والحـال أنّ علينـا التنبيـه إلى الجانـب الآخـر مـن القضيّـة وهـو: إنّـك إن لم تخَـف اللـه فسـتخاف الطاغـوت وتطيعـه.

يثبت لنا التاريخ أنّ "مَن لا يطيع وليَّ الله يطيعُ عدُوّ الله"

لقـد أثبـت لنـا تاريـخ الإسـلام أنّ كلّ مَـن لا يطيـع وليّ اللـه يطيـع عـدُوّ اللـه، بـل ويضَحّـي في سـبيله ويبـذل النفـس لأجلـه مـن دون أي مقابـل، بـل ولا يطالـب بـأي نفـع! ففـي حـرب صفّـين، مثـلاً، كـما تنقـل بعـض الأخبـار، قاتـلَ وقُتِـل في معسـكر معاويـة في مواجهـة عـلي بـن أبي طالـب(ع) سـبعون ألـف رجـل؛ أي إنّهـم تمسّـكوا بولايـة الطاغـوت، فحاربـوا وليّ اللـه، وقُتلـوا؛ هنـا يضـع اللـه تعـالى قُبـحَ هـذا الفعـل أمـام أنظارنـا. عوضـاً عـن أن تواصـل تثمـين جهـود الشـهداء الذيـن قاتلـوا بـين يـدي أبي عبـد اللـه الحسـين(ع) وأمـير المؤمنـين عـلي(ع) اِرمِ بطَرفِـكَ مـرّة واحـدة إلى الطـرف الآخـر (في المعسـكر المقابـل) وانظـر كـم مـن الرجـال قـد ألقـوا بأنفسـهم إلى التَهلُكـة؟! ولاحـظ أيّ كَـمّ هائـل مـن النـاس بـادُوا بسـبب استسـلامهم للطاغـوت؟! أَثِـرْ هـذا التسـاؤل: «أرَكّـزَ تاريـخُ الإسـلام أكـثر مـا رَكّـز عـلى إظهـار مـدى حُسْـن ولايـة وليّ اللـه، أم بيـان قُبـح ولايـة الطاغـوت؟» قـارن حجـمَ الروايـات التاريخيـة الـواردة في كلا المسـألتين! مثـلاً، كـم سـنة حكَـمَ أوليـاء اللـه كَكُل، منـذ زمـان رسـول اللـه(ص) حتـى صاحـب الزمان(عـج)؟ ثـم انظـر كـم سـنة حكَـمَ أوليـاء الطاغـوت؟

يصبح الناس أحياناً جنداً للطاغوت بسكوتهم وعدم نصرتهم للحق

لم يجعل القرآن الكريم حدّاً وسطاً بين عبادة الطاغوت و عبادة الله تعالى؛ أي إنك إما أن تكون عبداً لله أو عبداً للطاغوت! والطاغوت يَعرف كيف يستغلّ أولئك الذين لم يتولّوا الله تعالى؛ فهو تارةً يستغلّ سكوتَهم، وتارةً أخرى عدمَ نصرتهم للحق ولوَلِيّ الله، حتى يصبح جميعُهم جنداً للطاغوت! لماذا لم ينصُر أكثرُ الناس الحسينَ(ع)؟ لأنهم خافوا من خصمه. والذي يخاف الطاغوت يصير - في واقع الأمر - عبدَه. بل لقد جاء في الخبر أنّ: «مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَه؛ فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ عَبَدَ اللهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ عَبَدَ الشَّيْطَانَ!» (الكافي/ ج٦/ ص٤٣٤). وليس المراد أن تُصغي لتنفّذ. بل إنّ مجرّد إصغائك يُصيِّرك عبداً له! فلماذا منحتَه كلّ هذه القيمة كي تصغي لكلامه؟

يودّ الإنسان لو يتعلّق بسلطةٍ ما ويطيع صاحبها/ إنْ لم يُشبَع حِسّ الطاعة لديك بامتثال أوامر الله تعالى فسيتّجه نحو الطاغوت

من أين يصدُر الذنب؟ يصدُر من حيث يوجّه الله الأوامر! ولماذا يوجّه الله الأوامر؟ ليتمّ إشباع حس الطاعة لدَيَّ، وإلّا فإن لم يُشبَع هذا الحس بطاعة الله، فسيتّجه نحو الطاغوت؛ هكذا هو الإنسان. يا حبّذا لو أنّ علم النفس اشتغلَ أكثر في هذا المجال (أي في حقل علم نفس العبادة والطاعة، والذنب والمعصية) ليثبت تجريبيّاً للعالم أجمع، لا للمسلمين والمسيحيّين فحسب، كيف «يودّ الإنسان لو يتعلق بسلطةٍ ما، يحب أن يكون تبعاً، وأن يطيع صاحب هذه السلطة.. أن يحسبَ له حساباً.. أن يتقرّب من هذه السلطة ليستشعر الأمان». لكن أين عليه أن يعثر على هذه السلطة؟ عند الله تعالى! إذ يقول الله لك: إن لم تُطعني فقد أطعتَ الطاغوت أو الشيطان، وهو عدوّك: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (يس/٦٠).

لا ندعوَنَّ الناس إلى نصف طاعة الله تعالى!

إنّ مـن المحظـور تمامـاً أن تُخـبر النـاس عـن نصـف الدعـوة إلى طاعـة اللـه وتسـكت عـن نصفهـا الآخـر! ومـا هـو ذلـك النصـف الـذي يُسـكَتُ عنـه في العـادة؟ هـو: «إنّـك إن لم تؤمـن بهـذه الجهـة، فانظـر بمَـن قـد آمنـتَ؟ إنـك إن لم تُطـع هاهنـا تعبّـداً، فمَـن أنـت تطيـع تعبُّـداً إذاً؟ أتريـد، إذاً، أن تؤمـن بالطاغـوت؟! تُريـد أن تكـون عبـداً لـه إذاً؟! تريـد أن تكـون عبـدَ إبليـسَ إذاً؟! لقـد وضـع اللـه تعـالى إبليـسَ في الجهـة الأخـرى وخوّفنـا قائـلاً: «لـوذوا بي أنـا»، ثـم نـأتي نحـن ونريـد أن ندعـو النـاس إلى اللـه هكـذا مـن دون أن نخوّفهـم مـن الطاغـوت ومـن إبليـس!

لقد أراد الله أن يرينا عبر عاشوراء عاقبة عبادة الطاغوت

هـل أراد اللـه تعـالى عـبر حادثـة عاشـوراء أن يرينـا تضحيـات الإمـام الحسـين(ع) ويجعلـه عندنـا عزيـزاً، أو أراد تعريفنـا بأعـداء الإمـام الحسـين(ع)؟ لقـد أراد اللـه بذلـك أن يرينـا عاقبـة عبـادة الطاغـوت. لقـد أراد الإمـام الحسـين(ع) أن يثبـت لنـا: «إنـك إن رفضـتَ ولايـة الحسـين صرتَ عبـداً ليزيـد، وضِعـتَ مـن أجـل الطاغـوت، حتـى وإن كنـتَ رافضـاً ليزيـد!» آلاف الرجـال قُتلـوا في كربـلاء بسـيف الإمـام الحسـين(ع) وسـيوف أصحابـه، وفي سـبيل يزيـد الـذي لم يكونـوا يؤمنـون بـه أيضـاً! لكنهـم أصبحـوا في النهايـة عبيـداً للطاغـوت وضاعـوا مـن أجـل يزيـد. هـذه هـي حـال الدنيـا، وهـذه هـي السُـنَن الإلهيـة المسـيطرة عـلى الوجـود! إن لم تكـن عبـدَ وليِّ اللـه، فعبـدُ مَـن أنـت إذاً؟ عبـد أيّ طاغـوت أو شِـبهَ طاغـوت أنـتَ إذاً؟ أفصحْ عـن الجانـب الآخـر مـن القضيـة! لكـن تعاليمنـا الدينيـة الشـائعة، مـع الأسـف، ليسـت هـي مـما يبـيّن للنـاس هـذه الحقيقـة، في حـين أن القـرآن الكريـم يرسـم للإنسـان هـذه الحالـة ويحثّـه عـلى اجتنـاب الطاغـوت. أو يقـول لـه: «فَمَـنْ يَكْفُـرْ بِالطَّاغُـوتِ وَيُؤْمِـنْ بِاللـهِ فَقَـدِ اسْتَمْسَـكَ بِالْعُـرْوَةِ الْوُثْقَـى» (البقـرة/٢٥٦)؛ فهـو يقـدّم الكفـر بالطاغـوت عـلى الإيمـان باللـه عـزّ وجـلّ.

إن اكتفينا بتعليم الناس الإيمانَ بالله ولم نعلِّمهم الكفر بالطاغوت لشابَهَ نهجُنا نهجَ بني أمية!

إذا نحنُ سكَتْنا في مناهجنا التعليمية عن الكفر بالطاغوت واكتفينا بتعليم الإيمان بالله تعالى لشابَهَ نهجُنا التعليمي نهجَ بني أمية! فعن الإمام الباقر قوله: «إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ أَطْلَقُوا لِلنَّاسِ تَعْلِيمَ الإِيمَانِ وَلَمْ يُطْلِقُوا تَعْلِيمَ الشِّرْكِ لِكَيْ إِذَا حَمَلُوهُمْ عَلَيْهِ لَمْ يَعْرِفُوه» (الكافي/ ج٢/ ص٤١٥-٤١٦)؛ أي: فيما إذا جرّوهم إلى الكفر والشرك لم يلتفتوا إلى ذلك. وكانت مشكلة أمير المؤمنين(ع) مع القوم أيضاً هي: أنّكم إن لم تقبلوا بولاية عليّ(ع) فستقبلون بولاية الطاغوت! لقد خاض عليّ(ع) ثلاثَ حروب ليثبت للناس أنّ: «كلّ مَن لا يقف مع عليّ(ع) سيقف مع عدوّه، بل وسيبذل دمه في سبيله أيضاً!» أي كان أمير المؤمنين(ع) قد بيّن للناس الوجه الآخر من العُملة. أكثِرْ من الوقوف على أعتاب أهل البيت(ع) وخَفْ كثيراً من أن يتركوك! توسّل بأمير المؤمنين(ع) قائلاً: «لا تتركني.. إن تركتَني صرتُ عبداً للطاغوت، وهذا أمر رهيب! لا أريد أن أموت وأُفنِي نَفسي في سبيل رجلٍ كيَزيد!»

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ٢٠)

علي‌رضا بناهيان

الزمان: ٢٧/أيار/٢٠١٩ ـ ٢١/رمضان/١٤٤٠

المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)

الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

كيف يربّي الله عبيده، وكيف يربّي غيرُه عبيده؟/ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» تعني: لا يكفي أن تقول: "أنا أعبدك"، بل لا بد أن تقول: "سوى الله لا أعبد"/ الذي يرفض العبودية لله يعترض على الله بكل سهولة

العيب الكبير الذي في مناهجنا لتعليم الدين هو أنها تسعى لإثبات وجود الله لنا ثم تقول: "والآن كن عبدًا لله!" ولهذا يتمرّد البعضُ قائلاً: "كلا! أنا لا أريد أن أكون عبدَ أحد، أريد أن أكون حُرًّا!" والحال أنه كان يجب أن يقال لأمثال هؤلاء: "إن لم تكن عبدًا لله فستكون عبدًا لسواه لا محالة!"

بعد الإيمان بالله والتصديق به يأتي الدور لعبادته

من أجل أن نتقبّلَ أوامر الله تعالى، ويصبحَ موضوع الذنب ذا أهمية لنا، ونحذرَ دائمًا معصية الله عز وجل فإنه يتوجب علينا اجتياز مراحل تربوية، وهي مراحل في وسع الإنسان إدراكها وتطبيقها في وجوده حتى من دون دين. لو استطاع امرؤٌ، بادئ ذي بدء، أن يبني لنفسه «شخصية مناسبة» ويتمتعَ بحياة سليمة فسيكون في وسعه أيضًا امتلاك الأُهبة للتدين. فمَن يكون مُمَنهجًا لحياته، مُدَقّقًا في شؤونه، مراقبًا لنفسه سيكون - عمومًا - على استعداد لتقبل الدين؛ ذلك أن مركز التكاليف الدينية هو «التقوى»، وما التقوى إلا الدقة والمراقبة. والآن لا بد من الاهتمام بهذه الدقة والمراقبة في سلوك الإنسان، وفي نيته على حد سواء. الذي يتمتّع بشخصية مناسبة وعيشٍ سليم لا يعود تصديقُه بالله أمرًا شاقًّا؛ أي إنه سيصدّق بالله بكل سهولة. غير أن القصة لا تنتهي بالتصديق بالله تعالى، بل بعد أن يصدّق الإنسان بالله سيكون عليه أن يعبدَها!

للإنسان خصيصة هي حس العبادة، والتبعية، والعبودية!

إن لنا نحن معاشر البشر خصيصة تدعى «العبادة، والتبعية، والعبودية» وإن علينا إيقاظها في داخلنا. فإن لم تستيقظ بمشاهدة الذين يطيعون لله تعالى، فإن باستطاعتنا إيقاظها في أنفسنا بمشاهدة الذين يمتثلون أوامر غير الله والذين هم عبيدٌ لما سوى الله! كأن نسألهم: «لماذا أنتم عبيدٌ لغير الله؟ لقد كنتم أحرارًا وكان بإمكانكم أن لا تكونوا عبيدًا لأحد، فلماذا أصبحتم عبيدًا؟!» نظرة القرآن الكريم للإنسان هي أنه يقول له: «لا تعبد غير الله!» لكن السؤال هو: مَن الذي يريد أن يعبُد أصلًا؟ والجواب: «إنما خلق اللهُ الإنسانَ عبدًا وليس باستطاعته أن لا يكون عبدًا! فإن لم يصبح عبدًا لله، فمن الطبيعي إذن أن يصبح عبدًا لغيره! وهذا بالذات هو التعليم الديني الجوهري الذي لا يُعلَّم للناس بشكل جيد! العيب الكبير الذي في مناهجنا لتعليم الدين هو أنها تسعى لإثبات وجود الله عز وجل لنا ثم تقول: «والآن كن عبدًا لله!» ولهذا يتمرّد البعضُ قائلًا: «كلا! أنا لا أريد أن أكون عبدَ أحد، أريد أن أكون حُرًّا!» والحال أنه كان يجب أن يقال لأمثال هؤلاء: «إن لم تكن عبدًا لله فستكون عبدًا لسواه لا محالة!»

الذي يرفض العبودية لله يعترض على الله بكل سهولة

مَن يكون عبدًا لله تعالى حقًّا لا يعترض على الله، أما الذي ليس عبدًا لله فتراه يعترض على الله بكل سهولة! بالطبع لربما تكون الاعتراضات التي يسوقها على الله معقولة في الظاهر أحيانًا! كأن يقول: «إلهي، لماذا خلقتَ هذا الطفل مشلولًا؟ أين عدلُك إذن؟! في حين أن الله حين خلقه مشلولًا فإنه لا يتوقّع منه أكثر ما يتوقّعه من إنسان مشلول، أو إنه حين خلقه مشلولًا فلا بد أن يكون أعطاه نعمات بديلة! لكن المعترض على الله لا يرى هذه الأمور. وكذا حين يقع بعضهم في ورطة أو مشكلة فتراه يعترض على الله ويحسبُه السبب في كل مشاكله! والحال أن هذا الشخص هو مَن خلَقَ لنفسه هذه المشاكل في الأساس! وهذه مؤشّرات من لم يتقبّل العبودية لله جَلّ وعلا.

عبد الله لا يعترض على الله، وكذلك عبد الطاغوت فهو لا يعترض على الطاغوت!

واللافت أن الذي يصير عبدًا للطاغوت لا يعترض على الطاغوت، مع أن الأخير يحطمه.. يسحقه تحت قدميه، ومع ذلك كله فإن عبده هذا لا يعترض عليه! وهكذا هم بعض المتغرّبين - المولَعين بالغرب والظانّين أن أمريكا زعيمة العالم بلا منازع - إذ لو أخبرتَهم وبيّنتَ لهم مقدار ما تمارسه أمريكا في حقهم، الآن تحديدًا، من جرائم لا يتخلّون عن تغربّهم وولَعهم بالغرب، ولا يعترضون! ونحن نسمي هؤلاء متغرّبون لكنهم في الواقع عباد الطاغوت! حين تُخبِر أمثال هؤلاء بأن: «البريطانيين الخبثاء هم أنفسهم من تسبب في هلاك تسعة ملايين نسمة في إيران جرّاء القحط!» فإنهم لا يعون أبدًا هذه الجريمة الواضحة ولا يتضايقون منها، في حين أن وثائقها موجودة. ومع الأسف فإن هذه الوثائق لا تُدَرَّس لأطفالنا في مناهج التاريخ المدرسية. عبد الله لا يعترض على الله، وكذلك عبد الطاغوت فهو لا يعترض على الطاغوت! على أن الفرق بينهما هو أن عدم اعتراض عبدِ الله على الله يستند إلى منطق، أما عبد الطاغوت فلا منطق لعدم اعتراضه على الطاغوت. وإن عين وأُذُن عبدِ الله تنفتحان، أما عين وأُذُن عبد الطاغوت فتَعمَى وتَصَمّ!

«إِيَّاكَ نَعْبُدُ» تعني: لا يكفي أن تعبد الله، بل لا بد أن تقول: "سوى الله لا أعبد"

تتناول سورة الحمد قضية عبادة الله وعبادة ما سوى الله هذه بشكل واضح جدًّا، حين تقول: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» (الفاتحة/٥)؛ أي: أنا أعبدك أنت فقط، ولا أعبد سواك! لكن هل كان يُفترض أن نعبد أحدًا آخر أصلًا؟ أجل، بل إن الموضوع من الأساس هو أنك إن لم تكن عبدًا لله، فانظر عبدُ مَن أنت إذن؟ يؤكد الله تعالى في سورة الحمد، التي علينا قراءتها عدة مرات في اليوم، قائلًا: «إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيّاكَ نَستَعِينُ» (الفاتحة/٥)، مع أنه كان بإمكانه القول: «نعبدُك اللهُمّ»! والمعنى: لا يكفي أن تعبدني، بل يجب أن تقول: «أنا لا أعبد سواك». بل اعلَم أنك عندما شرعتَ بعبادتي فقد امتنعتَ عن عبادة غيري!

حـين أراد يوسـف الصديـق(ع) التحـدُّث إلى صاحبَيـه في السـجن وتعليمهـما عقيدتهـما قـال: «يَـا صَاحِبَـيِ السِّـجْنِ أَأَرْبَـابٌ مُتَفَرِّقُـونَ خَـيْرٌ أَمِ اللـهُ الْوَاحِـدُ الْقَهَّـارُ» (يوسـف/٣٩). هـو لم يقـل: «اعبُـدا اللـه!» بـل قـال: «أَأَرْبَـابٌ مُتَفَرِّقُـونَ خَـيْرٌ أَمِ اللـهُ الْوَاحِـدُ»؟ أي إن الأمـر يـدور بـين قضيتـين اثنتـين: إمّـا عبـادة آلهـة متفرقـة أو عبـادة إلـه واحـد. النقـاش يـدور حـول أنـه: «عبـادُ مَـن نحـن؟» فالقائـل: «لا أريـد امتثـال أمـرَ اللـه!» لا بـد أن يقـال لـه: «أمـرُ أيِّ رَبٍّ تريـد أن تمتثـل إذن؟»

كيف يربّي الله عبده وكيف يربّي غيرُه عبده؟

يتصـف الإنسـان بخصائـص معيّنـة حينـما يصـير عبـدًا للـه ويمتثـل أمـره. لاحـظ كيـف يـربي اللـه تعـالى عبـده: عـلى سـبيل المثـال، لا يعاقـب اللـه عبـاده عـلى الفـور إن وجّـهَ إليهـم أمـرًا فلـم يمتثلـوه! كـما لا يُعَجِّـل في تشـجيعهم إن امتثلـوه أيضًـا! فـإن أصـدر لعبـاده أوامـر تـركَ حسـابَهم ليـوم القيامـة! لاحظـوا كـم يجعـل هـذا التـصرف العبـادَ كرامًـا! واللـه تعـالى لا يخـدع عبـاده إذا أَمَرَهـم أمـرًا، أمـا الدعايـات الإبليسـية فمليئـة بالخـداع. بـل إن الشـيطان، عـلى حـد نقـل القـرآن الكريـم، هـو يقـول: «لَأُزَيِّنَـنَّ لَهُـمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُـمْ أَجْمَعِـين» (الحِجْـر/٣٩)؛ أي أزيّـن للنـاس مـا في الأرض والدنيـا وأُظهِـرُه جميـلًا! أمـا اللـه فـلا يخدعنـا ولا يُظهِـر الأشـياءَ لنـا أجمـل مـما هـي عليـه. بـل إنـك لتشـعر أحيانًـا عنـد قراءتـك القـرآن الكريـم أن اللـه يتحـدث إليـك بفظاظـة؛ مـع أنـه كان بمقـدور اللـه عـز وجـل أن يُنـزِل كتابـه بمـا يجـذب الجميـع إليـه، غـير أن مـا أُودِع في القـرآن الكريـم مـن قـوّة جَـذْب ودَفْـع هـما مـما يمنـح الإنسـان توازنًـا. ولـذا يتوجـب أن تسـعى بعـض السـعي لأن تنجـذب لأشـكال الحـلاوة في القـرآن الكريـم. روي عـن الإمـام الصـادق(ع) قولـه: «القُـرْآنُ كُلُّـهُ تَقْرِيـعٌ وَبَاطِنُـهُ تَقْرِيـب» (معـاني الأخبـار/ ص٢٣٢)؛ أي: إن ظاهـرَ لهجتِـه تقريـع وفظاظـة لكـنْ مـا إن تدخـل في عالمِـه حتـى تـراه جميـلًا! لكـن لمـاذا يفعـل اللـه تعـالى ذلـك؟ يفعـل ذلـك لأنـه لا يريـد دعوتنـا إليـه عـبر دعايـات جذّابـة وحسـب.

الله تعالى يمنح عباده قوة

الله جل وعلا يعرف الطريقة المُثلى لتربية عباده وهو يمنحهم العظمة والمَنَعة. وكل من يصير أكثر عبودية له يصبح أشدَّ بأسًا، وتنفتح عينُه وأذنُه أكثر. بل إنه تعالى يجعل من عبيده قُوًى عظمى؛ وإنكم لتشاهدون أي قدرات خارقة ينالها العرفاء! إذا جعل الله تعالى شخصًا عبدًا له منَحَه قوة وعظَمة. لكن انظر ما الذي يصنع غيرُه بالشخص إذا صيّره لنفسه عبدًا؟! إبليس مثلًا إذا جعل شخصًا ما عبدًا له قال له: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ» (الحشر/١٦)، أما الذي يصبح عبدًا لله عزّ وجلّ فإنه حتى إن أذنبَ وتابَ يقول الله له: إني أحبك: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِين» (البقرة/٢٢٢).

القضية هي: أنصير عبيدًا لله أم لغير الله؟

قضيتنا ليست أن نصير عبيدًا لله أو لا نصير! بل: أنصير عبيدًا لله أم لغير الله؟ منطقنا هو: تعالوا نصبح عبيدًا لله جلّ وعلا لأن الله يستطيع أن يُصلح أمورنا، أما غير الله فلا يستطيع ذلك. يقول الله: في إمكاني أن أبدّل السيئات حسنات؛ إن أفسدْتَ أنت أمرك، فأنا أُصلحه لك: «فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَنات» (الفرقان/٧٠). هناك فرق كبير بين العبودية لله والعبودية لسواه. ترى كيف يربّي الله عز وجل عبدَه؟ إنه يفعل ذلك بشهامة وكرامة لا حدود لهما! وكيف يربّي سواه عبدَه؟ إنهم يسلكون مع عبيدهم سلوكًا غير إنساني؛ كأن ينشئوهم مَشروطي السلوك عن طريق العقاب والثواب الآني؛ بالضبط كما يُفعَل بالحيوان إنْ أُريد جعلُه مشروط السلوك؛ فيثيبوه في الحال كلما نفّذَ أمرًا، ويعاقبوه في الآن كلما أخطأ! ليست القضية أننا أساسًا نكون عبيدًا أو لا نكون؟ بل القضية هي: عبيد مَن نكون؟ فأولئك الذين رفضوا ولاية علي بن أبي طالب(ع) صاروا عبيدًا أذلاء لِمَن فيما بعد؟! لأمثال الحجاج بن يوسف الثقفي، السفاك الجلاد الذي كان يقتُل لمجرّد التهمة دونما تحَرٍّ! كان من سعادة المرء (في ظِلّ حُكمه) أن لا يكون له عدو، وإلا فما أسهل ما كان يُتَّهَم الشخصُ ويُعتَقَل وتُضرَب عنقُه لمجرد معاداته لشخصٍ ما، من دون تحَرٍّ فيما إذا كانت التهمة ضده صادقة أصلًا أم لا!

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ٢١)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ٢٩/أيار/٢٠١٩ ـ ٢٣/رمضان/١٤٤٠

المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)

الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

المعصية ليست عصيان الله فقط، بل هي عصيان الرسول(ص) أيضًا/ "إطاعة الرسول" تكرّرتْ في القرآن الكريم أكثر من "إطاعة الله"/ ما مصير "إطاعة الرسول والإمام" في زمان الغيبة؟

ما الحكمة من وجود النبي؟ هل هو "رسول من الله" وحسب؟! فَهْم عامة الناس للرسول - في العادة – هو أنه الشخص الذي يأتي ببلاغ من الله تعالى ولا غير، وهو فَهْم خاطئ! فالموضوع المحوري للدين هو "الأمر"، وإن الحكمة من وجود النبي هو كونه "قائدًا: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله» (النساء/٦۴).

يمكن لموضوعَي الطاعة والمعصية أن يشكّلا أكبَر شاغل لنا في الحياة

لو فَهِم الناس مسألة الطاعة والمعصية فهْمًا صحيحًا لشكّلَ «تنفيذُ الأوامر» حقًّا أكبر شاغل مُمتع للإنسان، بل الشاغل الممتع الوحيد له. أي سيكون شغل الإنسان الشاغل أو أنسُه في الحياة هو تساؤلاته: «الآن ما هي الأوامر؟ أَنَفّذتُ الأوامرَ أم لا؟» إن لموضوع الطاعة والمعصية من الجاذبية ما يجعل الإنسان مُولَعًا به متوَلِّهًا بالأوامر؛ بالضبط كالمُقامِر الذي يكون للفوز عنده من السِحْر ما يجعله مستعدًّا لخسران كلِّ مالِه في سبيله! أو كمُدمِني الألعاب الإلكترونية إذ أنها تشغَلُهم وتُلهيهم إلى درجة أنهم ينسون معها كل شيء ويقضون معها كل أوقاتهم. إنه ليتعيَّن حقًّا النظر إلى موضوع الطاعة والمعصية «كأكبر شاغل» للإنسان. وهل من المعقول أن يكون هذا الموضوع محور القرآن الكريم ثم يكون قليل اللذة والإثارة للناس؟! كل ما في الأمر أن جاذبية الطاعة والمعصية ليست واضحة كل الوضوح، وهي لا تُدرَك ابتداءً؛ بل - على العكس - قد تبدو في البداية مُرّة ومدعاةً لفرار الناس منها.

لكي يحظى "الذنبُ" عندنا بأهمية لا بد "للأمْر" أوّلاً أن يشكّل عندنا موضوعًا مهمًّا

إنْ أحببنا أن نجعلَ من «الذنب» موضوعًا مُهمًّا عندنا فمن الواجب علينا، قبل ذلك، أن نحوّل موضوعَ «الأمر» لدينا إلى موضوع ذي أهمية. وإنّ مَن يكون طالبَ منفعة، ومُمنهِجًا لحياته، وأهلَ منافَسة، ويُقرّ بقيود الدنيا، ويؤمن بعالم الآخرة والمعاد يكون على استعداد كبير لامتثال الأوامر. على سبيل المثال إنّ الملتفِت إلى أنّ في الدنيا أخطارًا كثيرة تتهدّدُه وأنها أشبه بحقل الألغام، من الطبيعي أن يطيع أوامرَ مَن يريد أن يجتاز به هذه المخاطر. وصَلنا في بحثنا في المحاضرات الفائتة إلى أن الإنسان، بدافع طلبه للمنفعة، يفتش عن منهاج يُعِينُه على بلوغ أفضل منافعه وأسماها في هذه الدنيا المليئة بالأخطار والمعضلات، وإن أعلى منفعة للإنسان هو الله نفسُه. حينذاك سيكون هذا الإنسان مستعدًّا لامتثال الأوامر، ومن ثم يصبح «عاشقًا» أيضًا بشكل تدريجي.

يأخذ الإنسان بالتفتيش عن أوامر الله إذا استيقظ حِسُّ العبادة فيه

نريد أولًا أن نُقنع الشخص بامتثال الأوامر، حتى إذا اقتنع بذلك صارَ هو مُحِبًا للأوامر. وإنما سيحب الأوامر إذا استيقظ في داخله «حسُّ العبادة»! إذ من الطبيعي أن يأخذ الإنسان بالتفتيش عن الأوامر إذا استيقظ فيه هذا الحس؛ أي إن هذا الإنسان نفسَه، الذي كان يحب أن يفعل ما يحلو له انقيادًا لهواه، بل وكان حاضرًا لأن يفرّط بمنافعه كي لا يمتثل الأوامر، صارَ - أولًا - مستعدًّا لطاعة الأوامر حفظًا لمنافعه. ثانياً حينما استيقظ حسّ العبادة في داخله صار هو محبًّا لأوامر الله، قائلًا: «إلهي، مُرْني؛ فأمرُك هو الهواءُ الذي أتنفّسُه، والحبّ (الذي أحيا به)...». فإنْ تولّدَ هذا الحس الجميل (حس العبادة) في الإنسان، ومن أجل ترسيخه في أعماقه نقول له: «إنك إن لم تعبد الله، عبدتَ غيره!» إن أبغضَ الأمور هي أن يعبد المرءُ غيرَ الله، وهذا أمر لا مَفَرّ منه بالنسبة إلى من ليس هو عبدًا لله؛ أي إن من لا يعبد الله عز وجل سيعبد غير الله حتمًا. والمؤسِف أن هذا الموضوع البالغ الحساسية مفقود في مناهجنا لتعليم الدين.

العبودية للطاغوت هي أن يكون المرء عبدًا لمن يجور عليه!

نحن نظن أنه ثمة طائفة من الناس عبيدٌ لله، وطائفة أخرى ليسوا عبيدًا له ولا يعبدون شيئًا قط! والحال أن الطائفة الثانية يعبدون إبليس والطاغوت، أي إنهم «عَبَدة الطاغوت». والعبودية للطاغوت هي أن يكون المرء عبدَ مَن يجورُ عليه! العابد لله تعالى إذا هدّدَه اللهُ بالنار لجأ إلى الله نفسِه فرارًا من عذابه؛ أي إنه سيتوجه إلى الله أكثر بدلًا من أن يفر منه. وماذا يصنع عبد الطاغوت؟ حينما يجور عليه الطاغوتُ، والطاغوت مجرم متجبّر، يلتجئ هذا العبد إلى سيده الطاغوت ويلتصق به أكثر قائلًا: «أرجوك أن تخفّف من ظُلمَك لي! ونَهبِك لممتلكاتي!» فكلما تقرّبتَ منه أكثر ازداد نهبًا لممتلكاتك! فأنت تعلم أنه لا شرف له! إنك عبدٌ لله سبحانه؛ وإنْ هدّدك الله بنار جهنم لجأتَ إليه هو وناجيتَه. وهناك من هم عَبَدة للطاغوت، عبدة لأمريكا، ولبريطانيا.. إن تُهدِّدْهم أمريكا تراهم يلوذون بها من جديد! وهذا تحديدًا هو ما نسميه عبادة الطاغوت!

المناهج التربوية القرآنية تتّجه نحو جَعْلِنا نتقبّل "امتثال أمر الله"

نمط تعامُل الله عز وجل في كتابه العزيز يتمثل في توجيه الأوامر الشديدة والتكلّم معنا بأسلوب صارم جدًّا لكي نقبل بالعبودية له تعالى؛ أي إنه تعالى يطبّق في قرآنه الكريم مناهج تربوية تجعلنا نقبَل طاعةَ الله. فإن نحن لم نقبل بعبودية الله، وقعنا فريسةَ صرامةِ كلام الطاغوت فنقبل بعبودية الأخير. يستهلّ الله عز وجل كلامه في قرآنه الكريم بالقول: إن كنتَ من المراقبين لأنفسهم ومن المتقين فسيهديك هذا الكتاب: «ذلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِين» (البقرة/٢). ثم يخلُق الله - في كتابه - للإنسان ظروفًا بحيث لا يرى الأخير فيها إلا شيئًا واحدًا هو الأهم عنده، وهو أمرُ الله، وأن عليه امتثالَه، والاحتراس لئلا يعصي ربه.

المرحلة الأولى: إطاعة الله/ المرحلة الثانية: أن نطيع رسول الله(ص) أيضًا

كل ما ذكرناه في المحاضرات الفائتة من خصائص كان مقدمة للوصول إلى موضوع اسمه «أوامر الله» والاحتراس من معصية الله عز وجل. فإن بلغْنا مرحلة إطاعة الله، واستيقظ فينا حس عبادته تعالى، وهو حس فطري عميق للغاية، وصرنا عبدةً له عز وجل نكون قد وصلنا إلى المرحلة الثانية. المرحلة الثانية هي أن نطيع رسول الله(ص) أيضًا. وهل يُبلّغ الرسول(ص) شيئًا غير أوامر الله تعالى؟ أجل، إن للنبي(ص) نفسِه أوامر خاصة يوجّهها لنا. فالإنسان الذي تكبّدَ المعاناة تلو المعاناة حتى اقتنع بطاعة الله، يقول الله له الآن: «أَطيعُوا اللهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ» (النساء/٥٩)! يقول تعالى: «أَطيعُوا اللهَ»، لكن من أين لي أن أعلم ما الأمر الذي أمر الله به؟ أَعلَم ذلك استنادًا إلى كلام الرسول(ص)! إذن «أَطيعُوا اللهَ» يعني ذلك الجزء من كلام رسول الله(ص) الذي يبلّغنا إياه، والذي يتضمن أوامر الله عز وجل. «أَطيعُوا الرَّسُولَ» يعني أن النبي(ص) أيضًا يُصدِر أوامر غير أوامر الله، ألا وهي أحكام الحاكم. فإنّ الأمر القائل: «أقيموا الصلاة» هو أمر من الله جل وعلا قام رسول الله(ص) بإبلاغه. فما هو أمر رسول الله(ص) إذن؟ أمرُه(ص) الخاص هو قوله، على سبيل المثال: «أَلَا مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاه» (تفسير القمي/ ج١/ ص١٧٤)، أو: أين يمكنكم الاصطفاف في ساعة الحرب، وماذا ينبغي لكم أن تصنعوا؟

"إطاعة الرسول" تكررت في القرآن أكثر من "إطاعة الله"

اللافت هو أن القرآن الكريم قد أمر «بطاعة الرسول» أكثر من أمره «بطاعة الله»! فلفظة «الطاعة» استُعملتْ في القرآن ٦٩ مرة. في ٢٣ مرة منها جاء الأمر «بطاعة الرسول» بعد طاعة الله؛ أي في ٢٣ مثالًا جاء إن الأمر بطاعة الله وطاعة الرسول معًا. لكن إطاعة الرسول ذُكرتْ بمفردها في ١٤ موضعًا، وإطاعة الله جاءت وحدها في ثلاثة مواضع. ومن هنا فقد ورد الأمر في القرآن الكريم بطاعة الرسول(ص) أحد عشر مرة أكثر من طاعة الله تعالى.

وإن كان عـدد مـرات الأمـر بالطاعـة في القـرآن الكريـم مُهـمًّا لقُلنـا: إن إطاعـة الرسـول(ص) في القـرآن أهـم مـن إطاعـة اللـه! و«الأهـم» هنـا لا تعنـي الأهـم مـن حيـث القيمـة؛ فمـن الطبيعـي أن إطاعـة الرسـول(ص) هـي، في واقـع الأمـر، إطاعـة للـه (لأن اللـه هـو الـذي أمـر بطاعـة الرسـول)، لكـن أكـثر المعـاصي يقترفهـا النـاس في قضيـة إطاعـة الرسـول، ولـذا فـإن أهميتهـا أكـبر، وقـد نبّـه اللـهُ لهـا أكـثر.

المعصية ليست عصيان الله فقط، بل هي عصيان الرسول(ص) أيضًا

الملاحظـة الأخـرى هـي أن كلمـة المعصيـة لم تـأتِ في القـرآن الكريـم بمعنـى عصيـان اللـه تبـارك وتعـالى وحسـب، بـل هنـاك معصيـة الرسـول(ص) أيضًـا، وقـد وردت معصيـة الرسـول(ص) لوحدهـا في القـرآن ١٣ مـرة (هـذا ناهيـك عـن الحـالات التـي جـاءت فيهـا معصيـة اللـه والرسـول معًـا). فإنـك إن لم تُصَـلِّ تكـون قـد عصيـت اللـه تعـالى، لكنـك إن امتنعـتَ عـن تنفيـذ أمـر الرسـول(ص) الخـاص، تكـون قـد عصيـت رسـول اللـه(ص)! إذن هنـاك موضـوع «طاعـة اللـه» وهنـاك أيضًـا موضـوع «طاعـة الرسـول(ص)»، وكـذا ثمـة موضـوع «معصيـة اللـه» وثمـة أيضًـا «معصيـة الرسـول(ص)».

لموضوع المعصية والطاعة مرحلتان: ١. إطاعة الله، ٢. إطاعة الرسول(ص)

إن لموضـوع المعصيـة والطاعـة مرحلتـين: الأولى هـي أن نقبـل «بطاعـة اللـه واتّبـاع أوامـره»، والثانيـة هـي أن نقنـع بتنفيـذ أوامـر رسـول اللـه(ص) وطاعتـه إلى جانـب تنفيـذ أوامـر اللـه جـل وعـلا وإطاعتـه. ويبـدو أن هـذه الثانيـة أصعـب عـلى البعـض؛ فإنـه بالـكاد اقتنـع بطاعـة اللـه، مـع كل مـا للـه عـز وجل مـن عظمـة وسـطوة. أمـا أن يطيـع النبـي(ص)، وهـو بـشر مثلنـا، فمـن الطبيعـي أن يشُـقَّ ذلـك عليـه أكـثر بكثـير! واللـه مـن جانبـه يقـول لـه: أريـد أن أختـبرك الآن لأرى إن كنـتَ مطيعًـا لي حقّـاً أم لا؟ حـين يريـد اللـه أن يمتحننـا لينظـر إن كنـا حقًّـا مطيعـين لـه مـن أعـماق قلوبنـا أم لا يقـول: «أطيعـوا رسـولي أيضًـا، أنـا آمُركـم أن تطيعـوه هـو كذلـك!» وهنـا تحديـدًا يُخفـق الكثـيرون، وإنّ كل الذيـن عصَـوا أنبيـاء اللـه عـبر التاريـخ كانـوا مـن هـذا الصنـف مـن النـاس.

يُغضي الله عن عصيان عبدِه له أسهل مما يُغضي عن "عصيانه لرسوله(ص)"!

يغضي الله تعالى عن عصيان العبد له هو بسهولة كبيرة، أما عن عصيان رسوله فلا! أيُّ تعاسة وشقاء تورثها للفرد والمجتمع معصيةُ رسول الله(ص)؟! لاحظوا أن أهل مكة والمدينة قبل أن يُبعث رسول الله(ص) بالرسالة كانوا أكثر سعادة وهناءً من زمن ما بعد بعثته(ص)، حيث عصوه ثم ابتُلوا بمجرمين من أمثال الحجاج ويزيد، وحلّتْ بهم حوادث رهيبة من مثل واقعة حَرَّة! بعد أن بلَغْنا طاعةَ الله سبحانه وتعالى لا بد أن نتّجه، في المرحلة التالية، إلى طاعة رسول الله(ص)، ومن ثم إلى طاعة الإمام(ع). والآن، برأيكم ما الذي يتعين علينا صنعه في زمان الغيبة؟ حين تكون أساليب التعليم العقائدي خاطئة من الأصل؛ فيقال لي: «يجب أن تعتقد بالله» عوضًا عن أن يقال لي: «عليك بطاعة الله»، وأُدْعَى إلى الإيمان وحسب بدلًا من أن أُدعَى إلى التديّن، فسيكون هذا الإيمان «إيمانًا من دون طاعة الله!» وحينما يستمر هذا الأسلوب الخاطئ في الجريان، فيُعمَل على ترسيخ أصل النبوّة والإمامة في نفوسنا دون إطاعة النبي أو إطاعة الإمام، التي هي فلسفة النبوة والإمامة، فمن الطبيعي أن تبرُز في هيكلية تديّننا مشاكل جمة.

ما هي فلسفة وجود النبي(ص)؟ لا بد للنبي أن يكون قائدًا!

ليس موضوع نقاشنا مقدار ما يحمل النبي والإمام من الفضائل ومستوى صلاحهما، بل إننا نناقش مسألة إطاعتهما. يقول الله تعالى في كتابه العزيز: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله» (النساء/٦٤)، فلم نرسله لتُعجَبوا به وحسب! ما فلسفة وجود النبي؟ أهي مجرد كونه رسولًا من الله تعالى ينطق عنه؟ إنّ فَهْم عامة الناس للنبي – في العادة - دون أن يطيلوا التفكير في المسألة، هو «أنه الشخص الذي لا عمل له سوى أن يأتينا ببلاغ من الله!» وهذا الفَهْم خاطئ. الموضوع المحوري للدين هو «الأمر» وفلسفة وجود النبي، بحسب القرآن الكريم، هو أن يتولّى القيادة: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله» (النساء/٦٤). لكن مَن ذا الذي يتولى القيادة في عصرنا الحاضر وصاحب العصر والزمان(عج) غائب؟ هل يتغيّر الدين؟ فناهيك عن أوامر الله تعالى، وحيث إن محور الدين هو «الأمر»، فإن السؤال المطروح الآن هو: ما مصير موضوع «أمر الرسول والإمام» في زمان الغيبة؟ هل يُعطَّل هذا الجزء من الدين – وهو موضوع إطاعة الرسول والإمام – في حال غياب كليهما؟! أهذا هو مُقتضى العقل؟!

محـور الديـن هـو «الأمـر»، وإن إصـدار هـذه الأوامـر يتـم عـلى مرحلتـين؛ إحداهـما أوامـر اللـه، والثانيـة أوامـر رسـول اللـه. فالمرحلـة التكامليـة للطاعـة في الديـن هـي مرحلـة طاعـة رسـول الله(ص)، وطاعة رسول الله تكون في أوامرِ الشخص الحيِّ، الحاضرِ، والأوامر الاقتضائية المرتبطة بالمسـائل المُبتـلَى بهـا النـاس اجتماعيًـا؛ كأنْ يأمرنـا اللـه تعـالى بالإنفـاق، فيقـول رسـول اللـه(ص): «الآن ادفـع مـا تريـد إنفاقـه لفـلان مـن النـاس»؛ أي إن النبـي(ص) يعـيّن المصاديـق. وأهميـة إصـدار الأوامـر في المصاديـق هـذه إنمـا تنبـع مـن تكـرار عبـارة «أطيعـوا الرسـول» في القـرآن الكريـم.

ما مصير "إطاعة الإمام" في زمان الغيبة؟

تـرى البعـض يفتـش عـن روايـة يثبـت بهـا ولايـة الفقيـه! نقـول لـه: «تأمَّـل في أنـه مـا مصير قضيـة «طاعـة الإمـام» في زمـان الغيبـة؟ حـين يكـون النبـي(ص) قـد رحـل عـن الدنيـا، والإمـام المعصـوم(ع) غائبًـا، مـا الـذي يحـل بهـذا الجـزء مـن الديـن؟ هـل يُعَطَّـل؟! إصـدار هـذه الأوامـر الآن (في زمـان الغيبـة) مسـؤولية مَـن؟ إطاعـة مَـن تصبـح واجبـة هنـا؟ ومـاذا سـيحصل لـو أننـا عصينـا هـذا الشـخص؟ مـاذا سـيحصل لـو عصينـاه علنًـا؟ وأيهـما أهـم، معصيـة تـرك الصـلاة أم هـذه المعصيـة؟» إلى الآن نحـن لم نـشرع في إلقـاء تعاليـم دينيـة، بالمعنـى الحـرفي للكلمـة، ثـم نقـول بنـبرة مـن يـرى الحق معـه: «لمـاذا لا يظهـر صاحـب الزمان(عـج)؟!» لكـن ما الـذي صنعنـاه نحن لكي يـشرّف(ع) بالظهـور؟! لا بـد لنـا أن نتلقـى تعليـمًا صحيحًا واحـدًا أو نمر بدورة تدريبيـة واحدة – على أقل تقديـر – حول «ضرورة امتثـال أوامـر الإمـام» لـكي نكتسـب بعض الاسـتعداد. فالإمـام(ع) لا يظهر من أجـل «طاعة النـاس لأوامر اللـه»، كـما أنـه لم يغـب عنا بسـبب (عدم امتثالنا) أوامرَ اللـه؛ فصُلب الموضـوع كان أن الكثيرين لم يكونوا ليتحمّلـوا «أمـر الإمـام»، بالضبـط كـما قد قيل علنًـا: «حَسـبُنَا كِتَابُ الله» (الأمالي للشـيخ المفيـد/ ص٣٦).

مشكلة المنافقين، بحسب القرآن، كانت مع أمر الرسول(ص)، لا أمر الله!

بحسب القرآن الكريم لم تكن للمنافقين مشكلة مع أمر الله تعالى، بل مع أمر رسول الله(ص)! «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا» (النساء/٦١)؛ فهم يصدون عنك أنت (أيها النبي) صدودًا، ولا مشكلة لهم مع أمر الله! إذن في وسعنا القول إن المنافق هو الشخص الذي اجتاز المرحلة الأولى (أي لزوم إطاعة أوامر الله) وعَلِق في المرحلة الثانية (إطاعة أمر الرسول)؛ أي إن الذي يتوقف في هذه الأخيرة يكون «منافقًا». لقد تكرر قول الله تعالى: «فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطيعُونِ» في القرآن الكريم عشر مرات مع أنبياء مختلفين إلى درجة أنه يمكننا عَدُّه الشعار المشترك لجميع الأنبياء! وهذا أصعب أوامر القرآن الكريم، وهاهنا تحديدًا يكمن محلّ النزاع؛ فالأنبياء لم يكونوا يواجهون مشكلة في دعوة الناس إلى طاعة الله. المشكلة كانت تبرز حينما كان الأنبياء يدعون الناس إلى طاعتهم هم! إذ كان يشُقّ على الناس أن يأتي من يدعوهم إلى طاعة نفسه. فإن قال أحدهم للناس: «آتوا الزكاة» انطلاقًا من أمر الله فلن يكون تقبّل هذا الأمر صعبًا عليهم، أما إذا قال لهم: «ادفعوا زكاتكم لي أنا» فسيختلف الأمر، وسيصعب على الناس قبول ذلك، وسيعرّض هذا الشخص نفسَه لأصناف التُهَم وألوان المعارَضة.

طاعة الرسول(ص) هي في الواقع طاعةٌ لله، لكن...

بالطبع إن طاعة الرسول(ص) هي في الواقع طاعةٌ لله أيضًا، لكن هناك نوعين من الأوامر: أوامر ثابتة يصدرها الله سبحانه وتعالى لمدى الحياة، وأوامر يصدرها رسول الله(ص) بما يوافق المصاديق (فيما يتصل بشؤون حياتنا الجارية). المرحلة الأولى هي أن يُقنع الناسُ أنفسَهم بعبادة الله عز وجل وطاعته؛ أي أن يصلوا إلى مرحلة خطابهم لله: «إلهي، مُرْنا!» والمرحلة الثانية هي أن يطيعوا أوامر رسول الله(ص). لكن ما هو مصير أوامر الرسول والإمام (المعصوم) في زمان الغيبة؟ وأوامر مَن سيكون علينا أن نطيع حينذاك؟ في زمن الغيبة يتحتم علينا طاعة أوامر «نائب الإمام»،

ولـو أننـا شـطبنا عـلى موضـوع «نائـب الإمـام» فسـيطرأ عـلى الفكـر الدينـي ثَلْـم؛ وكأنّ هنـاك أزمنـة لا نحتـاج فيهـا عـلى الإطـلاق إلى أوامـر الإمـام! لكنـه لـو غزانـا عـدو، فـلا بـد مـن إمـام يأمرنـا (بالجهـاد). نعـم، الأمـر العـام بالجهـاد موجـود في القـرآن الكريـم، ويـنـدرج هـذا ضمـن «أوامـر اللـه»، لكـن مَـن ذا الـذي يتوجـب عليـه، في الوقـت المعـيَّن والحَـرِج، أن يأمرنـا بـأن: «عليكـم في الوقـت الحـاضر التوجّـه إلى ميـدان القتـال؟» فمـن الطبيعـي أنـه لا بـد أن يكـون ثمـة شـخص يصـدر هـذه الأوامـر في أوقـات خاصة.

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ٢٢)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ٣٠/أيار/٢٠١٩ ـ ٢٤/رمضان/١٤٤٠

المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)

الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

لماذا يُحيلنا الله تعالى إلى طاعة رسوله(ص) وطاعة أُولي الأمر؟/ تحوّلان طيّبان يحصلان لنا بطاعتنا لرسول الله(ص)/ طاعتنا لوليّ الله مؤشّر على صدقنا في طاعتنا لله

البعضُ يطيع اللهَ عز وجل لكنه ما إن يصل إلى مرحلة طاعة الرسول(ص) وطاعة ولي الله تراه يُخفق وينكُص على عَقِبَيه لأنه لم يُزَكِّ نفسَه. حين يأمره الله بأن: "أطِع وليّي أيضًا" يقول: "يا رب، أنت أيضًا لا أريدك!" من هنا يتبيّن أن أمثال هؤلاء لم يكونوا يطيعون الله حقيقةً!

علاقتنا مع الله تعالى "علاقة طاعة"

ينبغي في تعليمنا للدين أن نحدّد علاقتنا مع الله تعالى أكثر من تأكيدنا على الإيمان بالله والاعتقاد بوجوده، وإن نؤكد على أن علاقتنا مع الله عز وجل «علاقة طاعة». فعلاقة الارتزاق من الله، بل حتى علاقة تسبيحه وحمده هي علاقة عامة؛ إذ أنه «يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْض» (الجمعة/١)؛ المخلوقات جميعًا تمتلك هذه العلاقة مع الله سبحانه، إذن ليست هي خاصة بالإنسان. لكنّ ما فيه شرف الإنسان هو طاعته لله جلّ وعلا. لكن لماذا تتوجّب علينا الطاعة؟ حسّ العبادة في كيان الإنسان يقتضي منه الطاعة من ناحية، ومن ناحية أخرى إننا قد خُلقنا - من الأساس - عبيدًا وإنّ هويتنا هي «العبودية»؛ هكذا تم تعريف وجودنا. فإن لم نصبح عبيدًا لله تبارك وتعالى صرنا عبيدًا لسواه.. عبيدًا لإبليس.. عبيدًا للطاغوت؛ ذلك أننا عبيدٌ ذاتًا. المتفرعنون أيضًا هم عبيد، وهم في حالة من العبودية، بشكل من الأشكال، لكنها – بالطبع - العبودية لإبليس، وصور أخرى من العبودية لغير الله تعالى. لا بد لنا أن نبحث عن شيء اسمه «أمر الله»؛ وذلك لكي نبغض العبودية لغير الله من ناحية، ولكي تستيقظ فينا حلاوة العبودية لله تعالى من ناحية أخرى. ولحسن الحظ فإن الأوامر الإلهية قد صدرت وهي في مصلحتنا أيضًا، فالله عز وجل لم يُصدر يومًا أمرًا فيه خسرانُنا. إذ من المعلوم تمامًا أن جميع الأوامر التي وجّهها الله إلينا تصب في رُقِيّ أنفسنا، ورُقِيّ مجتمعنا. إنه نحن الذين لا نطلب منفعتنا، ولو كنا نفعيّين لكنا مطيعين!

لماذا يُحيلنا الله تعالى لطاعة رسوله(ص) وطاعة أولي الأمر؟

وصلنا في بحثنا هنا إلى مشارف العبودية لله عز وجل، وحين يصل الناس إلى هذه النقطة يدخلون في مرحلة ثانية وهي عُقدة النزاع الأساسية لجميع أنبياء الله مع الكافرين! إذ تلاحظون في القرآن الكريم أن الأمر إلى هذه النقطة ليس محل نزاع كبير؛ بمعنى أن التسليم لله عز وجل وامتثال أمره ليس بالأمر الشاق، وإنما يبدأ النزاع من الآن فصاعدًا. حول أي موضوع ينشب النزاع؟ يقول الله عز وجل: إن أردتم حقًّا أن تطيعوني وأن تستقر هذه الطاعة في قرارة أنفسكم فأطيعوني بالواسطة أيضًا! وهنا يُحيلنا تبارك وتعالى إلى طاعة رسوله(ص) وطاعة أولي الأمر. إن مقولة الطاعة هي على جانب من العُمق والغَور في كيان الإنسان بحيث لو أنك قلتَ لله تعالى: «سمعًا وطاعة» أيضًا فلن يُعلَم فيما إذا كانت حقيقة الطاعة قد تحقّقتْ عندك فعلًا أو لم تتحقق؟! إن هذا التحوّل هو على جانب من العرفانية حتى لَيتحتم عليك أن تقول لله «سمعًا وطاعة» وتطيعه من عمق كيانك! وهذا تحديدًا هو ما يقال عن «الإخلاص في العبادة والطاعة».

حقيقة الطاعة تُوصِل الإنسانَ إلى الحياة الطيبة

هذه الطاعة وهذا الامتثال يبلغ بالإنسان مقامًا عجيبًا إلى أبعد الحدود؛ إنه يوصله إلى الحياة الطيبة؛ وذلك قوله تعالى: «فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً» (النحل/٩٧). في الحياة الطيبة تنشأ للإنسان عَينٌ وأذُنٌ غير عينِ رأسه وأذنه، وتتفتح حواسّه للتمتع بلذّات لم يعهَدْها من قَبل، ويرتقي إلى نمط آخر من الفَهْم. بل إن عيشَ المتنعّمين بالحياة الطيبة لا يقتصر على كونهم أناسًا صالحين، لا يذنبون، وأنهم يحيون حياة طاهرة! يوضّح العلامة الطباطبائي تعليقًا على مصطلح «حياة طيبة» بأن هؤلاء يُكرَمون «بحياة جديدة» تمامًا (الميزان/ ج١٢/ ص٣٤١)؛ فكأنهم يولَدون من جديد وتتفتح لديهم حواس جديدة، غير الرؤية بالعين والسماع بالأذن! وللطاعة حدّ أدنى وحد أعلى. فحدُّها الأدنى هو ما نعرفه من الطاعة العادية. أما حدها الأعلى فإن أردنا نحن بلوغه فسنكون بحاجة إلى خلوص خاص.. إلى عمق في وجودنا. ولتحقق هذا العمق يقول لنا الله عز وجل: «إنك من المُفترَض أن تطيعَني، فلتطِعْني الآن بشكل غير مباشر؛ إنني آمرك أن تطيع ولِيّي أيضًا!» من هذه النقطة تبدأ المرحلة الثانية.

يُخفق البعض في المرحلة الثانية من الطاعة بسبب عدم تزكية نفسه!

حين يبلغ البعض المرحلة الثانية من الطاعة يُخفق في الامتحان ويَنكُص على عقبيه لأنه لم يُزكِّ نفسَه. بل إذا أمره الله أن: «أطِع وليّي أيضًا» قال: «يا رب، أنت أيضًا لا أريدك!» بالضبط كما حصل يوم الغدير! حين رفع رسول الله(ص) يد عليّ أمير المؤمنين(ع) (يوم الغدير) قائلًا: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاه... فَبَلَغَ ذَلِكَ الْحَارِثَ بْنَ النُّعْمَانِ الْفِهْرِيّ، فَرَحَلَ رَاحِلَتَهُ... ثُمَّ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ(ص)... فقال: ...إِنَّكَ أَقَمْتَ ابْنَ عَمِّكَ فَجَعَلْتَهُ عَلَمًا وَقُلْتَ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ... أَفَعَنْكَ أَمْ عَنِ اللهِ؟ قَالَ(ص): بَلْ عَنِ الله... فَنَهَضَ وَإِنَّهُ لَمُغْضَبٌ وَإِنَّهُ لَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ مَا قَالَ مُحَمَّدٌ حَقًّا فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ نَقِمَةً فِي أَوَّلِنَا وَآيَةً فِي آخِرِنَا...» فإني لم أعد أطيق هذا المنظر! أي إنه طلب العذاب بنفسه. فما إن خرج من عند رسول الله(ص) وابتعد قليلًا حتى سقط عليه حجر من السماء فأهلكه: «ثُمَّ أَثَارَ نَاقَتَهُ فَحَلَّ عِقَالَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَيْهَا، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْأَبْطَحِ رَمَاهُ اللهُ [تَعَالَى] بِحَجَرٍ مِنَ السَّمَاءِ...» (تفسير فرات الكوفي/ ص٥٠٥-٥٠٦).

البعض إذا وصل إلى إطاعة رسول الله(ص) تبيّن أنه لم يكن يطيع الله حق طاعته!

البعض إذا وصل إلى إطاعة رسول الله(ص) يتبيّن أنه لم يكن يطيع الله تعالى حق طاعته. لأي شيء أوجبَ الله علينا إطاعة رسوله(ص)؟ أوّلًا لنكسبَ نحن في قضية الطاعة عمقًا كبيرًا وخلوصًا شديدًا؛ ذلك أنّ قبول الطاعة قضيةٌ في منتهى العمق. وثانيًا لأن الإنسان مخلوق معقّد ومتداخِل ولا بد أن يُعلَم بأنه لم يَمكُر في طاعة الله عز وجل! أي أن لا تكون القضية بأنه يُلزِمُ الآن نفسَه بطاعة الله ليرى متى يكون باستطاعته أن يفر منه جلّ وعلا! فالإنسان مخلوق معقّد متداخل ولا بد أن يُعلم بأنه لم يخدع نفسه؛ ذلك أنه أحيانًا لا يَفهم هو نفسَه!

مـن المفـترض أن تُفَتِّـح «الطاعـةُ» حقائـقَ وجـودي، أنـا العبـد، وتوصِلَنـي إلى أقـصى لـذّاتي، وتجعلنـي في موقـع العبـد لـكي أُدرك هويتـي، وأتـزوّدَ مـن علاقـة العبـد والمـولى هـذه بالتغذيـة والطاقـة (فإنمـا بسـبب هـذه العلاقـة يتـزوّد الإنسـان بالطاقـة، وإن السـبيل لتزويـده بالطاقـة هـو هـذه الطاعـة تحديـدًا). فـإن كان مـن المفـترض أن تحـل كل هـذه الـبركات بسـبب العبودية «والطاعـة» فـإن عـلَيَّ، إذن، أن أعمِّقهـا في وجـودي، ولتعميقهـا يقـول البـاري عـز وجـل لي: «أطِـع ولِيّـي!» فلـكي يتبـيّن أنّي لم أخـدع نفـسي في قضيـة طاعـة اللـه، يقـول تعـالى لي: «أطـع وليـي!»

من عيوب ثقافتنا الدينية هو عدم الاهتمام "بعصيان الرسول والإمام" كنوع من الإثم/ طاعتُنا لوليّ الله مؤشّر على صدقنا في طاعتنا لله

في هـذه المرحلـة الثانيـة (أي مرحلـة ضرورة طاعـة رسـول اللـه) تـبرز - بمعـزل عـن عصيـان اللـه تعـالى - قضيـةُ «عصيـان الرسـول» أيضًـا وهـو مـا تكـررت الإشـارة إليـه في القـرآن الكريـم كثـيرًا. وللأسـف فـإن هـذا مـن نقائـص ثقافتنـا الدينيـة وهـو أمـر غـير متـداوَل أبـدًا؛ أي «أن يرتكـب امـرؤٌ إثمًـا بعصيـان رسـول اللـه(ص)، أو يرتكـب إثمًـا بعصيـان صاحـب الزمان(عـج) والإمـام الحَـيّ الحاضر». عـلى أن صاحب الزمـان لا يأمرنـا الآن بـشيء، وإنّ مـا ننفّـذه مـن أوامـر هـي أوامـر اللـه ذاتهـا. الأوامـر التـي مـن شـأن «الإمـام الحـي» أن يوجههـا لنـا اليـوم هـي أوامـر مصداقيـة؛ كأن يأمـر: «اليـوم افعلـوا كـذا وكـذا...». ومـن المعلـوم مـا هـي طاعـة اللـه عـز وجـل؛ إنهـا الأحـكام والأخـلاق والمسـائل التـي نعرفهـا ونعمـل بهـا إن شـاء اللـه. لكـن مـا هـي طاعـة الرسـول(ص)؟ إنهـا أوامـر رسـول اللـه(ص) عـلى مسـتوى المصاديـق والتـي يتعـين علينـا امتثالهـا. ولكـنّ الرسـولَ ووصيَّـه غـيرُ موجودَيـن الآن، أفَيُعطَّـل هـذا الجـزء مـن الديـن؟! أهـذا معقـول؟! إن إطاعـة الرسـول(ص) تحكيـمٌ وتثبيـتٌ لإطاعـة اللـه تعـالى، وإنهـا مـع إطاعـة ولي اللـه مـؤشّر عـلى صـدق الإنسـان في إطاعـة اللـه عـز وجـل. وإن طاعـة وليّ اللـه ترفـع مـن مسـتوى طاعـة اللـه وتعمّقهـا، وإنمـا يزدهـر الإنسـان بعـد هـذه الطاعـة وحسـب.

الآن، حيث لا رسولَ ولا إمامَ حاضر، ما مصير هذا الجزء من الدين (طاعة الرسول)؟

وهنا يُطرح هذا السؤال المهم: الآن، ورسول الله(ص) راحل عن هذه الدنيا وولي الله خلف حجاب الغيبة، هل يعطَّل هذا الجزء من الدين؟! فإن قال أحدهم: «هذا الجزء من الدين معطَّل في الوقت الحاضر»، فإنّ خبرته في الدين مخدوشة وإن تعريفه للدين خاطئ أو ناقص. يخاطب الله عز وجل نبيه الكريم(ص): «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم» (آل عمران/٣١). السؤال: في ماذا يكون اتّباع رسول الله(ص) اليوم؟ فإن صلّيتَ مثلًا، أفيكون في عملك هذا اتّباع لرسول الله(ص) أم لله تعالى؟ الصلاة أَمَرَ بها الله نفسُه؛ إذن أنت هنا تتّبع الله. فما هو اتباع الرسول(ص) إذن؟ أوامر الرسول(ص) تتناول المصاديق؛ كأن يأمر: الآن وقت الحرب، الآن زمن السِلْم، وهكذا. لكن ما مصير هذه الآية القرآنية في الوقت الحاضر ورسول الله(ص) قد رحل عنّا؟ هل ينتهي تاريخ صلاحيتها بانقضاء زمن حياة النبي(ص)؟ هل إن طاعة رسول الله(ص) لم يَعُد لها استعمال في الدين، ولم يبقَ لنا منها غير التاريخ؟ ماذا كانت الفلسفة من طاعة رسول الله(ص)؟ هل زالت هذه الفلسفة في زماننا الحاضر؟!

ألا يجب أن نطيع أحدًا بعد رسول الله(ص)؟!

لم يكن هذا الفَهْم قائمًا في صدر الإسلام، بعد رحيل النبي(ص)، بل كان الجميع يُقِر بأنه «تجب طاعة الخليفة، بالضبط كطاعة رسول الله!» ولم يكن النزاع آنذاك إلا في المعيار المُتَّبَع في اختيار الخليفة. فلم يكن لدى القريبين من عصر ظهور الإسلام هذا الفهم القائل: «لا يجب علينا طاعة أحد بعد رحيل رسول الله(ص)!» ولم يكن من نزاع إلا في المصداق؛ وهو أنه: مَن نطيع الآن؟ جاء في سورة الأحزاب حول ضرورة طاعة الله ورسوله: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم» (الأحزاب/٣٦)؛ أي ليس من حق المؤمنين، إذا أمر الله أو رسولُه أمرًا، أن يقرّروا هم ماذا يصنعون، بل عليهم السمع والطاعة! ثم تتابع الآية القول: «وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا»؛ وقد جاء العصيان هنا بالنسبة إلى الله وبالنسبة إلى رسول الله معًا؛ أي عصيان المرء لرسول الله(ص) وعدم طاعته.

لكنّ آيات قرآنية أخرى اقتصرت على ذكر معصية الرسول(ص)، كقوله تعالى: «وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» (هود/٥٩). اللافت في الآية هو أنهم حينما عصوا رُسُل ربهم اتّبعوا الجبابرة! إنها الحقيقة ذاتها التي مر ذكرها؛ وهي: إنْ لم تطع ولي الله، فستطيع عدُوّه.

تحوُّلان طيّبان يحصلان لنا بطاعتنا لرسول الله(ص)

حينما نطيع رسول الله(ص) يحصل أمران: الأول هو أن طاعة الله عز وجل تثبت مصداقيتها بطاعة الرسول(ص)، والثاني هو أنها بها تبلغ الذرى؛ أي إنك بطاعتك لرسول الله(ص) تبلغ في درجات العرفان والازدهار المعنوي من العلُو ما لا تبلغه بألوان الامتثال العامة لأوامر الله عز وجل. وهنا تحديدًا يبرُز كمالُ تخطّي بعض الخصال الذميمة، فيحلّق الإنسان ويرتقي.

عقوبة معصية الرسول وولي الله أشد من عقوبة معصية الله!

إنك إن عصيتَ الرسول(ص) تكون قد عصيت الله تبارك وتعالى في الحقيقة، إلا أن عقوبة ذلك أشد من عقوبة معصية الله! فإن الله لا يتأذى إن عصيتَه: «لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ» (نهج البلاغة/ الخطبة١٩٣) «فلا يُغطّي سفحَ كبريائه غُبار!» لكن ما الذي سيحصل إن آذيتَ رسول الله(ص)؟ وكيف ستردّ إن سُئلتَ عن عدم احترام حق ولي الله؟! البلايا التي تحل بنا هي بسبب معصية رسول الله ومعصية وليّ الله أوّلًا، وإن أسوأ البلايا تنزل بسبب هاتين المعصيتين ثانيًا. جاء مُلحد إلى المدينة ذات يوم وسأل أمير المؤمنين(ع) بضع أسئلة كان آخرُها أنه: لماذا تصفون رسولكم بأنه «رحمة للعالمين»؟ كيف يكون رحمة للكافرين؟ أيّ رحمةٍ هذي التي يحملها للكفار؟ لا ينبغي أن تقولوا فيه: «رحمة للعالمين» بل قولوا: «رحمة للمؤمنين»!

فأوضح له أمير المؤمنين(ع) أن رسول الله(ص) – بالمناسبة - «رحمة للعالمين» أيضًا، أي منهم الكفار. فقال الملحد: كيف؟ فأردف الإمام علي(ع) أنه لكي لا ينزل البلاء بالناس بسبب عصيانهم لأوامر الرسول فإنه(ص) لا يصرِّح بأوامره في العادة، بل يتحدث بطريقة تترك في كلامه بعض الإبهام لكي يجد مَن يرغب في التملص خفيةً ذريعةً لذلك. لهذا فإنه رحمة للكفار أيضًا، لأنه لو كان يُصدر أوامره صريحة لنَزَلَ البلاء بالكفار حين يعصونها. ثم ضرب أمير المؤمنين(ع) من قضية اختيار خليفة رسول الله(ص) مثلًا؛ بمعنى أن النبي(ص) قد انتهج نفس المنهج في تعريف الناس بخليفته من بعده، وإلا فلو أراد تبيين الأمر بصلابة وإصرار لنزل بكل من يخالفه العذاب، بالضبط كما نزل بأحدهم في حادثة غدير خم (تفسير فرات الكوفي/ ص٥٠٥-٥٠٦).

أحد أسباب استمرار غيبة صاحب الزمان(عج) هو عدم صبرنا على امتثال الأوامر!

إن موضوع عصيان الناس لرسول الله(ص) ونزول البلاء في إثر عصيانهم لولي الله هو على هذا الجانب من الجدية والأهمية! تخيّلوا الآن لو ظهر صاحب الزمان(عج) وأصدر أمرًا صريحًا فلم نصبر نحن على امتثاله، ماذا كان سيحصل؟ من هنا يسعنا القول إن أحد أسباب بقاء الإمام المهدي(عج) غائبًا هو عدم صبرنا نحن (على الطاعة)! لطالما كان أمير المؤمنين(ع) يتراجع عن إصدار أوامر صريحة للناس. وفي أواخر عهد خلافته(ع)، ذي السنوات الخمس، تحدث ذات مرة عن إمامته، وبالإشارة! فإذا ببعض القوم يعتنق التشيع للتو بعد أن فهم أصل القضية. (في ذلك الزمن لم يكن ثمة شيعة، بالمعنى الحرفي للكلمة؛ أي من المؤمنين بإمامته(ع)، إلا القليل، فلم يكن الشيعة أكثرية!) قضية نزول البلاء بسبب معصية ولي الله هي قضية في غاية الغرابة. فما الذي صنع إبليس، مثلًا، ليُطرد من حضرة الرب؟ لقد عصى ربه بصراحة بخصوص وليّه فأصبح رَجيمًا! وماذا صنع نبي الله آدم(ع)؟ عصى الله نفسَه، فتاب بعدها وقُبلتْ توبتُه. ولو كانت معصية آدم(ع) – والعياذ بالله – بهذا الثِقَل فلربما ما كان قد وُفِّقَ للتوبة!

ما هي أهم فوائد العمل بحلال الله وحرامه؟

في أي شيء هـي حقيقـة الديـن؟ جـاء في الحديـث: «... وَلَـمْ يُنَـادَ بِـشَيْءٍ كَـمَا نُـودِيَ بِالْوَلَايَـة» (الـكافي/ ج٢/ ص١٨)؛ أي لم يـرد التأكيـد في الأمـر عـلى أي شيء مـن الديـن كـما ورد في الولايـة! وليـس الـكلام هنـا مجامَلـة، بـل إنـه يرجـع إلى حقيقـة الديـن! تُـرى مـا الحكمـة وراء التزامنـا بتعاليـم اللـه الأروَح - مثـل الصـلاة، والصيـام، والـزكاة، وحـلال اللـه وحرامـه - وأدائنـا إياهـا؟ لا شـك أنّ أهـم فوائـد ذلـك هـو أنـه حـين يـأتي الـدور لأوامـر رسـول اللـه(ص) ووليّـه نكـون مطيعـين، ولا نعـدل عـن مسـارنا، ولا نتملّـص خفيـةً، وأن نصـل إلى حيـث «نكـون مسـتعدين لامتثـال أوامـر ولي اللـه». أوامـر الـولي الفقيـه اليـوم ليـس فيهـا تلـك الصراحـة الموجـودة في أوامـر ولي اللـه الأعظـم. مـن هنـا فـإن فيهـا إمهـال لمـن يريـد أن يتـصرف بكُفـر ويغطـي عـلى الحقيقـة. إذن فنحـن اليـوم في عـصر الفُـرَص وعـصر التمـرّن. عـلى أننـا لا نريـد أن نقـول: «مـن الجيّـد في زمـان الغيبـة أنـه ليـس ثمّـة أوامـر إمـامٍ معصـوم!» فـإن لم يكـن ثمّـة أوامـر الإمـام المعصـوم، فهنـاك أوامـر نائبـه! إذ مـن غـير الممكـن تعطيـل هـذا الجـزء مـن الديـن! في وسـط الأسـبوع بلـغَ الشـهيدَ آيـة اللـه مـدني، وكان مـن شـخصيات الثـورة البـارزة، حُكـماً مـن الإمـام الراحـل(ره) بأنـه: «لقـد عُيِّنـتَ إمـامَ جمعـة مدينـة كـذا (همـدان مثـلًا)...» وكان تلـك الليلة، حـين بلغَـه حُكـم الإمـام، في مدينـة أخـرى. وبمجـرد أن تلقّـى الشـهيدُ مـدني الأوامـرَ، وهـو العـارف الواصـل، قـال مـن فـوره لسـائقه: «هلُـمَّ بنـا نذهـب!» فقـال لـه السـائق: «مـا زال هنـاك بضعـة أيـام إلى الجمعـة، ولا ضرورة لانطلاقنـا الآن. أنجـز أعمالـك المتصلـة بهـذه المدينـة في الوقـت الحـاضر ومـن ثـم نذهـب...». فأجـاب الشـهيد مـدني: «إنـه حُكـمُ نائـبِ إمـام العـصر(ع)! إن انطلقـتُ الآن سـيكون بوسـعي أن أقـول لـربي: إلهـي، لقـد نفّـذتُ الحُكـم. أمـا إذا أجّلـتُ الأمـر إلى غَـدٍ أو بعـد غـد فقـد أفـارق الدنيـا فجـأة وأنـا غـير منفّـذٍ للحُكـم!» أي يقـول: «هـذا أمـر ولي اللـه» وينتفـض مـن فـوره، وينطلـق. لقـد أُجريـتْ عـلى وصايـا الشـهداء إحصائيـة فتبـيّن أنهـم ذكـروا كلًّا مـن سـيد الشـهداء(ع)، وكربـلاء، وأبي عبـد اللـه الحسـين(ع)، وعاشـوراء وأمثالهـا أربـع مـرات في كل وصيـة، بالمعـدَّل وهـذا، بالطبـع، أمر طبيعـي! لكنهم - وبالمعـدَّل أيضًـا - أكّـدوا أربـع مـرات كذلـك عـلى اتبـاع القيـادة والـولي الفقيـه؛ أي إن الشـهداء، في تلـك الحـال الروحانيـة البهيجـة التـي كانـوا يعيشـونها قبـل الشـهادة، قـد توصّلـوا إلى ضرورة هـذا الأمـر.

مـن المؤكـد أن متوسّـط اتّبـاع الإمـام القائـد (الخامنئـي) بـين الذيـن يسـيرون في هـذا الطريـق الإيمـاني خـارج البلـد هـو أعـلى مـن متوسّـط اتّباعـه بيننـا نحـن. ولقـد صرّح السـيد حسـن نـصر اللـه في أحـد خطاباتـه، مـن منطلـق كونـه شـاهدًا، بأنـه: «في إيـران أيضًا لا تلقـى أوامرُ السـيد القائد الطاعـةَ اللازمة!»

حتى عبر نظرةٍ ما وراءَ دينية فإن اتّباعَ قائدٍ، بصفات معيّنة، مفيد وضروري لأي مجتمع

حتـى لـو أننـا وضعنـا الديـن وجميـع المعتقـدات الدينيـة جانبًـا ونظرنـا إلى الأوامـر الدينيـة نظـرة دنيويـة لوجدنـا أنـه حتـى لـو لم تكـن أوامرنـا وتعاليمنـا الدينيـة مـن اللـه فإنهـا - قاطبـةً - مفيـدة، بـل وضروريـة لأبداننـا، ولأنفسـنا، ولدنيانـا، ولمجتمعنـا. فـإنّ اتّبـاعَ قائـدٍ في مجتمـعٍ مـا، في مثـل هـذه الصفـات ووفـق هـذه المقتضيـات تحديـدًا يُعَـدُّ - بمعـزل عـن المعتقـدات الدينيـة - نظامًـا متقدِّمًـا، بـل أكـثرُ تقدّمًـا بكثـير مـن الديمقراطيـة أيضًـا! فمـن المسـتحيل أن يسـمح قائـدُ مجتمـعٍ كهـذا للقـوات العسـكرية لبلـده بالتوجـه إلى بلـد آخـر وارتـكاب مجـزرة بحـق الأبريـاء. كـما أن هـذه الفرصـة قـد سـنحتْ لنـا مـرارًا لكننـا لم نقـم بهـذا الفعـل. لكـن انظـروا مـاذا صنعـت «الديمقراطيـة» في العـالم؟ لقـد نهبـتْ أمـوال شـعوب العـالم وارتكبـتْ في حقهـم المجـازر مـا وَسِـعَها ذلـك! يدافـع البعـض عـن ديمقراطيـة الغـرب ومجتمعـه الحـر، وهـو يـرى بـأم عينيـه كيـف يدعـم الغربيـون الكيـان الصهيـوني المجـرم، بـل إنهـم هـم مـن أسّسَـه! ثـم يُسَـمّون هـذه «أجـواء حـرة» ويطلقـون عليـه: «حكـم الشـعب»! أساسًـا لا ينبغـي الجـدل مـع أمثـال هـؤلاء، لأنهـم قـد شـككوا في أبسـط البديهيـات! أوَهـل يصـوّت النـاس في مجتمـع حـر عـلى أن: «تعالـوا نقتـل الأطفـال؟!» أيُّ دولـة ديمقراطيـة لا تدعـم الكيـان الصهيـوني؟ أيُّ دولـة ديمقراطيـة ليسـت خاضعـة لهيمنـة الصهاينـة؟ هـل الديمقراطيـة ذريعـة لجعـل الشـعوب تحـت سـلطة الصهاينـة مـن دون ضوضـاء؟ انظـروا «إسرائيـل!» هـي ثمـرة مـاذا، ومـن الـذي صنعهـا؟ أفهـل صنَعَهـا غـيرُ الحكومـات الغربيـة الديمقراطيـة؟ واليـوم جميـع الـدول الديمقراطيـة، كـما تلاحظـون، خاضعـة للصهاينـة؟ فعندمـا تَطّلعـون عـلى العـالم وفـق مقاييـس دوليـة تجـدون كلام اللـه تعـالى: «عَصَـوْا رُسُـلَهُ وَاتَّبَعُـوا أَمْـرَ كُلِّ جَبَّـارٍ عَنِيـدٍ» (هـود/٥٩) متجسِّـدًا أيضًـا.

عصيان الرسول(ص) هو عصيان مَن عيّنَ اللهُ لكم فضلَه

عصيان الرسول(ص) هو «عصيان الشخص الذي عيّنَ اللهُ لكم فضلَه»؛ بمعنى: لا تعصوا هذا الشخص، ولا تقترفوا ذنبًا كهذا! لكن من كثرة ما تغاضينا عن موضوع «عصيان الرسول» واقتصرنا في كلامنا على عصيان الله تبارك وتعالى فإن جوانبَ الدين هذه أخذت تتلاشى، شيئًا فشيئًا، من ذاكرتنا! والحال أنه لا بد لأساليب تعليم الدين أن تكون بحيث ما إنْ نعطي الطفلَ درسَ أصول الدين حتى يسألنا هذ الطفل: «حسنٌ، طالما أن رسول الله(ص) ليس الآن بيننا وأن الإمام المعصوم(ع) غائب فأوامر مَن نطيع يا ترى كي تتحقّق حقيقةُ الدين؟» قد يقول البعض في هذه النقطة من البحث: «لماذا تَقِفونَ أصلَ التديُّن وحقيقةَ تديُّنِ الفرد على اتّباعه لشخص معيَّن؟!» والجواب بسيط: هل أبواك معصومان؟ أهُما علّامَتان؟ لكن ليس لك أن تسافر من دون إذنهما حتى لو كنت آية الله! فهذا حرام وصلاتُك، إن فعلتَه، غير مقبولة. مع أن أبويك قد لا يكونا من أهل النظر في أمور الدين. والمثال على ذلك قصة أُويس القَرَني، الذي قصد المدينة من مسافة بعيدة لرؤية رسول الله(ص)، فعاد أدراجه من دون رؤيته(ص) بسبب أُمّه، وهي لم تكن مسلمة أيضًا!

ليس من العجيب أن يرتبط كل ديننا باتّباع شخص واحد/ إنّ أصلَ الدين هو: "أنك أمرُ مَن تمتثل؟"

ليس من العجيب جدًّا أن يرتبط كل دينك باتّباع شخصٍ واحد! لقد خُضنا هذه التجربة مع الأبوين، والحال أن رأيهما ليس صائبًا دائمًا. فإنّ عاطفةَ أُمٍّ قد تكبّل حياتَنا كلّ تكبيل، أما هنا (في قضية ضرورة اتّباع أوامر ولي الله) فإنّ القضيةَ قضيةُ كرامةِ أُمّة، قضيةُ استقرار مجتمع وأَمْنِه وصموده! وهذا ما لا يفهمه البعض! لقد رسختْ حقيقة الدين على عهد رسول الله(ص) بحيث كانت «أوامر وليّ أمر الأُمّة الإيمانية أشد الأوامر قداسة». النبيُّ الأعظم(ص) والآياتُ القرآنية كانوا قد رسَّخوا في أذهان الناس أنّ أصل الدين هو «أنّك أوامرُ مَن تمتثل؟» أما الآن فقد عمِدَ الكثيرون إلى فصل الدينَ عن «امتثال أمر ولي الله».

إن الجريمـة التـي اقتُرِفـتْ وأدّتْ إلى تربُّـع أفـرادٍ مثـل يزيـد بـن معاويـة عـلى سُـدّة الحُكـم كانـت مُصادَرة هـذه «القيـادة المقدَّسـة» مـع منزلتِهـا ووضعِهـا تحـت تـصرّفِ أمثـالِ يزيـد. لقـد قُتـل الإمـام الحسـين(ع) في سـبيل حقيقـة الديـن، تلـك الحقيقـة التـي صُـودِرَت! (وإلا فلـم يكـن لأولئـك مشـكلة مـع باقـي أقسـام الديـن؛ فلقـد كانـوا يُصَلّـون، ويصومـون، ...الـخ، ولم يتعرّضـوا إلا إلى هـذه القضيـة بالـذات، وهـي قيـادة الأمـة). لقـد فعـل الحسـين(ع) باستشـهاده مـا جعـل النـاس تتبـيّن وتفهـم مَـن الـذي يوجّـه إليهـم الأوامـر! الحـق أنّ الحسـين(ع) بشـهادته لم يُبـقِ لتيـار الخلافـة وَجاهـة؛ فلـم يَعُـد الخلفـاء مـن بعـده يجـرؤون عـلى صُنـعِ مـا كانـوا يصنعـون. فلقـد كان الخليفـة يقـول فجـأة: «اليـوم أربعـاء لكننـا نرغـب في إقامـة الجمعـة اليـوم»! أسـاس دولـة صاحـب الزمان(عـج) هـو تحقـق ولايـة وَليّ اللـه الأعظـم في الأرض؛ تلـك الولايـة التـي مـن بركاتهـا العَـدل، ومـن ثمارهـا الأمـن. الأسـاس هـو أن هـذه الولايـة مُمكنـة. وإنـه لا بـد للتمهيـد للظهـور أن يكـون، هـو الآخـر، مـن جنـس الظهـور! مـن هنـا فـإن أسـاس التمهيـد هـو إقامـة مجتمـع ولائي، وهـو مـا حصـل منـذ انتصـار الثـورة إلى يومنـا هـذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ٢٣)

علي‌رضا بناهيان

الزمان: ٢٨/أيار/٢٠١٩ ـ ٢٢/رمضان/١٤٤٠
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

الطريق إلى حب الله تعالى هي الإنصات إلى كلامه وطاعته!/ إطاعة الله تعالى تلقي محبّتَه في قلب الإنسان بالتدريج/ يتصور البعض أن المؤمن يتخلّى عن منافعه من أجل "أوامر الله"!/ أمرُ الله يجلب للإنسان أقصى منفعة

حين ننفّذ أوامر الله تعالى تحقيقًا لمنفعة أنفسِنا سنبلغ مقامًا يصبح فيه "أمرُ الله وعصيانه أنفسهما"، شيئًا فشيئًا، مهمَّين بالنسبة إلينا حتى تصير "حرمةُ أمرِ الله" عندنا أهم من تحصيل النفع أو دَرْء الضرر الناشئ عن المعصية؛ يعني أن نخاطب الله: "إلهي، بِغَضّ النظر عما ينفعني أو يضرني، فإني قد أهنتُك بارتكابي الخطيئة".

إذا صدر "الأمرُ" ولم تمتثله فهذا "ذنب"!

بعد المقدمات التي قدمنا لها في المحاضرات الفائتة نريد الآن أن ندخل صُلب الموضوع؛ وهو: «ما هي فلسفة الذنب؟ ما الذي يحصل حتى ينشأ مفهوم اسمُه الذنب؟» إذا صدر «الأمرُ» ولم تمتثله فهذا «ذنب»! أما إذا لم تُبالِ بموضوعِ «أمرِ الله» فقد يُسمَّى أيُّ خطأ ترتكبُه «خطيئة»، أي إنه لا يعود يُسمّى ذنباً أو معصية؛ ومعناه: «إنّي وقفتُ في وجه الله تعالى!» في حين أنّ معنى الذنب أو المعصية هو وقوفُك أمامَ أمرِ الله.

أيّهما أهم: "أن أقفَ أمامَ أمرِ الله"، أم "أن أفعلَ ما يضرّني"؟

علينا في الأساس أن نرسّخ هذه الفكرة في أذهاننا، وهي أنّ أصلَ «الوقوف في وجه الله» يعني أننا نفعل ما يضرُّنا! لكنّه من نقطةٍ ما فصاعدًا لا بد أن يكون «وقوفي في وجه الله!» أهمّ عندي من «أنّني تصرّفتُ بما فيه مضرَّتي»! وبعبارة أخرى: أن تصبح «عدم مراعاتي حُرمةَ أمْرِ الله» بالنسبة إليَّ أهم من «أني أضرَرتُ بنفسي». ثمة منهاج (اسمه الدين) هو لي مفيد، وعليَّ أن أنفّذَه. كما أنّ الله تعالى، ومن فَرطِ حبّه لي، قد وجّهَ إليَّ أوامرَ. ومن أجل أن تزدهر خصلة «العبودية» في نفسي فمن الأفضل لي أن أُطيع هذه الأوامر لكي أكون عبدَ هذا المولى (الله)، لا عبدَ أحد آخر، ولكي أنتفع من عبوديته.

إذا عظُمتْ "حُرمة أمر الله" في نظرك أصبح أمرُ الله عندك أهمَّ من منفعتك الشخصية

بعد اهتمامي، لمدة من الزمن، بموضوع «أمر الله» تصلُ بيَ الحال، تدريجياً، إلى حيث لا أرى منفعتي في تنفيذ هذا الأمر، بل يصير المهم عندي هو مجرّد «كونه أمرًا». بالطبع من المعلوم أن كل ما يأمر به الله هو لمصلحتي، وأنّي إنْ لم أُطِع ففي ذلك مضرّتي. لكن بما أنّ الله عز وجل قد تدخّل هو في القضية - بدافع ما يُكِنّه لعبده من حب، وعلى خلفية أنه لا سبيل أمامي للازدهار غير امتثالي أوامرَ ربي – فقد وضعَ تعالى هذا المنهاج بطريقة «أمرية» وصارَ يأمرني، فباتَ «أمرُ الله» الآن أكثرَ أهمية عندي. أي إن الأمر يصلُ بالإنسان، لدى تنفيذه لأمر الله، إلى حيث لا يعود ينظر إلى منفعته الشخصية، بل إلى أمرِ الله وحسب. لا شك أنّ القائل: «إلهي، اعفُ عني فقد عصيتُك» ملتفتٌ أيضًا في قرارة نفسه إلى أنه، في الحقيقة، قد أضرَّ بنفسه حين اقترف المعصية. إلا أنّ «حرمةَ أمر الله» عنده قد عظُمتْ عَظَمةً حتى استحيَى من ربه، وانقبضَ صدره لما سبّبتْه المعصيةُ له من ابتعادٍ عنه عز وجل. على أن شخصًا كهذا ملتفت أيضًا إلى منفعته، غير أن محور اهتمامه هو أنه: «إلهي، لقد عصيتُك».

لماذا تطرح بعض الأدعية موضوع النفع والضرر؟

يتعيّن على الإنسان من أجل التديّن والإقلاع عن الذنب أن يكون نفعيًّا أولًا. على أنه لن يفارق هذه النفعية حتى نهاية المطاف؛ فمهما أقلع المرء عن المعاصي إلى نهاية عمره فهو في مصلحته، حتى إذا ذاق الشهادة. حينما نواصل تنفيذ أوامر الله تعالى طلبًا لمنافعنا سنبلغ، رويدًا رويدًا، مرحلةً يصبح فيها موضوع «الأمر» وموضوع «عدم معصية الله» أنفسهما مهمَّين لنا إلى درجة أننا لا نعود نتحدث عن منافعنا. وإنْ نحن ذكَرْنا منافعَنا في مناجاتنا لربنا فذلك من أجل أن نثيره بقولنا مثلًا: «إلهي، إنك لتُحبّ أن لا أخسر. انظر، ها أنا قد خسرت! فخُذ بيدي إذن وإلا هلكتُ!» إذذاك سيقول الله تعالى: «لا يا عبدي، لن أدعك تهلك...».

قد يقال في المناجاة: «ظَلَمْتُ نَفْسِي» (دعاء كميل). لكن الأهم بالنسبة إلى أمير المؤمنين(ع) – الذي نطق بهذه الجملة في دعائه – هو أن يقول: «إلهي، لقد تجرّأتُ عليك!» فما بالُه(ع) إذن يتحدث عن نفسه؟ إنه يتحدث عن نفسه لأنه يعلم أنه عزيز جدًّا عند الله.. لأنه يعرف أنّ العبد إنْ قال لربه: «ظلمتُ نفسي» فسيرحمه ربُّه؛ لأن الله يحب عبده محبة الأم لطفلها.

يتصور البعض أن المؤمنين يتخلّون عن منافعهم من أجل "أوامر الله"!/ الاهتمام بأمر الله يجلب للإنسان أقصى منفعة

إنّ خطابَ عبدِ الله لربّه في دعائه: «ظلمتُ نفسي» هو، في واقع الأمر – وبتعبيرنا القاصر – محاولة منه لاستدرار عطفه عز وجل. لأنّ العبد سيصل، شيئًا فشيئًا، إلى حيث لا شيءَ مهمَّ لديه غير أمرِ مولاه، وعندها ستكون ألَحّ قضية عنده هي قضية معصية الله تبارك وتعالى وأنه: «إلهي، بعيدًا عن نفعي أو ضرري، فإنّي قد تجرّأتُ عليك». على أن هذا بالذات يجلب للإنسان أقصى منفعة؛ فأنْ يرى الإنسانُ لربه حُرمةً هو في حد ذاته فرار من الضرر والخسران. من هنا فإن المؤمنين والمتقين يحرصون دومًا على أمر الله ويحترسون لئلا «يُذنبوا» إلى درجة أنّ الغرباء يسيئون الفَهم إذا رأوهم ظانّين أنهم وضعوا منافعهم جانبًا وما عادوا يلهجون بغير «أمر الله»! وإن من الواجب علينا أن نبدّد سوء الفهم هذا، سواء بالنسبة إلى أنفسنا أو إلى الآخرين. فبالنسبة إلينا يتحتم علينا، أوّلًا، أن نكون طالبي منفعة، ثم نتقصَّى أين تكمن أعظم منفعة لنا؟ فإنْ وجَّه إلينا اللهُ تعالى أوامر علِمنا أنه يلطُفُ بنا إذ يوجّه إلينا الأوامر وأنّنا نجني منافعَ لنا بامتثالنا أوامره. كما يجب أن ندرك أن الله عز وجل إنما يُظهِر محبّتَه لنا إذ يوجّه إلينا الأوامر، وأنّ علينا أن نلمس محبته تجاهنا وراء أوامره هذه، فنستشعر الشكر له، ونبتهج لذلك أيما ابتهاج.

يجب أن ندرك أن السبيل إلى جَنيِنا المنافع هي امتثال "أوامر الله"

لا بـد أولًا أن نصـل إلى درجـة مـن الفهـم نُـدرك فيهـا أنـه مهـما وَجَّـه الديـن إلينـا مـن أوامـر فهـو لمصلحتنـا نحـن وهـو يبغـي أن نجنـي نحـن أقـصى اللـذات في هـذه الدنيـا تحديـدًا، وأننـا إن لم نتديَّـن نكـون قـد أفسَـدنا دنيانـا وآخرتَنـا عـلى حـد سـواء. فـإن رسـختْ هـذه الفكـرة في رؤوسـنا توجـب علينـا أن نعلـم أن السـبيل إلى جنيِنـا المنافـع تكمـن في طاعـة الأوامـر، لا في أن نصنـع مـا تُمليـه علينـا أنفسُـنا! وأن اللـه سـبحانه وتعـالى قـد تلطّـف علينـا إذ أبلغَنـا هـذه الأوامـر. لـو نعيـش في أجـواء الأوامـر الإلهيـة قليـلًا فسـنجد، تدريجيًّـا، أن أمـر اللـه، بـل اللـه نفسـه سـيبلُغ عندنـا مـن الأهميـة مـا يجعلنـا، في بعـض الأحيـان، ننـسى منافعَنـا ومَضارّنـا ونحـن ننفّـذ أمـر اللـه! بالطبـع هـذا لا يعنـي أن أمـر اللـه يناقـض منافعنـا، بـل يعنـي أنـه يحظـى عندنـا بأهميـة أكـبر.

طاعة الله تُلقي في قلب الإنسان، شيئًا فشيئًا، حُرمة الله وحُبّه/ السبيل إلى حُب الله تعالى لمَن أرادَه هي "امتثال أمره"

الواقـع أنـه في الأجـواء العسـكرية والمعسـكرات لا أهميـة للقائـد نفسـه حـين يصـدر الأوامـر، بـل هـو يصدرهـا لتمشـية أمـور القتـال، وحفـظ أرواح الجنـد، ...الـخ، غـير أن طاعـة الجنـد لـه - بحـد ذاتهـا - تعمـل، تدريجيًـا، عـلى إلقـاء هيبتـه في قلوبهـم وخَلْـق حُرمـةٍ لـه في نفوسـهم إلى درجـة أن الجنـد المُؤتمِريـن بـه يأخـذون بحبـه، بـل ويجـدون في أنفسـهم الاسـتعداد للتخـلي عـن منافعهـم وبـذل النفـس في سـبيله! أي تنشـأ للقائـد في أنفسـهم، بعـد مـدة مـن الزمـن، حُرمـةٌ فـلا تلبـث أن تـرى الجنـدي وهـو يضحـي بنفسـه مـن أجـل قائـده! حـين تكـون «القـوة» معقولـة يتقبّلهـا الإنسـان، ومـن ثـم يبـدأ - رويـدًا رويـدًا - بحـب مصدرهـا. فـماذا لـو كان مصـدر هـذه القـوة رب العالمـين؟ لا شـك أن حبًّـا غامـرًا للـه عـز وجـل سينشـأ في النفـس. مـن هنـا فـإن أراد المـرء أن يحـب اللـه تعـالى فـإن السـبيل إلى ذلـك «امتثـال الأوامـر»، السـبيل إلى ذلـك هـي الاعتـذار مـن اللـه عـز وجـل بإلحـاح إذا ارتكـب خطيئـة لأنـه يكـون قـد عصـاه. ولقـد أُلقـي الضـوء عـلى هـذه النقطـة في رواياتنـا بشـكل كامـل، فقالـوا(ع): «لَا تَنْظُـرْ إِلَى صِغَـرِ الْخَطِيئَـةِ وَلَكِـنِ انْظُـرْ إِلَى مَـنْ عَصَيْـتَ» (الأمـالي للطـوسي/ ص٥٢٨)؛ أي يصبـح أمـر اللـه وحرمتـه هاهنـا أشـد أهميـة مـن النفـع الـذي لم تنَلـه أو الـضرر الـذي حـاق بـك.

يصبح موضوع المعصية مُهمًّا للمتدينين بمرور الوقت/ لا يستطيع الناس أن يكونوا حسّاسين للمعصية منذ اليوم الأول

أن يكون موضوع معصية الله تعالى «وعدم ارتكاب الذنب» عند المتدينين موضوعًا محوريًا وعلى قدر كبير من الأهمية فهذا يحصل بمرور الوقت ولا يستطيع الناس أن يشعروا فجأةً، منذ اليوم الأول، بحساسية تجاه هذه المسألة. بعبارة أخرى: ليس لنا القول: «ألستَ مؤمنًا بالله؟! إذن لماذا أذنَبت؟» فهذا يجعل الناس ينفرون! لا بد، في المرحلة الأولى، أن تخاطب الشخص: «إن الذنب خسارةٌ لك، وإن في عدم ارتكابه منفعة لك...». ثم تعمد، في المرحلة الثانية، ولمنع سوء التفاهم، إلى أن تُرسّخ في ذهنه فكرة أن الله عز وجل إذ يأمرنا فذلك لفرط حبه لعباده؛ فلأنه يحب رسوله(ص) أكثر فلقد أوجب عليه صلاة الليل؛ فإنْ ترك رسولُ الله(ص) صلاة الليل فقد عصى! فالله تبارك وتعالى إذن يوجّه الأوامر لكل من يحبه! فإن رسَخَ في النفس موضوعُ منفعتنا وحُب الله لعبده، فيما يتصل بالمعصية، كان على المرء أن يتمرّن على الطاعة مدة من الزمن، فإن تمرّن قليلًا تسلّلتْ هيبةُ الله تعالى إلى قلبه شيئًا فشيئًا! فإن استقرّت هيبة الله في قلبه يكون قد بلغ مرحلة: «وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى»، أي عن الرغبات التافهة، فسيَسعَد ويكون مصيره الجنة: «فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى» (النازعات/٤١).

علينا اجتياز ثلاث مراحل كي تتولّد للذنب ومعصية الله عندنا حُرمة:

إذن في وسعنا هنا تصوّر مراحل ثلاث: الأولى هي أن ندرك أن تنفيذ أوامر الله تعالى وعدم معصيته يصب في مصلحتنا. والمرحلة الثانية هي أن نفهم أن الله إنما جعل هذا المنهاج أمريًا، ووجّه الأوامر، وجعل لذلك الجنّة والنار لحُبّه لنا. وأما المرحلة الثالثة فهي أنّ هيبة الله عز وجل، على اعتباره «قائدًا»، ستستقر بالتدريج في قلب مَن يمتثل أوامرَه، بل إنه سيحب الله رويدًا رويدًا. وثمة، بالطبع، في هذا الخِضَمّ مسائل أخرى، أُشيرَ إليها في المحاضرات الماضية؛ فمثلًا إننا إن لم نمتثل أمرَ الله ولم نصبح عبيده فسنصير - لا محالة - عبيدَ غيرِه. فنحن معاشر البشر طُعومٌ لذيذة للأغيار والطواغيت الذين يودّون لو يتسلّطوا علينا، إلى درجة أنّ علينا اللواذ بالله مخافة ذلك!

إن مـن أشـد أصنـاف العـذاب الإلهـي، وهـو مـا تكـرّرَ مضمونـه في القـرآن الكريـم، هـو قـول اللـه جـل جلالـه لبعضهـم: «لـن أُحامـي عنـك وأسـاندك بعـد اليـوم، إنـك لا سـند لـك...» وهـذا كلام عظيـم جـدًّا. أي إننـي إن لم أسـاندك وأحميـك فسـتطحنك هـذه العجـلات المسـننة للدنيـا، وسيسـتعبدك إبليـس، وتتحطّـم في سـبيله، وينتهـي بـك الأمـر إلى نـار جهنـم!

لقد أرادت بريطانيا وأمريكا استعبادنا كما فعَلتا بالهنود!

إننـا إن أصبحنـا عبيـدًا لغـير اللـه فسيسـتغلنا غـيرُ اللـه أو الطاغـوت هـذا لمصلحتـه، ويسـتعبدنا، وفي النهايـة يسـحقنا. عـلى سـبيل المثـال كان البريطانيـون يجلبـون الجنـود الهنـود إلى سـواحل إيـران لقتالنـا فكنـا، إذا أردنـا قتـال البريطانيـين، نقتـل الجنـود الهنـود! فـكان هـؤلاء الأخيرون يُسـحَقون في هـذا الخِضَمّ. مـن أجـل مـاذا؟ مـن أجـل بريطانيـا الخبيثـة! لقـد أراد البريطانيـون والأمريـكان اسـتعبادَنا، كـما اسـتُعبِد الهنـود مـن قبـل! مـن أجـل ذلـك فإنـه عندمـا غَـزا البريطانيـون بلدَنـا هـبّ لمواجهتهـم أمثـالُ «الشـهيد دلـواري»، ذلـك أن أمثـال الشـهيد دلـواري كانـوا يأبون أن نُصبـح عبيـدًا للبريطانيين الخبثـاء كالهنود. فهل تراهـم يُحسـنون معاملتنـا إن أمسـينا لهـم عبيـدًا وخَدَمًا؟ كلا، إنهم يرسـلون عبيدهم للموت في سـبيلهم!

إنّ مَن لا يُنفق ويضحّي في سبيل وليّ الله فسيفعل ذلك في سبيل عدوه!

عـن الإمـام الصـادق(ع) قولـه: «مَـنْ لَـمْ يُنْفِـقْ فِي طَاعَـةِ اللهِ ابْتُـلِيَ بِـأَنْ يُنْفِـقَ فِي مَعْصِيَـةِ اللهِ عَـزَّ وَجَلَّ، وَمَـنْ لَـمْ يَمْـشِ فِي حَاجَـةِ وَلِيِّ اللـهِ ابْتُـلِيَ بِـأَنْ يَمْـشِيَ فِي حَاجَةِ عَـدُوِّ اللهِ عَـزَّ وَجَلّ» (من لا يحـضره الفقيه/ ج٤/ ص٤١٢). فـكل مـن لا يعمـل لصاحـب الزمان(عـج) عمـلًا جهاديًّـا فسـيُنفق بعـضَ عمـره، لا محالـةَ، يخـدم عـدو صاحـب الزمـان(ع) خدمة جهادية ويتحطّم في هذا السـبيل! الكل سـيؤول إلى هذا المصير؛ أي إنهـم سـيبدؤون، مـن مرحلـة مـا فصاعـدًا، بالتضحية بوجودهم في سـبيل غير اللـه أو عدو اللـه؛ مثل أهل الكوفـة الذيـن بذلـوا وجودهـم ليزيـد، فـكان أن وقـع مصيرهم في يـد مجرم سـفاح مثل الحجـاج الثقفيّ!

إنْ قَنَعنا بالقليل من المنفعة استُعبِدنا!

المرحلة الأولى هي أن أفهم أن منهاج الدين هذا وأوامره فيها نفعي أنا. على أن علينا أن نطلب أقصى منافعنا، لأننا إن قنَعْنا بالقليل من المنفعة استُعبدنا! فإن قيل لك: «كم تريد أن تستمتع؟» قل: «أريد أن أستمتع كل الاستمتاع! أريد أن ألتَذّ بأعظم لذّات العالم!» فإن قلتَ: «أكتفي بقليل من المتعة» قيل لك: «تعال، إذن، وكن غلامي، فأنا أمنحك هذا القليل!» إنك إن صرتَ عبده فإنه لن يدعك - وهو عدوّك - تجني أعظم لذّات العالَم، ألا وإن أعظم لذّات العالم هي المعنوية منها؛ إنه لن يذرك تستمتع بلذة كونك حرًّا والعيش بحرية، ولا بلذة حرية الاختيار.. إنه سيعطيك بضع لذات مبتذَلَة؛ كلذة الانصياع وراء النزوات الجزئية، ولذة الجلوس على ساحل البحر، ...الخ، ولا يدعك تستمتع بأكبر اللذات، لا يذرك تجني أعظم المفاخر.

عندما يكون لأمر الله عندي حُرمةٌ وأعصيه فسأدرك أنني فعلتُ ما يضرّني، وسأستحي من الله أيضًا

إذن على المرء، في المرحلة الأولى، أن يفقه جميع منافعه ويعرفها، ويهيِّئها لنفسه، وأن يجتنب كل ما يضره، وأن يدرك أن الدين منهاجٌ الغرضُ منه هو ضمان منافع البشر. ثم أن يفهم، في المرحلة الثانية، أن: لماذا زوّدَه الله تعالى بهذا المنهاج «على شكل أوامر». الجواب: لبضعة أسباب؛ الأول: هو أنه تعالى يحبّه. إذن «فرغبة الإنسان في المنفعة»، مضافًا إلى «رغبته في أن يكون محبوبًا والشعور بالطمأنينة في أحضان رَبّ يحبه» تحرّضه على امتثال أوامر هذا الرب. أما المرحلة الثالثة فهي أنني حينما أطيع الله فستستقر هيبتُه تعالى، تدريجيًّا، في قلبي بصفته «قائدًا»، ويتسلل الخوف من مقامه إلى نفسي شيئًا فشيئًا فأحسب له ألف حساب. وبِغَضّ النظر عن أنني سأدرك - إذا عصيتُه - أنني قد تصرّفتُ بما فيه خسراني، فإنني سأخجل ويغمرني الحياء منه؛ بمعنى أنني - بعيدًا عن مسألة الربح والخسارة - سأحس أنّ هذه العلاقة العاطفية بيننا قد انثلمتْ، فأستحي منه، وأشتاق إليه. فارتكابي الخطيئة سيجعلني أشعر بأني قد انتهكتُ حرمة ربي. وهنا تحديدًا يصل المرء، للتوّ، إلى ظاهرةٍ اسمُها «الذنب»، وسيؤَنِّبُه ضميرُه لاقترافه، ويتألّم، ويندم، وتطرأ عليه تحوّلات روحية تتكشّف عن الاستغفار.

إذا صار المرءُ حسّاسًا تجاه الذنب يكون قد استوعب لتوّه أصلَ الدين

إذا بلغ المرء مرحلة أنه صار حساسًا تجاه الذنب فإنه يكون قد استوعب لتوّه أصل الدين. ولقد بيّنَت الأحاديث الشريفة ملاحظات جمة حول الذنب؛ مثلًا: لا يحق لامرئ زرع اليأس في قلب المذنب، ولا يحق لأحد أن يَيْأس من أيما عاصٍ، إذ من الممكن أن يأخذ الله بيده فيتوب عليه! ولا يجوز لعاصٍ أن يَقنَط، بل أن يسأل الله العون والمساعدة. مَن تكون للمعصية حرمةٌ عنده تراه ينزعج حقًّا إن عصى ربه لأنه قد انتهك حرمة أمر الله عز وجل. شكَى أحدهم للإمام الصادق(ع): إنّي أُدمِنُ معصيةً لا أستطيع الإقلاع عنها، وكلما أقلعتُ عنها واستغفرتُ، عُدتُ إليها.. إنني أتحطّم! «...قَالَ: وَاللهِ إِنِّي لَمُقِيمٌ عَلَى ذَنْبٍ مُنْذُ دَهْرٍ أُرِيدُ أَنْ أَتَحَوَّلَ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ فَمَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ». فكان رد الإمام(ع) أن هذه علامة حب الله لك: «قَالَ لَهُ: إِنْ تَكُنْ صَادِقًا فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّكَ، وَمَا يَمْنَعُكَ مِنَ الِانْتِقَالِ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَخَافَهُ» (الأمالي للمفيد/ ص١٢-١٣)؛ أي إن الله يُبقيك مقيمًا على بابه بواسطة هذا الذنب بالتحديد. فمن أجل أن تخاف الله و لا يغادر هذا الخوف قلبَك فإن الله عز وجل لا يوفّقك إلى ترك هذه المعصية. فلقد تعاظمتْ عنده حرمة الله وحرمة المعصية إلى درجة أنه بات يتألم بسبب ارتكابه هذه المعصية، ومن خلال هذا الشعور بالألم يقوّي الله تعالى هذه الآصرة بين هذا العبد ومولاه.

إنّ المرءَ، بحسب بعض الروايات، قد يدخل الجنة بسبب معصية! لكن كيف؟ يقال: إن العبد ليذنب، وإذا بباصرةِ قلبه تنفتح، فيستحي أيما حياء، ويجتهد في الإصلاح أيما اجتهاد، ويتألم أيما تألُّم حتى يدخل الجنة جراء تألّمه هذا! كل هذا حصل بسبب حرمة المعصية؛ عن رسول الله(ص) قوله: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ فَيَدْخُلُ إِلَى اللهِ بِذَنْبِهِ ذَلِكَ الْجَنَّةَ. فَقُلْتُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: يَكُونُ ذَلِكَ الذَّنْبُ نَصْبَ عَيْنِهِ تَائِبًا مِنْهُ فَارًّا إِلَى اللهِ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ» (أمالي الطوسي/ ص٥٣٠).

لا بد أن يكون للذنب عند الإنسان من الحُرمة ما يبلغ به حد اليأس...

هـذه كلهـا مسـائل تحصـل بسـبب قضيـة «حُرمـة الذنـب». لا بـد للذنـب أن يبلـغ عنـد الإنسـان مـن الحرمـة مـا يدفعـه إلى مشـارف اليـأس، فيأخـذ اللـه حينئـذ بتأميلـه بقولـه: أنـا أحـب التوّابـين: «إِنَّ اللـهَ يُحِـبُّ التَّوَّابِـينَ» (البقـرة/٢٢٢). لا بـد للمعصيـة أن تـؤذي صاحبَهـا حتـى ليتحطـم الأخير مـن فـرط الأذى، وعندهـا يقـول لـه ربـه: «سـأمحو لـك معصيتـك»، فيقـول العبـد: «إلهـي، أنـا شـاكر لـك أنـك تمحـو معصيتـي، لكـن كان ينبغـي لصحيفتـي أن تمتلـئ بالصالحـات! وكل مـا فعلتَـه أنك محـوت المعاصي منهـا، فـما عسـايَ أصنـع الآن؟ كيـف أمـلأ كل هـذا الفـراغ؟!» فيجيـب اللـه تعـالى: «أنـا مُبـدِّل السـيئات بالحسـنات.. أنـا الـذي سـيفعل ذلـك!» حـين تصبـح للمعصيـة عنـد فاعلهـا حُرمـة يودّ لـو يطيـل الوقوف عليهـا دومًـا، ويقـف عـلى أعتـاب ربـه يتحـدث إليـه عـن ذنوبـه. يحـب أن يُكـثِر مـن قـول: «أسـتغفر اللـه ربي وأتـوب إليـه». وهـذا نمـط آخـر مـن المعنويـات.. إنـه عالَـم بحـد ذاتـه! والكثـير مـن المتديّنـين لم يدخلـوا إلى هـذا العـالم بعـد! الـذي يصـير الذنـبُ عنـده ذا أهميـة سـيحترس دائمًـا مـن أن يُذنـب، وسـيُكثر مـن الاسـتغفار. وكـما أسـلفنا في بدايـات البحـث عليـك أولًا أن تحـاذر مـن التفريـط بمنافعـك ومـن أن تخـسر. فـإن وجـدتَ الطريـق السَـوِيَّة إلى نيـل المنافـع فسـتدرك أن اللـه تعـالى وحـده هـو القـادر عـلى حفـظ منافعـك، وعندهـا ستسـلِّم نفسـك - تدريجيًّـا - إلى ربـك قائـلًا لـه: «إلهـي، احفـظ أنـت منافعـي، وسـأنفّذ أنـا أوامـرك!» وإذذاك سـتحصل في حياتـك أحـداث جميلـة؛ كقولـه تعـالى مثـلًا: «وَمَـنْ يَتَّـقِ اللـهَ يَجْعَـلْ لَـهُ مَخْرَجًـا * وَيَرْزُقْـهُ مِـنْ حَيْـثُ لا يَحْتَسِـبُ» (الطـلاق/٢-٣)؛ «أنـت اتَّقِنـي.. أنـتَ فقـط حـاذر في كل حادثـة مـن ارتـكاب الذنـب، وانظـر مـاذا سـأصنع لـك! لا تشـغل بالـك بـأي شيء آخـر!» «مِـنْ حَيْـثُ لا يَحْتَسِـبُ» ليـس هـو مـما يحـدث صدفـة، بـل هـو طريقـة ونهـج؛ إنهـا سـيرة اللـه تعـالى في التعامـل مـع المؤمنـين والمتقـين. الأخـيرون سيعيشـون حيـاةً جديـدة تمامًـا.. سـيعقدون مـع اللـه صفقـة، وسـيعملون معـه ليـل نهـار.. إنهـم لـن يعـودوا قادريـن عـلى العمـل مـن دونـه!

لماذا يحب المؤمنون الإكثار من الاستغفار؟

ولـكي تتولّـدَ للذنـب عنـد الإنسـان حُرمـة فـإن عليـه اجتيـاز بضـع مراحـل: الأولى أن يكـون «عـدم ارتـكاب الذنـب» عنـده مهـمًّا جـدًّا. والثانيـة أن يبلـغ مرحلـة يطيـل فيهـا الـكلام مـع ربـه حـول معاصيـه، ويسـتغفره. وهـذا مـا يفسّر لماذا يُكثِر أوليـاء اللـه مـن الاسـتغفار. عـلى أن دائـرة الاسـتغفار واسـعة جـدًّا؛ فـإنّ لـه أيضًـا مراتـبَ عاليـة جـدًّا، حتـى لَيبـدو أنـه لا يُسـتغفَر للمعصيـة فحسـب، بـل هنـاك أسـباب أخـرى لـه. يبلـغ المـرء في هـذه المرحلـة إلى حيـث يستشـعر الخطيئـة عـلى نحـو موصـول، ويـرى سـلبياته. عـلى حـين أن الإنسـان لا يحـب كثـيرًا النظـرَ إلى مكامـن ضعفـه، أو مشـاهدة مَواطِـن خسرانـه، ولا يـود الإكثـار مـن التحسُّر، إذن لمـاذا يحـب المؤمنـون الإكثـار مـن الاسـتغفار؟ لأنهـم مـا إن يسـتغفروا حتـى يشـهَدوا مـن ربهـم لطفًـا ومحبّـة؛ فهـو القائـل: «إِنَّ اللـهَ يُحِـبُّ التَّوَّابِـينَ». مَـن يعتـذر إلى اللـه تعـالى يلمـس لُطـف اللـه بـه ويـدرك أنـه عـز وجـل يلاطفـه بنظرتـه الحنـون، وإن هـذا لإحسـاس ممتـع حقًّـا.. أَوَيُعقَـل أن تعتـذر إلى ربـك فـلا ينظـر إليـك نظـرة لطـف، ولا تسـتمتع أنـت؟! فـماذا لـو تـرك الإنسـان المعصيـة؟ في الحديـث إن اللـه يذيـق مَـن تـرك الخطيئـة لـذّةً معنويـة مـن لدنـه مـا لم يكـن ليـذوق مثلهـا لـو أنـه ارتكـب تلـك الخطيئـة! «...فَمَـنْ تَرَكَهَـا خَوْفًـا مِـنَ اللـهِ أَعْطَـاهُ إِيمَانًـا يَجِـدُ حَلَاوَتَـهُ فِي قَلْبِـه» (جامـع الأخبـار/ ص١٤٥)، «مَـنْ أَعْـرَضَ عَـنْ مُحَـرَّمٍ أَبْدَلَـهُ اللـهُ بِعِبَـادَةٍ تَـسُرُّه» (أمـالي الطـوسي/ ص١٨٢). وبوسـعك أن تجـرّب هـذا منـذ اليـوم؛ فـإن فُسِـحتْ لـك فرصـة الاسـتغابة مثـلًا فـلا تسـتغب، وانظـر أي دفء سـيغمر وجـودَك! لمـاذا؟ لأن اللـه تعـالى فَـرح بتصرّفـك. لم يكـوّن البعـضُ إلى الآن علاقـةً مـع ربـه، علاقـةً محورهـا «الذنـب». فليـس مثـل الذنـب شيء يمكنـه أن يشـكّل موضـوعَ غـرامٍ بـين العبـد ومـولاه! أنـا أرتكـب الخطيئـة، واللـه يعفـو.. أنـا أتمـادى في ارتـكاب الخطيئـة، واللـه أيضًـا يُبالـغ في العفـو! فأقـول: «إلهـي، صحيـحٌ أنـك غفـرتَ لي خطيئـاتي، لكـن مـاذا عسـايَ أصنـع بعمـري هـذا الـذي هدرتُـه بالعُطْـل والبطالـة؟» فيقـول اللـه: «سـأتدارك الأمـرَ لك!»

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ٢٤)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ٢٩/أيار/٢٠١٩ ـ ٢٣/رمضان/١٤٤٠
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

مَثارُ النزاع هو كونُ رسولِ الله(ص) مُطاعًا، لا كونه مُعلّمًا!/ ما الذي يُصَعِّب على الإنسان طاعةَ الرسول(ص) والإمام(ع)؟ التديّن بعد هذه المرحلة يصبح سهلاً جدًّا!

ما الذي يُصعِّب على الإنسان طاعة الرسول(ص) والإمام(ع)؟ إنها صفة التكبّر والحسد عند الإنسان! وما الذي يجعل تقبُّل طاعةِ وليّ الله يسيرًا؟ إنّه صلاح وليّ الله، ورأفته بنا، وشفقته علينا! فإن ما يُسَهِّل الأمرَ علينا هو حب أهل البيت(ع) لنا، وتضحياتهم من أجلنا، وظلامتُهم.

بعد "مراقبَة أمرِ الله" يأتي الدور "لمراقبة أمرِ ولي الله"

بعد أن تصدّرتْ مسألةُ المعصية وطاعة الله اهتمامات الإنسان المؤمن المتدين، وبات الاحتراس «مخافة إهمال أمر الله» عنده على جانب كبير من الأهمية، حتى صار اهتمامه فيما إذا كان قد عصى ربه أو لا أو أطاعه أو لا أشد من اهتمامه بما ينفعه أو يضره هو - بعد هذا كله يأتي الدور للمرحلة التالية؛ أي الخشية من أن يعصي رسول الله(ص)، أو من أن لا يطيع وليَّ الله، بل يبلغ حدَّ حفظِ حقِّ وليِّ الله ومراقبة أمرِه حتى في قلبه. ولم تتحقق هذه المرحلة كما ينبغي لها حتى في صدر الإسلام، بل ولم يبلغ الناس على مَر التاريخ المستوى المطلوب من النضج. وسيتحقق هذا في زمن صاحب الزمان(عج). بالطبع لقد تحقق اليسير منه في أيام رسول الله(ص)، بل ما كان تديُّن الناسِ بدين الإسلام وقبولُهم نبوّةَ النبي الخاتم إلا بمعنى امتثال أوامر الرسول والدفاع عنه(ص). كما قد تبيّن، فإن محور الدين وقضيته الجوهرية هي «عدم معصية الله». لكن ما إن نخطو قليلًا إلى الأمام حتى نرى أن هذه هي المرحلة الابتدائية للدين، أما في مرحلته التالية فتُطرح مسألة عدم معصية الرسول(ص) والدفاع عن رسول الله ووليّه، بل فداء النفس في سبيلهما. وهذه صفحة من صفحات الدين لا تتسنّى لنا رؤيتُها بهذا النصوع إلا في يوم عاشوراء؛ أي إن هذه الصور لم تشاهَد حتى في غزوات رسول الله(ص) وأمير المؤمنين علي(ع) كما شوهدت يوم الطف؛ إذ يُحدّثنا التاريخ أن بعض من كانوا بين يدي أمير المؤمنين(ع) كانوا يقفون في وجهه ويخالفون أمره. إنه ليتوجب علينا، في هذه المرحلة السابقة للظهور، أن نستعد لتحقُّق ذلك الدين الذي ما إن يطبّقه صاحبُ الزمان(عج) حتى يقول الناس: «هذا دين جديد!» والحال أنه ليس بجديد، بل هو حقيقةُ هذا الدين بالذات، كل ما في الأمر أنه بلغ مرحلة التطبيق.

طاعة الله كانت موجودة قبل الإسلام أيضًا؛ المشكلة هي في أن النبي(ص) كان يجب أن يطاع أيضًا

لاحِظوا منزلة ولي الله وأهمية طاعته في التاريخ الإسلامي. على سبيل المثال حينما قَدِمَ جَمع من أهل يثرب ليبايعوا رسول الله(ص) بيعة العقبة الثانية، ماذا كان مضمون البيعة؟ لم تتضمن لا وصايا أخلاقية ولا مسائل عقائدية! بل إن أهم ما جاء فيها هو دفاعهُم عن رسول الله(ص) وبذل أنفسهم وأموالهم في سبيله. بل لم يكن الغرض من هجرة النبي(ص) إلى يثرب إلا من أجل دفاعهم عنه: «فَقَالَ: بَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ... وَعَلَى أَنَّ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ يَثْرِبَ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمْ الْجَنَّةَ» (دلائل النبوه/ ج٢/ ص٤٤٥). ما معنى الإسلام يا ترى؟ فطاعة الله عز وجل كانت موجودة من قبل أيضًا؛ نعم، مع بعض الاختلاف، وبعض الزيادة أو النقصان في التفاصيل. فكانت الكعبة مُبَجَّلة قبل الإسلام كذلك، وهذه - في الحقيقة - كانت طاعةً لله. وكانوا آنذاك يذبحون الأضاحي، وهذه هي الأخرى طاعة لله؛ هذا وإن جَهِلوا بعض التفاصيل، أو لم يكن لهم علم بالجزئيات جميعًا فيعملوا بها. المشكلة آنذاك كانت في «أن هذا النبي المُرسَل يجب أن يُطاع، وأن يَسود الناس»؛ أي إنّ تقبُّل سيادة النبي(ص) كان شاقًا على المشركين منذ البداية. فلو كان النبي(ص) قد أزاح نفسَه من القضية قائلاً: «إنما أنا نبي(ص) جئتكم لأُكمِل تعاليم الله وأرحل، ولا غير!» لما خالفَه أحد! أوَهل كان النزاع حول كيفية الصلاة وطريقة العبادة يا ترى!

مَثارُ النزاع هو كونُ رسولِ الله(ص) مُطاعًا، لا كونه مُعلّمًا!

إنّ مثارَ النزاع هو «كونُ رسولِ الله(ص) مُطاعًا»، فإنّ «كونَه مُعلّمًا» لا يثير نزاعًا، وإنّ «كونَه متخلّقًا بأخلاق الإسلام» لا يخلُق نزاعًا أيضًا! لقد كان للقبائل ورؤسائها آنذاك منزلة ونفوذ، فجاء النبي(ص) وفكّك النظامَ القَبَلي قائلًا للناس: «أنا السيّد عليكم، وأنا أيضًا مَن ينصب مَن يسودُكم من بعدي» وهذا تحديدًا هو ما أثار المشكلة.

الدين يوصِل الإنسان إلى حيث يقول له «مَن يجب عليك اتّباعُه». والآيات القرآنية - بالمناسبة - تذكر أن هذه كانت أهم نقطة نزاع بين الكافرين جميعًا وبين أنبياء الله قاطبة! بل إن صراع قابيل وهابيل أيضًا لم ينشب حول وجود الله؛ أي لم تكن المشكلة أن هذا يقول: «الله موجود»، وذاك يرد: «كلا، ليس موجودًا، إذن أقتلُك!» بل مشكلة قابيل كانت: «لماذا آثرَكَ اللهُ عليَّ؟!»

المرحلة الثانية هي الحذر من عصيان الرسول ووليّ الله، وهي أصعب من سابقتها

حين نصل إلى موضوع الذنب ولزوم عدم اقترافه ونُقِرّ بهذا نكون قد وضعنا أرجُلَنا، للتوّ، على أول الطريق! هاهنا يقاوم البعضُ ولا يرضخ. بالطبع قد يكون أمثال هؤلاء أذكياء فيقولون: «إن نحن لم نقاوم هاهنا مفهومَ طاعةِ الله ومعصيتِه فسيجرّونا فيما بعد إلى المرحلة الثانية، الأصعب، وهي مفهوم طاعة الرسول ومعصيته!» أجل، المرحلة الثانية ستكون أصعب، وهي أن تحاذر من عصيان رسول الله(ص) وإمام الأمة! إذذاك سيتغيّر وجهُ الدين تمامًا، وسيصبح شيئًا آخر. وقد يحدث أن يقول الجميع بعد الظهور: «الإمام الأخير جاءنا بدين جديد!»

في الخبر إن الله قد فوض أمر الناس لنبيّه لينظر كيف يطيعونه!

يقول زُرارة: «سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ وَأَبَا عَبْدِ اللهِ(ع) يَقُولانِ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَوَّضَ إِلَى نَبِيِّهِ(ص) أَمْرَ خَلْقِهِ لِيَنْظُرَ كَيْفَ طَاعَتُهُمْ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ: مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (الحشر/٧)» (الكافي/ ج١/ ص٢٦٦)؛ بل هذا هو منهاج الدين أساسًا. انظر إلى أي درجة من الشفافية تم توضيح أنّه: عَمَّ يدور أصل الموضوع! وهناك آيات عديدة تطرح هذا الموضوع نشير هنا إلى بعضها. يقول تعالى مثلًا: «فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا» (الفرقان/٥٢)؛ أي ستكون لك، أيها النبي، مواجهة ضخمة مع الكافرين بسبب عدم اتّباعك إياهم وطاعتك لهم. الجهاد الأكبر هو جهادٌ أكبر مقارنةً بالجهاد الأصغر، أما الجهاد الكبير (في الآية) فهو كبير بحد ذاته.لقد نزلت هذه الآية في مكة. لكن السؤال هو: ما الذي قاله الكفار ليتوجّب على النبي(ص) أن لا يطيعهم؟ وماذا كان منطقهم؟ هل قالوا للنبي(ص): «لا شأن لك بعبادة الله؟»

هـل طَلَبـوا إلى النبـي أن يعبـد الأصنام؟ إنهـم لم يدْعـوا النبـي إلى عبـادة الأوثـان أو إلى القبائـح كـشرب الخمـر! وقـد أشـارت الآية السـابقة إلى مـا قالوا: «وَلَوْ شِـئْنَا لَبَعَثْنَـا فِي كُلِّ قَرْيَـةٍ نَذِيرًا» (الفرقـان/٥١). لقد قالـوا للنبـي(ص): «قـل لربـك أن يُرسـل نبيًّـا إلى كل قـوم كي لا يختلفـوا بـأن يريـد الجميع اتّباع نبـيٍّ قومٍ مـن الأقـوام!» وهـو طلـبٌ ظاهـره إنسـاني ومعقـول، إلا أن «الجهـاد الكبـير» (الـذي ذكرَتـه الآيـة) كان في معارضـة هـذا الـكلام تحديـدًا، لأن اللـه يقـول: «لقـد جعلـتُ سـيّدًا واحـدًا ونبيًّـا واحـدًا للنـاس جميعًا!»

بحسب القرآن الكريم على المؤمنين أن يقولوا إذا أمرَهم النبي(ص): «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»

يقـول عـزَّ مـن قائـل في آيـة أخـرى: «إِنَّمَـا كَانَ قَـوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُـوا إِلَى اللـهِ وَرَسُـولِهِ لِيَحْكُـمَ بَيْنَهُـمْ أَنْ يَقُولُـوا سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَـا» (النـور/٥١)؛ أي هـذا مـا ينبغـي للمؤمنـين قولـه إذا أمـرَ النبـي(ص)، وهـذا أشـبه بنظـام الجيـش؛ كـما أنـه في نظـام الانضبـاط العسـكري أو في بعـض القوانـين العسـكرية لا بـد للجنـود أن يقولـوا «نعـم، سـمعًا وطاعـة!» إزاء أمـرِ أيٍّ ذي منصـبٍ أعـلى، ومـن ثـم يطيعـوا الأوامـر، لا أن يطيعـوا هكـذا وحسـب؛ أي حـين يوجّـه الآمِـر أوامـرَه فـإنّ عليهـم أولًا أن يجيبـوا: «نعـم»، ومـن ثـم ينّفـذوا الأوامـر. وهـذا إبـرازٌ لأمـرِ الطاعـة! وإن عـلى المؤمنـين كذلـك أن يقولـوا إذا أمرهـم النبـي(ص) أمـرًا: «سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَـا»، ومـن ثـم يَعْمَـدوا إلى تنفيـذه.

كانت مشكلة الإغلبية هي قولهم: أَنَتّبعُ بشرًا مثلَنا؟

في الحديـث: «عَـنِ ابْـنِ أَبِي كَثِـيرٍ قَـالَ: لَـمَّا تُـوُفِّيَ مُـوسَى [بـن جعفـر](ع) وَقَـفَ النَّـاسُ فِي أَمْـرِهِ» أي وقَفـوا في إمامتـه ولم يتّبعـوا ولَـدَه عـلي بـن مـوسى الرضـا(ع) إمامًـا. «فَحَجَجْـتُ تِلْـكَ السَّـنَةَ فَـإِذَا أَنَـا بِالرِّضَـا(ع)». وكان(ع) وسـطَ النـاسِ حـوالَي الكعبـة. شـغَلَني أمـرُه وإذا بخاطـر يَخطُـر ببـالي، وهـو آيـة مـن القـرآن الكريـم: «فَأَضْمَـرْتُ فِي قَلْبِـي أَمْـرًا فَقُلْـتُ: أَبَـشَرًا مِنَّـا وَاحِـدًا نَتَّبِعُـهُ... الآيَـةَ، (القمـر/٢٤)؛ إذ رأيتُـه بـشرًا حالُـه حـالُ الآخريـن، (وقـد تكـرر هـذا المضمـون في آيـات قرآنيـة كثـيرة). «فَمَـرَّ عَـلِيٌّ [الرضـا](ع) كَالْـبَرْقِ الْخَاطِـفِ عَـلَيَّ فَقَـالَ: أَنَـا وَاللـهِ الْبَـشَرُ الَّـذِي يَجِـبُ عَلَيْـكَ أَنْ تَتَّبِعَنِـي! فَقُلْـتُ: مَعْـذِرَةً إِلَى اللـهِ تَعَـالَى وَإِلَيْـكَ. فَقَـالَ(ع): مَغْفُـورٌ لَـك» (عيـون أخبـار الرضـا(ع)/ ج٢/ ص٢١٧).

على الإنسان أن يُبَدِّدَ كِبْرَه وحسدَه بامتثال أوامر وليّ الله

ودعونا هنا نتناول الجانب النفسي من المسألة: إذا اقتنع الإنسان بالدين صار «مطيعًا»؛ أي إنه سيلتفت إلى منزلة «الأمر» في الدين فيمتثل أمرَ الله عزّ وجلّ. لكن ماذا عساه يصنع بغروره وتكبّره يا ترى؟ إنه، بسبب هواه، لم يكن في البدء قادرًا على الخضوع للأوامر وامتثالها. ثم يقنع - شيئًا فشيئًا - بالتخلّي عن هواه والسعي وراء لذّاته في حدود الأوامر الإلهية والعيش ضمن هذه الحدود. لكن ماذا عساه الآن يصنع بتكبّره (وهو ما يَظهَر اجتماعيًّا بصورة «الحسد»!)؟ كيف يتعامل مع حسَده هذا؟ إنّ عليه أن يذبحهما كِلَيهما في محراب أمْرِ وليّ الله، وأن يُذعن لقضية أنَّ: «لوليّ الله علينا السيادة والقيادة». وعلينا أن نذعن إلى أنّه ما زال: «قبولُ دينٍ محورُه طاعةُ شخصٍ» مسألةً صعبة، وما زالت مناهجنا المتداوَلة في تعليم الدين تميل أكثر إلى العَلمانية؛ بمعنى أنها تشطب على دَور الشخص! كما يصرّح بعض التنويريّين المتغرّبين قائلين: «لقد أصبح هذا متعارَفاً منذ أيام الصفوية!» أي إنهم يشطبون، بجرّة قلم، على آل بُوَيه في التاريخ، ويُلغون الكثير من الأحاديث!

التديّن بعد هذه المرحلة سهل جدًّا!

والآن ماذا لو تقبّل امرُؤٌ هذه الحقيقة؟ إنه بمجرّد أن يتقبّل المرء هذه المرحلة فيُذعن لأفضلية الرسول(ص) ويقرّر طاعتَه وطاعةَ وَليّ الله يصبح الباقي سهلًا يسيرًا مثل شُربة الماء. الإذعان لهذه الحقيقة هو على هذا القدر من الأهمية والقيمة؛ ففيما يلي، أولًا، سيمُدّ الله عز وجل له يد العون ويُسَهّل له باقي الطريق. وثانيًا، إنْ أذنبَ تجاوزَ الله تعالى عن ذنبه بسهولة. وثالثًا: إنّ الله أساسًا لن يدعه يذنب، بل سيجُرّه إليه ويغيّر مسارَه نحو الصالحات. كل هذا بسبب اجتيازه هذه المرحلة المهمة، بسبب قوله: «ديني طاعتُك، لقد قبلتُ بهذا». وحينما يُذنب القابلُ بهذه الحقيقة، بأن يعصي الرسول(ص) أو يعصي وليّ الله - وهو ما يعني عصيان الله تعالى في مسألة اتّباع الإمام - ثم يعتذر فسيُقبَل اعتذارُه بكل سهولة. وإنه لَمِن هنا فصاعدًا يتسنّى لنا القول: «الدين حقًّا سهل!» وهو قوله عز من قائل: «يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» (البقرة/١٨٥).

في الحديث الشريف: «إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالَ لِأَبِي الْحَسَنِ الثَّانِي [الرضا](ع): إِنَّ مِنْ شِيعَتِكُمْ [أي من المعتقدين بأصل طاعة الإمام] قَوْمًا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ عَلَى الطَّرِيقِ». فانظر ماذا كان جواب الإمام الرضا(ع)؟ «فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي جَعَلَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ فَلَا يَزِيغُونَ عَنْه»؛ أي إنه(ع) اتّخذَ من «الطريق» معنى «الطريقة والنهج» لا طريق المارّة. «وَاعْتَرَضَهُ آخَرُ فَقَالَ: إِنَّ مِنْ شِيعَتِكَ مَنْ يَشْرَبُ النَّبِيذَ!» فرأى(ع) أن لا بأس به «فَقَالَ(ع): قَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ(ص) يَشْرَبُونَ النَّبِيذَ!» (أي اتّخذ الإمام(ع) المعنى الآخر المستعمل لِلَفظة «النبيذ» محاولًا غضّ الطرف عن الموضوع). «فَقَالَ الرَّجُلُ: مَا أَعْنِي مَاءَ الْعَسَلِ وَإِنَّمَا أَعْنِي الْخَمْرَ» (بحار الأنوار/ ج٢٧/ ص٣١٤). وفي رواية مشابهة: «عَنْ فُرَاتِ بْنِ أَحْنَفَ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللهِ(ع) إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَلَاعِينِ فَقَالَ: وَاللهِ لَأَسُوءَنَّهُ مِنْ شِيعَتِه... فَقَالَ: إِنَّ شِيعَتَكَ يَشْرَبُونَ النَّبِيذَ. فَقَالَ: وَمَا بَأْسٌ بِالنَّبِيذِ، أَخْبَرَنِي أَبِي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ(ص) كَانُوا يَشْرَبُونَ النَّبِيذَ. فَقَالَ: لَيْسَ أَعْنِيكَ النَّبِيذَ إِنَّمَا أَعْنِيكَ الْمُسْكِرَ. فَقَالَ: شِيعَتُنَا أَزْكَى وَأَطْهَرُ مِنْ أَنْ يَجْرِيَ لِلشَّيْطَانِ فِي أَمْعَائِهِمْ رَسِيسٌ، وَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ الْمَخْذُولُ مِنْهُمْ فَيَجِدُ رَبًّا رَؤُوفًا، وَنَبِيًّا بِالاسْتِغْفَارِ لَهُ عَطُوفًا، وَوَلِيًّا لَهُ عِنْدَ الْحَوْضِ وَلُوفًا، وَتَكُونُ وَأَصْحَابَكَ بِبَرَهُوتَ [اسمُ وادٍ باليمن قيل إنّ فيه أرواح الكفّار] مَلْهُوفًا» (التمحيص/ ٣٩-٤٠)؛ أي إنهم سيلقون يوم القيامة نبيًّا وإمامًا يُنجيهم، فانشغِلْ أنت بحال نفسك.

الإمام الخميني(ره): لا نفعلنَّ ما يَنكُسُ رأسَ صاحب الزمان(عج)!

إن شئتم أن لا يرتكب الناسُ المعاصي فارفعوا مَنسوبَ التشيّع وطاعة وليّ الله عندهم. وإن أردتم أن يتوبوا فقولوا لهم: «ألا إنكم لم تضُرّوا الله شيئًا بإثمكم، لكنكم كَسَرتُم قلبَ صاحب الزمان(عج)، فماذا عساكم صانعين بهذا؟» وهذه كانت سيرة العارف الواصل، قائد الثورة العظيم، سماحة الإمام الخميني(ره) في تعاطيه مع المعصية. كان يقول: «لا نفعلنَّ ما يَنكُس رأسَ صاحب الزمان(ع)!»

«اِحرِصوا على أن لا تكون أفعالُكم ما إنْ عُرِضَتْ على صاحب الزمان، سلام الله عليه، تأذّى منها لا سمح الله، وجعلَتْه مَنكوس الرأس أمام ملائكة ربّه، مِن أنّ هؤلاء شيعتي وأوليائي، وقد تصرّفوا بما يخالف مقاصد الله عز وجل. فإن سيّد القومِ يتألّم إذا اقترف قومُه الآثام» (صحيفه امام (صحيفة الإمام)/ ج١٢/ ص٣٥٨). «آثامُنا تُخجِل صاحبَ الزمان(ع). حينما تُعرَض صحائفُنا عليه(ع) فيرى أن شيعته (ألا وإنكم وإنّا من شيعته) ترتكب هذه الأعمال، ثم يطّلع عليها مَلَكُ الله الذي أخذَ الصحائف إليه، يَخجَل(ع) من ذلك» (صحيفه امام (صحيفة الإمام)/ ج٨/ ص٤٢٣).

ليكن همُّنا في الإقلاع عن المعاصي هو "لكي لا نكسر قلبَ صاحب الزمان(ع)"

لاحظوا أنموذجَ دِينِ الإمام الخميني(ره) هذا! يقول(ره): إن صاحب الزمان(عج) سيّدُنا، وإنّ سيّد القوم ليخجل إذا ارتكب قومه الآثام! أي إنّنا بمعاصينا نَنْكُس رأسَ صاحب الزمان(ع)؛ لأنه(ع) يحبّنا حُبًّا جَمًّا ولذا فإن قلبَه ينكسر بسبب ذنوبنا! حينما تُمسي نظرتُنا هكذا فستختلف القضية تمامًا وسيتغيّر هَمُّنا من الأساس. بالطبع، كما قد قلنا سَلَفًا، إنّ من الهموم التي تراود الإنسان للإقلاع عن المعصية هو صَونَ حُرمة الله تعالى. أما الهَمُّ الآخر، على حد قول الإمام الراحل(ره)، فهو عدم كَسر قلب صاحب الزمان(ع). فإن كان هذا هَمُّنا فسنرى كيف ستشتدّ توبتُنا وتتعزّز تقوانا! إن دعوة الناس إلى تقوى الله «دونما وساطةِ أهل البيت(ع)» غيرُ ممكنة، ولو أننا أردنا القيام بذلك لما أفلَحنا، ولو كان هذا ممكنًا لما كان من داعٍ أصلًا لوجود وليّ الله في المسألة! فثمّة سيّد في هذا الخِضَمّ لا يمكننا تجاوزه! قل: «يا ابن الحسن، ماذا عساي أفعل لك؟! إنك تستيقظ كل ليلة فتدعو وتستغفر لي! ما أتْعَسَني لذلك!» فالله عز وجل يقول في كتابه العزيز: إن الله ورسوله يرَيان أعمالكم: «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ» (التوبة/١٠٥). إلهي، إنّ بإمكاني أن أتصالح معك إذا أذنبتُ، لكن ماذا أصنع مع رسولك؟ هذا الرسول الرؤوف الرحيم الذي قلتَ فيه: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» (التوبة/١٢٨).

يقول الإمام الخميني(ره): «بحسب الحديث، إنّ صحيفةَ أعمالنا تُعرض على صاحب الزمان، سلام الله عليه، مرّتين في الأسبوع. وإني لأخشى أن لو شاهد هذا الرجلُ العظيم(ع) صحيفةَ أعمالنا، نحن الذين نزعم أننا أتْباعه وشيعته(ع) - وسيراها، تحت إشراف الله عز وجل - أخشى أن يستحي والعياذ بالله. فلو أنّ وَلَدًا من أولادكم أَثِمَ فستخجلون، ولو أن غلامًا لكم اقترف جُرمًا فستخجلون. إنّ المرء ليخجل إذا ارتكب ولدُه أو غلامُه أو تابعُه عملاً مُشينًا أمام الناس. خوفي أن نصنع نحن ما يُخجِل صاحب الزمان، سلام الله عليه، بين يدي الله تعالى» (صحيفه امام (صحيفة الإمام)/ ج٨/ ص٣٩١).

كيف يجب أن تكون مجالس استغفارنا؟

إننا، أساسًا، قلّما نقيم مجالس استغفار عامرة جَريًا على سيرة الإمام الخميني(ره) هذه! مجالس يكون وِردُنا فيها «يا ابن الحسن»، و: «سيدي، المعذرة!» كما نقرأ في نهاية زيارة الجامعة الكبيرة: «يَا وَلِيَّ اللهِ، إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ذُنُوبًا لَا يَأْتِي عَلَيْهَا إِلَّا رِضَاكُمْ» (من لا يحضره الفقيه/ ج٢/ ص٦١٦)؛ أي إن لي في مجال أوامرالله ذنوبًا لا يغفرها الله لي إلا أن ترضوا أنتم عني. فإن الله قد فوّض إليكم أمر خلقه: «اسْتَرْعَاكُمْ أَمْرَ خَلْقِهِ» (المصدر نفسه). ولا تفتّشوا كثيرًا عن مثل هذه الأمور في تاريخ الإسلام! فلو كانت هذه السُنّة جارية على مدى تاريخ الإسلام لما قاسى أهلُ البيت(ع) كل تلك الغُربة، ولما رُفع دين الله على الأسِنّة! بل ولامتثلَ الذين كانوا مع النبي في واقعة أُحُد أمْرَ رسول الله(ص)، لكنهم فرّوا بأرواحهم وتركوه وحيدًا! والعصيان نفسه نجده في عسكر أمير المؤمنين(ع) أيضًا!

بحسب القرآن الكريم: مَن يشقّ عليه التسليم لأمر النبي حتى في قرارة نفسه فلا إيمان له!

لاحظ بأي وضوح تبيّن الآية الكريمة التالية هذه القضية: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (النساء/٦٥)؛ أي: قسمًا بربك أيها النبي إنه لا إيمان لمَن تحكُمُ له حُكمًا ثم يصعُب عليه في قرارة نفسه أن يسَلِّم لحُكمك هذا! بل لو نفّذه وكان هذا التنفيذ، في قرارة نفسه، صعب عليه قليلً، فإنه لا إيمان له أبدًا، اللهُمّ إلا أن يسلِّم لحكمك تسليمًا! يشير العلامة الطباطبائي(ره) هنا إلى أن هذا التسليم يكون من قرارة النفس! (الميزان في تفسير القرآن/ ج٤/ ص٤٠٥)؛ بمعنى: لو أنك حكَمتَ فاعترضَ هو على حكمك في قرارة نفسه، فهو والله عديم الإيمان! فكم مرة يا ترى أقسمَ اللهُ بنفسه في القرآن الكريم؟! ما الذي علينا فعله إذا أذنبنا؟ علينا أن نقصد باب صاحب الزمان(عج) ونطرقها قائلين: «يا ابن الحسن، لستُ منزعجًا لتوجيهك الأوامر لي، كل ما في الأمر أنّي أجرمتُ، اقترفتُ خطيئة، فاقبَل عذري...» وأهل البيت(ع) عفُوُّون رُحَماء بالمعنى الحرفي للكلمة. فما إن ننوح قليلًا بين أيديهم، ينوحون هم على أعتاب الله تعالى أكثر من نياحنا، ويشفعون لنا.

ما يُصعِّب طاعةَ الرسول والإمام على الإنسان هو الكِبْر والحسَد!

يقول الكثيرون: «الجنة والنار غيرُ مشرفتَين علينا، بل بعيدتان ولذا فإن أثرهما علينا ليس هو مما يحثّنا على الإقلاع عن المعصية». حسنٌ، إن كانت الجنة والنار بعيدتين فالإمام(ع) قريب! فمن الملموس جدًّا أننا نؤذي الإمام(ع) بذنوبنا. إذن أَرْضِ هذا السيد (الإمام وولي الله) عنك! لكن ما الذي يُصعِّب هذا الأمر على الإنسان؟ إنه الكِبْر فيه! ما الذي يُصَعِّب على الإنسان الرضوخ لهذه المرحلة الثانية (طاعة الرسول والإمام)؟ وما الذي يصعِّب عليه قبول عصمة هذا الإمام(ع)؟ الذي يصعب هذا الأمر هو صفة التكبّر والحسد والنذالة في الإنسان! ثم ما الذي يُسهِّل عليه هذا الأمر؟ إنه صلاح هذا الإمام، ورأفته بنا، وشفقته علينا! فإن حب أهل البيت(ع) لنا يُيَسِّر أمرَ طاعتهم علينا!

لماذا ينظر الإمام صاحب الزمان(عج) في صحيفة أعمالنا كل أسبوع؟

تأمّل في أنه: كم يحبك الإمام صاحب الزمان(عج)؟ سؤال: كُلّ متى ينظر أبواك في إضبارتك المدرسية؟ الإمام المهدي(ع) ينظر في صحيفة أعمالك مرتين في الأسبوع! من أجل ماذا؟ أيبغي التجسس عليك معاذ الله؟! أيريد أن يُمسك عليك زَلّة ؟ أهو واجبه الإداري وتراه مُكرهًا على إنجازه؟ أم أنه يُحبّنا ويتفقّدنا واحدًا واحدًا ليرى: «ماذا حَلّ بولدي هذا؟ وما أخبار ابنتي هذه؟»، ويعيد الكَرّة الأسبوع التالي، وكذا الأسبوع الذي يليه، وهكذا. يقول(ع): إن أعمالكم تُعرَض عليَّ فأشكر الله على صالحاتكم، وأستغفر لكم الله وأتوسّل إليه ليصفح عن ذنوبكم: «فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ كُلَّ يَوْمٍ فَمَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ اسْتَزَدْتُ اللهَ لَكُمْ وَمَا كَانَ مِنْ قَبِيحٍ اسْتَغْفَرْتُ اللهَ لَكُم» (وسائل الشيعة/ ج١٦/ ص١٠٩). وكذا: «فَتُعْرَضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ عَشِيَّةَ الإِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ فَمَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ حَمِدْتُ اللهَ عَلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ سَيِّئٍ اسْتَغْفَرْتُ اللهَ لَكُم» (وسائل الشيعة/ ج١٦/ ص١١٠). صاحب الزمان(ع) يتقصَّى أعمالنا أسبوعيًّا. الشخص الذي لا يكِلّ منا أبدًا هو الحجة بن الحسن العسكري(ع). هذا أقصى موضوع الإثم والاستغفار والمناجاة! فلماذا أُوصينا يا ترى بأنه: متى ما استغفرتَ الله فصلِّ على النبي وآله؟ لأنك متى ما استغفرت الله يقول لك عز وجل: أَراضٍ عنك سيّدُك أنت الذي قصدتَي لتستغفرني؟

يوم القيامة سندرك كم كانت قضيتنا سهلة!

كم قضيّتنا سهلة! يوم القيامة سنفهم كم كانت قضيتنا حقًّا سهلة! يقرأ البعض القرآن الكريم ويلاحظ مدى عظمة الله تعالى فيخامره الخوف منه. لكن عليه أن يعلم أن الله عز وجل قد جعل له إمامًا رؤوفًا شفيقًا يطوّقه بذراعيه ويأخذه معه، فلماذا لا يراه؟! لقد هيّأ الله تبارك وتعالى لنا كل هذه الإمكانيات. صحيح أن إمام زماننا الآن غائب، لكنّ قصص الإمام الحسين(ع) قد رُويت علينا بكثرة حتى أنّ هذه الظلامة قد يَسَّرتْ علينا الأمر؛ فلقد أضرمَ الإمامُ الحسين(ع) النارَ في قلوبنا بتضحياته! إلى درجة أن قلبك لم يَعُد يطاوعك أن تشمَخ عليه(ع) بأنفك! وصحيح أننا لم نُدرك أيام رسول الله(ص)، لكن رثاء فاطمة الزهراء(س) قد تُلي علينا مرارًا...!

بسم الله الرحمن الرحیم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ٢٥)

علي‌رضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ٣٠/أيار/٢٠١٩ ـ ٢٤/رمضان/١٤٤٠

المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)

الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

ظروف المعصية لا تتهيّأ صدفة، بل يرتّبها الله تعالى/ لربّما سألْنا اللهَ شيئًا لا نستطيع اجتياز امتحانه بنجاح!/ عملان مهمّان لمنع تهيُّؤ ظروف الذنب الصعبة

في العادة لا يهيّئ الله لنا ظروف الذنب الصعبة جدًّا بحيث تؤدي إلى سقوطنا، اللهم إلا في بعض المواطن؛ كأن يكون الإنسان قد أخفى في داخله بعض السيئات، أو يكون مُبتلًى بالعُجْب. فقد يضع الله بعض الصالحين في ظروف الإثم الشديدة لأنّ مشكلته أنه إذا لم يأثَم يُصاب بالعُجب، ويغترّ بنفسه، ويفقد تواضعه.

لا تتهيّأ ظروفُ المعصية والأرضية لها صدفةً، بل تأتي تقديرًا

حين يترسّخ مبدأ «الحرص على تنفيذ أمر الله» والخشية من عدم امتثاله في أنفسنا ويغدو موضوع الذنب لنا موضوعًا جوهريًّا سنكون، للتَوّ، أمام مسألة جديدة وهي أنه: كيف تتهيأ الظروف المواتية للمعصية وأرضيتها؟ ما الظروف التي يضع اللهُ الإنسانَ فيها فيتمكن الأخير من صيانة نفسه من المعصية في مثل هذه الظروف؟ هذه الظروف لا تحدث صدفةً، بل تقديرًا! وليس حدوثها بعديم الارتباط بحال الإنسان ووضعه، بل هو مرتبط كل الارتباط بطاقته وقابليته! وهذه الظروف حاسمة إلى أبعد الحدود بالنسبة إلى أنه أي ذنب سنرتكب؟ الظروف التي نقترف فيها الخطيئة هي، على المستوى الروحي والفكري وعلى المستوى الخارجي معًا، ظروف يرتّبها الله عز وجل، وإن تناسُبَها معنا عالٍ جدًّا. وإننا نكشف في مثل هذه الظروف إن كنا سنرتكب الخطيئة أو لا؟

يهيئ الله لنا ظروف المعصية استنادًا إلى قابليتنا

لنتناول هنا بضع ملحوظات حول الظروف والخلفيات التي تتهيّأ من أجل ارتكاب الخطيئة. أولًا، لا بد أن نعلم أن الله عز وجل إنما يهيئ هذه الظروف استنادًا إلى قابليّتنا؛ بمعنى أنه تعالى لا يُقحمنا في ظروف هي فوق طاقتنا ولا يمكننا تخطّيها! ثانيًا، إنه جل شأنه لا يضعنا وسط ظروف تدفعنا إلى ارتكاب خطيئة تحطّمنا! أي إنه عز وجل يفسح بعض المجال لعباده لاقتراف الذنب لكنه، من حَدٍّ ما فصاعدًا، لا يترك للكثير من عباده مجالًا للخطيئة؛ فهو تعالى، من حَدٍّ ما فما بعد، يزيل هذه الظروف كي لا يتورّط عبادُه بآثام مدمِّرة.

يخلق الله تعالى للإنسان ظروفَ المعصية اختبارًا له

الظـروف التـي نرتكـب فيهـا المعـاصي والأحـداث الروحيـة والذهنيـة الخاصـة التـي تحصـل لنـا هـي ظـروفٌ وأحـداث حيّـة جاريـة وإن اللـه تعـالى حـاضر فيهـا. ففـي قصـة نبـي اللـه آدم(ع) مثـلًا يقـول اللـه عـز وجـل: لقـد أخبرنـا آدم مُسـبقًا أن إبليـس عـدوك وأنْ لا تقـرَبْ هـذه الشـجرة: «وَنَادَاهُـمَا رَبُّهُمَا أَلَـمْ أَنْهَكُـمَا عَـنْ تِلْكُـمَا الشَّـجَرَةِ وَأَقُـلْ لَكُـمَا إِنَّ الشَّـيْطَانَ لَكُـمَا عَـدُوٌّ مُبِيـنٌ» (الأعـراف/٢٢). فلـماذا إذن صمـت اللـه تعـالى في لحظـة خـداع إبليـس لآدم(ع)؟ لمـاذا لم يوجّـه لآدم إنـذارًا آخـر ليحـترس؟ السـكوت ذو المغزى للـه عـزّ وجـلّ لحظـة ارتـكاب عبـدِه المعصيـة مَـرَدُّه أنّ اللـه يريـد امتحـان عبده. التفاتُنـا إلى قضيـة «أن اللـه تبـارك وتعـالى يهيـئ للمـرء ظـروف الخطيئـة» يجعلنـا نلتفـت إلى سـكوته عـز وجـل في أجـواء امتحانـه لعبـده ومنحـه فرصـة الإثـم وهـو مـما يحثّنـا، في مثـل هـذه المواطـن، عـلى الانتبـاه أكـثر لئـلّا نقـع في الإثـم. عـلى سـبيل المثـال تُوضَـع في بعـض الطرقـات علامـة مفادهـا أن: «الطريـق سـالكة، إيـاك والسـير بأزيـد مـن السرعـة المسـموح بهـا»؛ أي لا يغرنّـك كـون الطريـق سـالكةً وجيّـدةً فتزيـد مـن سرعتـك! وقـد تحصـل في مثـل هـذه الطرقـات، وبسـبب القيـادة بسرعـة عاليـة، حـوادث سـير لا تحصـل في الطرقـات الوعـرة والمنعطفـات الصعبـة.

بعد فصلٍ من الصلاح عادةً ما يهيّئ الله لنا ظروفًا مواتية للخطيئة/ لا بد أن ننقُل حساسيتنا ومراقبتنا لأنفسنا إلى حيّز "مقدّمات المعصية"

مـن الأوقـات التـي تُتـاح فيهـا الفرصـة للمعصيـة أكـثر هـي، مثـلًا، بعـد صيـامٍ لشـهر رمضـان، أو حـجٍّ لبيـت اللـه الحـرام، أو زيـارةٍ لكربـلاء، أو إحيـاءٍ جيّـد لِلَيلـةِ قَـدْر، أو أداءٍ لصـلاةِ ليـلٍ بأصلوهـا، ...الـخ. فتنبَّـهْ؛ متـى مـا بذلـتَ جهـدًا معنويًّـا مُضنيًـا، أو أنجـزتَ عمـلًا مبـاركًا، أو حظيـتَ بحـالٍ روحانيـة بهيجـة فتوقّـع أن يهيّـئ اللـه تبـارك وتعـالى لـك أرضيـةً سـتقع بسـببها في خطيئـة إن لم تحـترس! عـلى أن هـذه الأرضيـة التـي يهيّئهـا اللـه عـزّ وجـلّ هـي لـكي تكـون شـاريًا، وتثبّـت لنفسـك الصالحـات التـي بـدأتَ بهـا؛ فاللـه تعـالى لا يـروم إيـذاء عبـاده! علينـا جميعًـا أن ننبّـه أنفسَـنا إلى «أن اللـه يهيـئ لنـا مناخـات الخطيئـة، ولا سـيما بعـد فصـل مـن الخـير والصـلاح؛ كأن يكـون بعـد رمضـانٍ جميـل، أو زيـارة جيّـدة (لأحـد الأوليـاء)، ..الـخ». وإن توخّينـا الحـذر، نكـون قـد خطونـا خطـوة إلى الأمـام.

من أجل أَخذِ الحيطة والابتعاد عن المعصية علينا أن ننقل حساسيتنا إلى حيّز «مقدّمات المعصية»، وهنا يدور الكلام في العادة عن مفهوم «الوَرَع». والورع هو ضرب من التَرك، يُعطي أحيانًا معنًى أشدّ من «تَرْك الذنب»؛ ويعني - في واقع الأمر - «تَرْك مقدّمات الذنب» أو «التنبُّه السابق للذنب».

لا يخلق الله لنا ظروف الذنب دونما رحمة!

الملحوظة الأخرى هي أن الله عز وجل لا يخلق لنا مناخ الذنب دونما رحمة! فإنه استنادًا إلى بعض الأحاديث قد يُفسِد اللهُ عزّ وجلّ الخطة التي وضعناها لأنفسنا بعد أن يعلَم أنه ثمة ظروف صعبة مشجِّعة على المعصية بانتظارنا لا طاقة لنا على المقاومة أمامها، ولذا يعمَد الله تعالى إلى تغيير هذه الظروف ولا يسمح بأن نواجه الخطيئة وسط مسرحها. حين يهيّئ اللهُ عز وجل للإنسان ظروفَ الخطيئة فإنه يتعامل مع الأخير في منتهى الرحمة. لكن ماذا نصنع نحن لكي نجعل الله يتعامل معنا برحمة أكبر؟ علينا أن لا نبخل بالعبادة والاستغفار والتوسل والتضرع حين تتوافر لنا فُرَصُها، وأن لا نقصّر إذا تهيأت لنا فرصة زيارة وليّ من الأولياء، أو عملِ خير، وسيعمل الله تبارك وتعالى، إذا انتهجنا هذا النهج، على تقليل مقدّمات الخطيئة، ويجعلنا نَبِهين، ولا يذرنا نرتكب كل معصية. حتى أنه لا يدعنا ننام ليلًا عن صلاة الليل، بل يرتّب لنا فُرَصًا للعبادة.

ليس اقتراف الذنب أو عدم اقترافه سلوكًا انفراديًّا، فإنك تتعامل مع الله في كل لحظة!

ليس اقتراف الذنب أو عدم اقترافه سلوكًا انفراديًّا؛ أي إنك لستَ منفردًا، بل تتعامل مع الله تعالى في كل لحظة! فالله لا يَكِلِ الإنسانَ إلى نفسه. هذا وإنّ بالإمكان فِعلَ ما يؤثّر على التخطيط الإلهي. والله سبحانه عادةً ما لا يُصَعِّب على الإنسان كثيرًا عدم اقتراف المعصية. إذا رأى الإنسان ظروفَه تعيسة، وهو عادةً ما يفشل في مثل هذه الظروف ويقع في الآثام، فإن عليه أن يتوجه إلى الله عز وجل مخاطبًا إياه: «إلهي، سأقترف الكثير من الخطايا وسط هذه الظروف التي أعيشها، فحسِّن يا ربِّ ظروفي هذه...». ولا شك أن الله يتوقع من عبده أمورًا؛ فمثلًا إنّ عملًا صالحًا في منتهى العظمة يقوم به الإنسان ببالغ الصدق والإخلاص قد يغيّرُ وضعَ الإنسانِ هذا.

ولربما كنا نحن مَن يحدّد مصيرَنا؛ فقد نسأل اللهَ عز وجل أمرًا دنيويًّا، ونُصِرّ عليه كل الإصرار. ثم يبيّن الله تعالى لنا «أن هذا الأمر ليس في صالحك...»، لكننا نواصل الإصرار، حتى يعطينا إياه في النهاية، فنلاحظ أن مقدّمات إقلاعنا عن المعصية باتت في منتهى الشدة! فنتوجّه إلى الله متضرّعين: «إلهي، لِمَ تُجري الأمورَ بهذه الطريقة؟!» فيقول لنا: «لأنك أنت الذي أردتَ ذلك، وبإصرار!»

لربّما سألْنا اللهَ ظروفًا لا يمكننا اجتياز امتحاناتها بنجاح!

لربّما سألْنا الله تبارك وتعالى شيئًا يصدُف أن لا يكون في صالحنا، ونكون مخطئين في ذلك! فنُلِحّ على الله في المسألة أيّما إلحاح، فيعطينا الله إياه، فندخل في أجواء أخرى، ثم نعجز عن اجتياز امتحانات تلك الأجواء بنجاح! إنّ من الآيات القرآنية التي تدعونا إلى ذَرف دموعٍ سخينة هي تلك التي يطلب فيها إبليس إلى ربه أن يمهله: «قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (الأعراف/١٤)، وقد أمهلَه الله عزّ وجلّ؛ أي هيّأ له الظروف المواتية. وإنّ إبليس، في واقع الأمر، قد أَشقَى نفسَه بطلبه هذا من ربه! فأهل البيت(ع) يسألون الله في دعواتهم: «أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ لِي عَنْ تَدْبِيرِي» (إقبال الأعمال/ ج١/ ص٣٤٩). بالطبع نحن أيضًا نفكّر، ونخطّط، ونُبادِر لكننا نسأل اللهَ أن يدبّر لنا ما يريده هو. على أنه من الممكن أن تدفعَنا بعض المشاكل، أحيانًا، إلى الجزع فنتوسل إلى الله سبحانه أن يخلصنا منها. لكن بمعزل عن هذه المشاكل فمن المعلوم أنّنا ننتزع بعضَ الظروف من الله انتزاعًا! وعلى الرغم من أن الله عز وجل يلطُف بنا في بعض هذه الحالات فلا يعطينا ما نريد لأنه لا يصُبّ في مصلحتنا، لكنه عز وجل، في حالات أخرى أيضًا، يعطينا ما نسأله بسبب إلحاحنا. كل ما في الأمر أننا ما إن نصبح وسط تلك الظروف نكتشف أن امتحاناتها عسيرة!

في أي حالة يهيّئ الله لنا ظروفَ الذنب العسيرة؟

إنـه اللـه تعـالى الـذي يخلـق لنـا ظـروف الامتحانـات. بالطبـع هـو عـز وجـل لا يكتـب هـذه الظـروف للإنسـان دونمـا رحمـة! ففـي العـادة لا يهيّـئ اللـه تعـالى لنـا ظـروف الذنـب الصعبـة جـدًّا بحيـث تـؤدي إلى سـقوطنا؛ أي إنـه لا يُصعِّـب علينـا جـدًّا ظـروف تـرك المعصيـة؛ اللهـم إلا في بعـض المواطـن: منهـا حـين يُضمِـر الفـرد في سريرتـه ألوانـًا مـن سـوء الظـن والأحقـاد أو السـيئات. في الحديـث إن المـرء قـد يُضمِـر في باطنـه شـيئًا فينظـر اللـه تعـالى إلى هـذا الـشيء ثـم يُلبِسُـه إيـاه سـواء أكان خـيرًا أم شرًّا: «مَـنْ أَسَرَّ سَرِيـرَةً أَلْبَسَـهُ اللـهُ رِدَاءَهَـا إِنْ خَـيْرًا فَخَـيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَـشَرّ» (الـكافي/ ج٢/ ص٢٩٦). فالـذي يتـورط في أجـواء معصيـة عسـيرة جـدًّا يُحتمَـل أنـه يُـسِرّ في قـرارة قلبـه خصلـة بذيئـة. فقـد يضـع المَيـلُ إلى الشـهوات صاحبَـه أمـام امتحانـات الخطيئـة الصعبـة، فيسـقط. وقـد يكـون المـرء قـد احتفـظ في سـويداء قلبـه بصفـة حُـبّ الجـاه، فصـار يطيـل فيهـا التفكـير دائمًـا وينسـج حولهـا الأخيلـة، ..الـخ، في حـين أن عليـه النظـر إليهـا كنـزوة، وأن لا يـذوب فيهـا؛ وإلا فقـد يضعـه اللـه عـز وجـل في أجـواء امتحـانِ «الجـاه» العسـيرة، فيُخفِـق فيـه، ويقـترف المعصيـة. مـن الخطـر جـدًّا أن يحتفـظ المـرء في قـرارة نفسـه بخصـال سـيئة، إذ أنهـا سـتجعل ظـروف الامتحانـات والذنـوب شـاقّةً عليـه. وإلا فـإن اللـه عـز وجـل لا يُعسِّر، في العـادة، ظـروفَ الامتحـان، بـل يأخـذ عبـاده باليُـسر. لهـذا فـإنّ عـلى المـرءِ، إذا ابتُـلِي بمحنـة شـديدة، أن يرجـع إلى ذاتـه فينظـر: مـا المشـكلة التـي تَسـبَّبَ بهـا لنفسـه؟

لِمَ يضع اللهُ بعض الصالحين في أوضاع صعبة تحثّهم على المعصية؟

بمعـزل عـن السـيّئين الذيـن يُصعِّـب اللـه عـز وجل عليهـم أحوالهـم حـال ارتكاب الإثـم، فقد يضـع تعالى الصالحـين أيضًـا في ظـروف صعبـة تحثّهـم عـلى المعصيـة. لكـن لمـاذا يتـورّط الصالحـون أحيانـًا بمثل هذه الظـروف؟ إن اللـه سـبحانه يضعهـم في مثـل هـذه الظـروف الصعبـة لعيبٍ فيهـم، وهو أنهـم إن لم يذنبوا يُصابـوا بالعُجْـب والغـرور ويَذهـب تواضعُهم. إذن فإنّ تورُّط الإنسـان بأجواء الخطيئة والمعصية العسـيرة يحصـل عـادةً في حالتـين: فإمـا أن يكـون هـو مريـضَ قلـب؛ كأن يكـون مُبتـلًى بنفـاق، أو حُـبٍّ للدنيـا، أو تَخـيَّرَ لنفسـه بعـض الخيـارات السـيئة، أو أتى بعـض الأفعـال مـما جَـرَّ عليـه ظـروفَ الإثـم الصعبـة هذه.

النمـط الثـاني مـن الأوضـاع العسـيرة المحرِّضـة عـلى المعـاصي يقـع فيهـا الصالحـون النقِيُّـو الطَوِيّـة وغـيرُ مريـضي القلـوب، إذ يضعهـم اللـه عـز وجـل في بعـض الظـروف الصعبـة التـي تحرّضهـم عـلى اقـتراف بعـض الخطايـا حتـى لا يأخذهـم العُجْـبُ والغـرور؛ ذلـك أنهـم يفتقـدون قابليـة الرُقِـيّ إلى قمّـة الصـلاح، فيُعجَبـوا بأنفسـهم ويغـترّوا لمجـرّد أن يصيبـوا بعضَـه.

في الحديث: الذنب خيرٌ للمؤمن من العُجب، وإلا ما جعلَ الله مؤمنًا يذنب

عـن الصـادق(ع) قولـه: «إِنَّ اللـهَ عَلِـمَ أَنَّ الذَّنْـبَ خَـيْرٌ لِلْمُؤْمِـنِ مِـنَ الْعُجْـبِ وَلَـوْلَا ذَلِكَ مَـا ابْتُـلِيَ مُؤْمِنٌ بِذَنْـبٍ أَبَـدًا» (الـكافي/ ج٢/ ص٣١٣). وروي عـن أمـير المؤمنـين عـلي(ع) أنـه قـال: «سَـيِّئَةٌ تَسُـوؤُكَ خَـيْرٌ عِنْـدَ اللـهِ مِـنْ حَسَـنَةٍ تُعْجِبُـك» (نهـج البلاغـة/ الحكمـة٤٦). تعالـوا نضـعُ لعُجبِنـا حَـلًّا! هلُمّـوا نفكّـر بحَـلّ لتواضعنـا الباطنـي ذاك تجـاه ربنـا! كأن نسجد للـه شـكرًا بعـد الفـراغ مـن الصـلاة، ثـم ندعـوه ونسـأله أن يَقبَـل منّـا صلاتنـا. وهـذا مفيـدٌ لنـا لِلَجْـمِ عُجْبِنـا.

عملان مهمّان لمنع تهيُّؤ ظروف الذنب الصعبة

ثمـة عمَـلان مهـمّان مـن أجـل أن لا تتهيّـأ لنـا أجـواء الذنـب الصعبـة أبـدًا، ونغُـضَّ الطـرف عـن الخطيئـة في ظـروف سـهلة: أحدهـما أن لا نـدع أيّ سـوءٍ رئيـسي وضخـم يبقـى في قلوبنـا، وثانيهـما أن نحـترس مـن ابتلائنـا بالعُجْـب. مـن أجـل أن لا يبقـى في قلبـك سـوء ضخـم احـرِصْ عـلى أن تُصَفّـي قلبـك مـع أوليـاء اللـه تعـالى؛ فأحِـبَّ صاحـب الزمان(عـج) كثـيرًا، وأحِـبَّ الإمـام الحسـين(ع) حبًّـا جَـمًّا. وكـن محبًّـا لأمـير المؤمنـين(ع) ولمُحبيـه جـدًّا. حـاول مـدى حياتـك أن تصفـح، ولـو عـن بضعـة أشـخاص، حبًّا لأمـير المؤمنين ولأهـل البيـت(ع). إن اللـه تعـالى حسـاس جـدًّا تجـاه أوليائـه، فـإنْ أحببـتَ أن يصْفُـو قلبُـك ويطهُـر مـن أعماقـه فَحِـبَّ أوليـاء اللـه كل محبـة، وعـبِّر عـن حبـك واحترامـك لهـم. فعـن الإمـام الرضـا(ع) أنـه قـال: «مَـن جَلَـسَ مَجلِسًـا يُحيَـا فيـهِ أَمرُنـا لَـم يَمُـتْ قَلبُـهُ يَـومَ تَمـوتُ القُلـوب» (أمـالي الصـدوق/ ص٧٣).

فلنُزِل أقذارنا الخفية عبر حبنا لأهل البيت(ع) وخدمتنا لهم

إن أحد الأسباب التي تجعل ظروف الإنسان صعبة فينحدر إلى اقتراف المعصية هو ما ينطوي عليه من أقذار خفية. فاعمل على إزالة هذه الأقذار عبر حبك أهلَ البيت(ع) وخدمتك إياهم، وكذا من خلال حب أوليائهم ومحبيهم وخدمتهم، وبُغض أعدائهم. فالذي يحب أولياء الله ويخدم أولياءهم، ويبغض أعداءهم ويتحرك ضدهم، لا يعود باطنه دَنِسًا. وإن الله تعالى يأخذ بيد هذا الشخص ولا يتركه لحاله. وفي هذه الحالة لن يمارس المرءُ النوعَ الأول من الذنوب؛ أي تلك التي يصعب عليه تجنبها بسبب ما في باطنه من قذَر ودنَس. السبب الآخر هو أن الله عز وجل يعمل أحيانًا على وضع عبده في ظروف صعبه تدفعه إلى اقتراف الخطيئة وذلك لكي «لا يصاب بالعُجب». فماذا نصنع كي لا نُبتلى بالعُجب؟ علينا الإكثار من السجود، والإسراف في التواضع، وزيادة الاستغفار. لا نسمحنَّ لأنفسنا باقتراف الذنب لمجرد الخلاص من العُجب! فلنذُمّ أنفسَنا على الدوام؛ كما ورد في الخبر: «ذَمُّكَ لِنَفسِكَ أَفضَلُ مِن عِبادَتِكَ أَربَعينَ سَنَة» (الكافي/ ج٢/ ص٧٣). انظر إلى الإمام السجاد(ع) في مناجاته الخمس عشرة كيف يلوذ إلى الله تعالى من نفسه!

من أي منطلق نمتنع عن المعصية؟/ لنأتي دومًا بأعمال تمنع العُجب

امتنع عن المعصية من منطلق أن يرى الله تعالى «أنك إن لم تقترفها لن تُبتلى بالعُجب والغرور ولن تصاب بالأنا!» لا بد لنا، باستمرار، أن نأتي بأعمال تحُول دون العُجب، وتمنع احتمال اغترارنا بأنفسنا؛ كترديد الذكر، ومراقبة النفس. وكما هو دأب أهل البيت(ع)، لنُخيفَ أنفسَنا من نار جهنم، ونراها قريبةً منا. فكأنّ العلة من تكرار ذكر عذاب جهنم في القرآن الكريم هو أن «لا يغتر المرء بنفسه ولا يُعجب بعمله!» فالذي يَحتمِل أنه قد يدخل النار أو يرى نفسه مستحقًّا لها لا يصاب بالعجب، وسيحظى بتوفيقات جمة. كن على يقين بأن التوفيق لعظائم الأمور هو إما من نصيب المتواضعين الذين لا ينتابهم العُجب، أو من نصيب الفاسدين المحطَّمين؛ مثل طلحة والزُبَير، اللذَين نالا توفيقات ضخمة لكنهما فسدا فيما بعد.

لنكن رحماء بالمذنبين!

وناهيك عن النقاط الآنفة الذكر فإنه ثمة طريقة جيدة أخرى وهي أن نكون رحماء بالمذنبين، ولا نؤنّبهم. فإن رأيتُ مذنبًا فلأتذكّر تعاساتي ولأقُلْ لنفسي: «ألا إنني أسوأ منه حالًا! فإنّ ذنبه ظاهر، أما ذنبي فباطن». وهذا مذكور في الأحاديث الشريفة: «لا يَرَى أَحَدًا إلّا قالَ: هُوَ خَيْرٌ مِنِّي وَأَتقى... فَإذا لَقِيَ الَّذي شَرٌّ مِنهُ وَأَدنَى قالَ: لَعَلَّ خَيرَ هَذا باطِنٌ وَهُوَ خَيرٌ لَهُ وَخَيري ظاهِرٌ وَهُوَ شَرٌّ لي» (تحف العقول/ ص٤٤٣). إن معاملتَكَ العاصين برحمة، ووَضعَك احتمالَ نجاتهم في الحسبان، والتعاملَ معهم بما يساعدهم على النجاة ويبعث في نفوسهم الأمل هي أمور تنجيك أنت أيضًا. لا أن تقول إذا رأيت المذنبين: «ما أتعس هؤلاء البشر! إنهم لا دين لهم!» فإن الله في هذه الحالة سيبتليك أنت أيضا فتتورط في ظروف عسيرة تدفعهك إلى الخطيئة، ولربما صرت واحدًا من هؤلاء المذنبين لكي تفهم أنه لا ينبغي لك أن تُقَرِّع مذنبًا! يروى عن الإمام الصادق(ع) قوله في خطاب الله تعالى لداود(ع): «يا داوُدُ بَشِّرِ المُذنِبينَ وَأَنذِرِ الصِّدِّيقينَ. قالَ: كَيفَ أُبَشِّرُ المُذنِبينَ وَأُنذِرُ الصِّدِّيقينَ؟ قالَ: يا داوُدُ، بَشِّرِ المُذنِبينَ أَنِّي أَقبَلُ التَّوبَةَ وَأَعْفُو عَنِ الذَّنبِ، وَأَنذِرِ الصِّدِّيقينَ أَلّا يُعجَبُوا بِأَعمالِهِمْ فَإِنَّهُ لَيسَ عَبدٌ أَنصِبُهُ لِلحِسابِ إلّا هَلَك» (الكافي/ ج٢/ ص٣١٤).

ماذا نفعل لكي يحفظنا الله من المعصية؟

إن أحببنا أن لا نذنب وأن يحفظنا الله تعالى من ارتكاب المعصية فلا نغترّ بأنفسنا إذا أقلَعْنا عن الذنوب، ولا نعيّر العاصي إذا لقيناه، وإلا فلربما ابتُلينا نحن أو المقرّبين منا بمعصية أسوأ. عن أمير المؤمنين علي(ع) أنه قال: «وَإِنَّما يَنبَغي لِأَهلِ العِصمَةِ وَالمَصنُوعِ إِلَيهِمْ في السَّلامَةِ أَنْ يَرحَموا أَهلَ الذُّنوبِ وَالمَعصِيَةِ وَيَكونَ الشُّكرُ هُوَ الغالِبَ عَلَيهِمْ وَالحاجِزَ لَهُم عَنهُم» (نهج البلاغة/ الخطبة١٤٠)؛ والمصنوع إليهم هم الذين أنعمَ الله عليهم وأحسنَ صُنعه إليهم بالسلامة من الآثام. «فَكَيْفَ بِالعائِبِ الَّذي عابَ أَخاهُ وَعَيَّرَهُ بِبَلواهُ؟! أَما ذَكَرَ مَوضِعَ سَترِ اللهِ عَلَيهِ مِن ذُنوبِهِ مِمّا هُوَ أَعظَمُ مِنَ الذَّنبِ الَّذي عابَهُ بِهِ» (المصدر نفسه).

إن مِمّا يصيبُنا بالعُجب هو أن نرى مَن هو أعظم ذنبًا منا

علينـا، في موضـوع الذنـب والاسـتغفار، أن نحـترس مـن العُجـب كل الاحـتراس، وإن مما يبعث عـلى عُجبنا بأنفسـنا هـو أن نـرى مـن هـو أعظـم ذنبًـا منـا. ولـذا فمتـى مـا رأينـا مـن هـو أشـد ذنبًا منـا فلنقـل: «لا بـد أنـه أفضـل منـي؛ فعيبـه ظاهـر، وعيبـي باطـن. فلربمـا غُفـر لهـذا المذنـب ذنبُـه العظيـم، ولم يُغفَـر لي ذنبـي الصغـير!» مـا هـو أسـلوب محاسـبة اللـه عـز وجـل في غفـران ذنـوب البـشر؟ عـلى سـبيل المثـال قـد تكـذب أنـت كذبتـين ويكـذب آخـر عشريـن كذبـة، فيغفـر اللـه تعـالى ذنـوب هـذا الأخـير العشريـن ولا يغفـر لـك الذنبـين! والسـبب هـو أن اللـه قـد لا يكـون أعطـى هـذا المذنـب قابليـة كبـيرة مثـل التـي أعطـاك إياهـا، ولـذا فهـو يتوقـع منـك أكـثر. الاحـتراس مـن العُجـب أمـرٌ عسـير للغايـة. الموضـع الوحيـد الـذي يُجتـث فيـه العُجـب مـن أعـماق قلـب الإنسـان هـو بجـوار ضريـح أبي عبـد اللـه الحسـين(ع)؛ فعندمـا تلتفـت إلى أن الحسـين(ع) قـد قُـدِّم في هذا المـكان قربانًا في سـبيل الله تعالى، فلن ترى نفسـك...

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الذنب؟..
كيف تكون التوبة؟ (المحاضرة ٢٦)

عليرضا بناهيان

PANAHIAN.NET

الزمان: ٣١/أيار/٢٠١٩ ـ ٢٥/رمضان/١٤٤٠
المكان: طهران، مسجد الإمام الصادق(ع)
الموضوع: ماهو الذنب؟.. كيف تكون التوبة؟

مَن الذين يحفظهم الله من المعاصي؟/ ينتاب "العبدَ" اضطرابٌ وانكسارٌ إذا أخطأ في امتثال أمر المولى/ الانكسار الحاصل للإنسان على أثر الاستغفار يؤهّله لتلقّي النور الإلهي

لا سبيل أمامنا للاستفادة من الله سبحانه وتعالى سوى "الانكسار"؛ لأنه الانكسار الذي يجعل العبد في منتهى الاستعداد لتلقي الفيض من المولى، ويجعلنا في غاية الصِغَر أمامه جل وعلا. إلهي، إني قد صغرتُ خمسين بالمئة حين قلتُ: "سمعًا وطاعة" امتثالاً لأمرك، أما لحظةَ أخطأتُ، وقلتُ: "العفو" فقد تضائلتُ مئةً بالمئة!

متى يضطرب الشخص النفعي والمُمنهِج لحياته وينهار روحيًا؟

لا شك أن الإنسان بحاجة إلى وقت وجهد وتمرين ليجتاز المراحل التحضيرية لبناء شخصيته ويُدَعِّم بُناها التحتية. نعم، يوجَد من يطوي هذا المسار بسرعة، لكن أمثال هؤلاء هم استثناء للقاعدة. وكما قد أشرنا سابقًا فإن من المراحل التحضيرية لبلوغ الشخصية السليمة هي أن يكون الإنسان نفعيًّا؛ وهو أن يلاحظ منافعه جميعًا، ولا سيما السامية منها، لا أن ينظر إلى منافعه الهابطة دون السامية! فالنفعية الرديئة هي أن يرى المرءُ منافعَه الهابطة، لكنه أمام منافعه العالية أعمًى وعاجز (هذا وإنّ منافع الإنسان العالية تُستحصل دومًا عن طريق رؤية منافع الآخرين). وإن ميزة الساعي وراء المنافع السامية أنه يضطرب وينهار حين يواجه صعوبات في الوصول إليها. كما أنه إذا أصبح الشخص «مُمنهِجًا لحياته» وتَقيَّد بهذا المنهاج فلن يكون العمل وفقًا لهذا البرنامج مُمتعًا له فحسب، بل إنه سيضطرب روحيًّا إذا ارتبك منهاجُه. فماذا سيحصل إذا تحوّل هذا المنهاج إلى «منهاجٍ وفقًا لأوامر الله تعالى»؟

إذا أخطأ "العبد" في امتثال أمر مولاه ينتابه اضطراب وانكسار

في ما يتصل بالعلاقة بين العبد والمولى فإنه حين يُطيع العبدُ مولاه قليلًا ينشأ لديه مَيلٌ يسمَّى بـ»مَيلِ العبد لمولاه!» وهذه العلاقة هي أرَقّ بكثير من علاقة الطفل بأمه، وأشد عاطفية بكثير من العلاقة بين الزوجين. فحين يمتثل شخصٌ، بصفته «عبدًا»، أمْرَ مولاه تنشأ بينه وبين الله تعالى صِلة. فإنْ هو أخطأ ولم يمتثل أمر المولى ينتابه من الاضطراب والانكسار ما لا ينتاب الأشخاص العاديين المؤمنين بالله إذا عصوا ربهم. الذي تكون علاقته مع الله عز وجل علاقةَ عبدٍ بمولاه تراه يرتبك ويضطرب بكل ما في الكلمة من معنى إنْ هو أذنب. وإنّ إحساس العبد هذا بالذنب والخجل أمام مولاه إنما ينتابُ من نشأت لديه علاقة خاصة بينه وبين الله تعالى، وهي علاقة العبد بالمولى، كما أن هذا الإحساس الخاص لا ينشأ إلا إثر امتثال أوامر الله عز وجل؛ أي إنه بطاعته اللهَ تعالى تتولد للهِ عنده حرمةٌ خاصة.

لماذا يكون ارتباك العبد أشدَّ بكثير إذا خالف أمر ولي الله؟

يرتبك الشخص الواصل لمرحلة علاقة العبد بالمولى والمُدرِك لهذه العلاقة ويضطرب إذا عصى مولاه (الله عز وجل). لكن الأشد هو أن يصل إلى مرحلة العلاقة بوَلِيّ الله، فحينها سيكون اضطرابه وارتباكه إذا أذنب وعصى أشدَّ بكثير، إلى درجة أنه حتى لو أتاه ولي الله قائلًا: «لقد صفحنا عنك»، يقول هو: «لكنني قد آذيتُك، فماذا عساي أصنع بفعلي هذا؟!» لماذا يكون ارتباك العبد أشدَّ بكثير إذا خالف أمر «ولي الله»؟ الجواب: لأن الله سبحانه وتعالى لا يتأذّى حين نعصيه، أما ولي الله فإنه يتأذى من عصياننا له؛ فهو أيضًا إنسان ويتضايق. وهذا القرآن الكريم أيضًا يقول: إنه ليَشُقّ على رسول الله(ص) أن يتحمّل آلامكم ومعاناتكم؛ «لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّم» (التوبة/١٢٨)؛ فالنبي(ص) إنسان له عواطف، وهو شفيق، ويبكي من أجلكم.

مَن الذين يحفظهم الله من المعاصي؟/ مَن يحترسْ من اضطراب حاله الروحية بسبب المعصية لا يصاب بالعُجب

أحصينا لحد الآن ثلاثة عوامل مهمة لاضطراب الإنسان وارتباكه؛ وهي أن يكون نفعيًّا، ومُمَنهِجًا لحياته، وعبدًا. (بالطبع ثمّة عوامل أخرى بينّاها في المحاضرات السابقة كمراحل تحضيرية للوصول إلى الشخصية السليمة). فإنّ مَن سَلَك هذا المسار التربوي بشكل صحيح تراه يرتبك ويضطرب، بالمعنى الحرفي للكلمة، إذا أذنب، وللحيلولة دون اضطرابه وارتباكه فإن الله عز وجل لا يدَع عبدَه هذا يذنب. وإن الذي يرتدع عن المعصية خشية الاضطراب والارتباك لا يصاب عادةً بالعُجب والغرور بسبب عدم المعصية هذا. واستنادًا إلى ما فات فإن بضعة دَواعٍ مهمة للاضطراب (من الناحية النفسية) تتولد عند المؤمن إذا أذنب. ولذا فإن الله تبارك وتعالى يحرص على أن لا يذنب عبدُه هذا، لأنه يعلم أنه إن أذنبَ يضطرب وينهار تمامًا. أمثال هؤلاء يحفظهم الله عز وجل في مستوى العصمة. فكأنّ الله تعالى يقول، كما جاء في الخبر: إنْ علمتُ أن عبدي يوَدّ أن لا يذنب أحفظه أنا من الذنب إلى درجة العصمة؛ «إذا عَلِمَ اللهُ تَعالَى حُسْنَ نِيَّةٍ مِنْ أَحَدٍ اكتَنَفَهُ بِالعِصمَة» (أعلام الدين في صفات المؤمنين/ ص٣٠١). وإنّ فرحة عبادٍ كهؤلاء هي في عدم اقترافهم المعصية، وفي هذا فرق كبير مع أن يفعلوا الخير ويغترّوا بأنفسهم! فأشخاص كهؤلاء يرون أنفسهم على شَفا جهنم. وإنك لترى هذا الانكسار في حياة أولياء الله، كما تلاحظ أن أدعية أهل البيت(ع) يغلب عليها موضوع الحذر من النار، لا تمني الجنة! بمعنى أن حِسّ اجتناب المعصية لديهم عالٍ جدًّا وهم على حذر لئلا تضطرب حالُهم النفسية.

كيف يستفيد عبد من مولاه؟

ما الذي يحصل إذا انكسر العبد بشدة عند أعتاب الله (بالاستغفار، والخوف من النار، ..إلخ)؟ إنه يستفيد من الله تعالى، وإن الله يَجبرُ له كَسْرَه. وهذه أساسًا طريقة لمغازلة الله عز وجل، وإن الله ليلاطف عبدًا كهذا، وإن الأخير ليذوق لذة ذلك أيضًا. لكن ألا يمكن أن نذوق من الله لذةً من دون انكسار؟ وهنا يدخل موضوعُنا مرحلة جديدة، وهي أنه: كيف يمكن لإنسان أو عبد أن ينتفع من مولاه أصلًا؟ كيف له أن يلتّذ بذكره ولقائه؟ كيف باستطاعته أن يتذوق مولاه نفسَه، ويشمّه، ويستفيد منه؟ ما أكثر ذِكْرٍ لله يجب علينا ترديده بوصفه ذكرًا واجبًا؟ إن أهم ذكر واجب علينا ترديده كرارًا هو «الله أكبر»؛ ومعناه: انتبه! إن الله كبير، وإن عليك أن تكون صغيرًا أمامه. ولا شيء كالمعصية يُصَغِّر الإنسان بين يدَي ربه. ولا يعني هذا بالطبع أن نتعمد المعصية كي نصغُر أمام الله؛ فهذا بحد ذاته هو التكبّر بعينه، ولا يصغُر أحد بذنب كهذا!

لا سبيل إلى الاستفادة من الله غير "الانكسار"

إذا تربَّت شخصيتُنا بشكل سليم، بحيث نضطرب ونرتبك كلما خرجنا عن المنهاج الذي أعددناه لأنفسنا، أو كلما خالفنا منافعنا الراقية، أو عصينا أمر الله أو أمر وليه، ينتابنا هذا الانكسار فيُفتح - عند ذاك - البابُ ويحُل الله تعالى في وجود الإنسان؛ بحيث يمكننا القول إنه ليس ثمة سبيل آخر إلى الانتفاع من الله تعالى وتذوق حلاوته غير سبيل الانكسار؛ لأنه الانكسار الذي يجعل العبد في منتهى الاستعداد لتلقي الفيض من المولى، ويجعلنا في غاية الصِغَر أمامه جل وعلا. إلهي، إني قد صغُرتُ خمسين بالمئة حين قلتُ: «سمعًا وطاعةً» امتثالا لأمرك، أما لحظةَ أخطأتُ، وقلتُ: «العفوَ» فقد تضائلتُ مئة بالمئة! لاحظ ما يفعله أولياء الله في مناجاتهم؟ إنهم لا يكترثون لطاعتهم كثيرًا، بل يُوْلون جُلّ اهتمامهم للاستغفار والاعتذار من تقصيرهم في امتثال أوامر الله عز وجل والخوف من عذابه.

انكسار المرء يجتذب نور الله إليه

وهنا قد تسأل أنه: ماذا لو لم يذنب المرء أبدًا؟ ماذا عن أهل البيت(ع) الذين لم يقترفوا معصية على الإطلاق؟ عندما يفتح الله تعالى عينَ الإنسان وأذنَه فإنّ أمورًا، غيرَ ما نتعارف عليه نحن من الذنوب، سيراها هو - كلما تقدم في سيره وارتفع في مقامه - ذنوبًا بينما لا نراها نحن كذلك! فكلما دنا الإنسانُ من الله أكثر وشاهد أوجَ نوره، وطهارته، ونقائه، وجماله فإنه سيعتذر أيضًا لو رأى في وجوده شائبةً بضَآلة ذرة الغبار. أَوَيجب أن يعتذر المرء من هذا المقدار الضئيل أيضًا؟ هذا يعتمد على أنه كم يود أن يجني من ربه! وهكذا هم أولياء الله، فإنهم لا يستطيعون العيش، ولو للحظة، من دون الله وبعيدًا عنه، ولذا فإنهم يرون هذا في غاية اللزوم والأهمية بالنسبة إليهم. إن انكسار الإنسان يجتذب نورَ الله إليه. من هنا فإن أولياء الله، في مقامهم السامي ذاك، ينكسرون لمجرد ذرة الغبار تلك إن رأوها في وجودهم، ولذا تراهم يهرعون إلى الاستغفار، فإن دخلوا وادي الاستغفار راحوا يتلقون من مولاهم فيوضات في غاية الحلاوة واللذة.

لنذوق حلاوة الاستغفار علينا أن نتواضع لله بقولنا: "سمعًا وطاعة" مدة من الزمن

وماذا يصنع مَن يود تذوق حلاوة الاستغفار؟ عليه أن يتواضع إلى الله تعالى عبر قوله له: «سمعًا وطاعة» مدةً من الزمن، هذه هي السبيل لذلك. وكما قد تمت الإشارة إليه فإن هذا الاستغفار والاعتذار من الله تعالى في قولنا: «إلهي، لقد أجرَمت، فاغفر لي» هو في الحقيقة أسلوب للمغازلة بين العبد ومولاه. هل ذقتَ طعم الصِغَر بين يدي الله سبحانه؟ أكان لك مالِك وقائد يومًا ما؟ هل كنتَ جنديًّا في يوم من الأيام؟ أكنتَ يومًا عبدًا فتذوق طعم العبودية؟ اِعمَل مدةً من الزمن ليُذيقوك بعض طعمها، وعندها ستدرك أن انكسار الاستغفار يضاعِف لك هذا الطعم ضعفين.

إننا لا نذوق طعم الاستغفار لأننا لا نذوق التصاغر بين يدي الله!

لماذا تراني لا أذوق طعم الاستغفار العذب واللذيذ للغاية؟ لأنني لا أذوق أبدًا طعم التصاغر بين يدي الله تعالى! فماذا أصنع إذن لأذوق طعم هذا الأخير؟ عليّ أن ألتزم، مدةً من الزمن مع الدقة والمراقبة، بأن أُقيمَ لله وزنًا وأهابَه وأقولَ له «سمعًا وطاعة». أتدري كم يلتذ العبد من أنّ له مولًى يهابُه؟ ولكي تعلم ذلك عليك أن تلتزم مدة من الزمن، مع المراقبة، بأن تقول لإلهك ومولاك: «سمعًا وطاعة». ما الذي يحصل إن امتثلتَ أمر مولاك مدة من الزمن مع المراقبة؟ إنك بقولك لله: «سمعًا وطاعة» ستتذوق طعم التصاغر بين يدي مولاك. والآن، إنّ هذا الطعم وهذه اللذة التي جنيتها لا تَعدُو كونَها مقدِّمة ومُقَبِّلًا للطعام. والآن سيناولونك وجبةَ الطعام الرئيسة؛ وجبة الطعام الرئيسة واللذة الأصلية إنما تنالهما «بالاستغفار». فإنه بالاستغفار يشعر المرء، أكثر ما يشعر، بأن له مولًى، وأن له مالكًا! فالطفل المجهول أبواه أو الذي لا يعرفهما يكون «فاقدَ الهوية» ولا يدرك ما معنى أن يكون له أب أو أم. وفي الحقيقة فإن الذي لا يعرف ربه ومولاه أو الذي لا مولى له هو عديم الهوية أيضًا.

حين تذوق طعمَ امتثال أمر المولى ستذوق طعم الاستغفار أيضًا!

يا ليتنا نحوّل هذا الامتثال لأمر المولى إلى ثقافة عامة؛ وهي أن نقول: «إني لأحب أن أطيع الله، أريد أن أذوق حلاوة أن يكون لي رب!» فإن تذوقنا لذة طاعة المولى، فسنتذوق أضعاف هذه اللذة في «الاستغفار»، بل إن المولى إنما يمارس مولويته أثناء استغفار العبد، بل هناك تظهر ربوبية الله تعالى، ويلوذ العبد بربه ويحس الأمن والطمأنينة كالطفل تمامًا إذا لاذ بأحضان أمه. إن تذوّقتَ حلاوة أن يكون لك رب فستتذوق أضعافها أثناء الاستغفار! ففي الاستغفار ينكسر العبد ويتصاغر على أعتاب ربه. وامتثال الأوامر أيضًا يكسر كبرياء العبد ويصغّرُه لأنه يضع عناده وتمرده جانبًا ويقول: «سمعًا وطاعة!»

لماذا تضيّع عُمرَك هباءً؟! اجعل أعمالك اليومية العادية أيضًا في سبيل الله!

حاول مدة من الزمن، وعبر قولك لله: «سمعًا وطاعة»، أن تتذوق حلاوة امتثال أمره عز وجل. الكثير من الأعمال في حياتنا اليومية تستطيع عقولُنا أيضًا أن تدرك أنها حَسَنة وضرورية؛ كالتوقّف عند الإشارة الضوئية الحمراء، وما إلى ذلك. حسنٌ، مارس هذه الأعمال أيضًا امتثالًا لأمر الله! لماذا تضيّع عمرك هباءً؟! «قُربةً إلى الله» توقّفْ عند الإشارة الحمراء، وقل: «إلهي، لأنّ الإمام الراحل(ره) قال: احترام قوانين المرور واجب شرعًا فإني أحترِم هذه القوانين من اجلك أنت ربي». بل لنمارس أعمالنا الأخرى أيضًا، كالأكل والنوم، من أجل الله تعالى؛ أي: إني آكُلُ الطعام لأن الله تعالى أمرني بأكل الطعام. وهذا الأمر هو على جانب من الأهمية ممّا جعل النبي الأعظم(ص) يؤكد على أبي ذر(رض) أنه: ليكن لك نية القُربة إلى الله في كل عمل تقوم به، حتى الأكل والنوم، وإلا كنت من الغافلين، وإن الأخيرين - بحسب القرآن الكريم - أضَلّ من الأنعام؛ «يا أَبا ذَرٍّ، لِيَكُنْ لَكَ في كُلِّ شَيْءٍ نِيَّةٌ، حَتَّى في النَّومِ وَالأَكْل» (وسائل الشيعة/ ج١/ ص٤٨). وعنه(ص) أنه قال: «يا أَبا ذَرٍّ، هُمَّ بِالحَسَنَةِ، وَإِنْ لَم تَعمَلها، لِكَيْلا تُكتَبَ مِنَ الغافِلين» (الأمالي للطوسي/ ص٥٣٦). و: «فَلا بُدَّ لِلعَبدِ مِنْ خالِصِ النِّيَّةِ في كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكونٍ لِأَنَّهُ إذا لَم يَكُن بِهذا المَعنَى يَكونُ غافِلًا وَالغافِلونَ قَد ذَمَّهُمُ اللهُ تَعالى فَقالَ: «إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» (الفرقان/٤٤)، وَقالَ: «أُولئِكَ هُمُ الغافِلُون» (الأعراف/١٧٩)» (مصباح الشريعة/ ص٥٣-٥٤).

لتذوق حلاوة العبودية افعلْ المباحات كذلك بنية القربة إلى الله!

أَطِع مولاك باستمرار، واسعَ دائمًا لامتثال أوامره. حتى حين يدلّك عقلُك على وجوب فعل أمر ما، افعَلْه «قربة إلى الله تعالى»؛ أي قل: «إلهي، إنني أقوم بهذا الفعل من أجلك أنت». لكن ماذا لو رغبنا في فعل أمر مباح؟ على سبيل المثال حين تمارس ترفيهًا مباحًا عن نفسك (على أن بعض الترفيهات مستحَبّة أيضًا) فإن باستطاعتك أيضًا أن تمارسه قربة إلى الله تعالى. ما معناه أن أعمالك المباحة (أي غير المستحَبّة) أيضًا تستطيع أن تجعلها من أجل الله سبحانه؛ فإنك إن قُمتَ بهذه الأعمال أيضًا من أجل الله فسيشتريها الله منك.

قيلَ لنا: إن الله تبارك وتعالى يحب لعباده أن يأتوا بالمباحات بين الحين والآخر، ناهيك عن الواجبات والمستحبات؛ «إنّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَما يُحِبُّ أَنْ تُؤتَى عَزائِمُه» (النهاية في غريب الحديث والأثر/ ج٣/ ص٢٣٢). إذن حتى في المباحات باستطاعتنا أن نقول: «إلهي، هذا الفعل أيضًا أقوم به من أجلك أنت!» فيجيبك: «حسنٌ، افعل كل شيء طاعةً لأمري!» ماذا سيحصل حينها؟ حينها ستذوق حلاوة العبودية للمولى، وهو ما سيبعث على انكسارك، ويبدد عنادك وتمرّدك. المهم هو أن تكون أكثر عبودية. إنك بممارسة هذه الأعمال امتثالًا لأمر الله ستكون، يومًا بعد يوم، أكثر عبودية. كل من يطيع الله قليلًا يظهر عليه بعض الانكسار، وإن شخًصا كهذا يكون مستعدًّا للبدء بالمرحلة الثانية. وما هي المرحلة الثانية؟ هي أنه إذا أذنب وعصى، ثم استغفر، يزداد انكساره هذا. فإن زاد الانكسار كثيرًا إثر الخطيئة والاستغفار فإن الله سيحفظ عبده هذا من الزلل. وحين يحفظه الله عز وجل من المعاصي الكبيرة والجوهرية، فإنه سيدخل مرحلة أعلى، وهي أن الذنوب الصغيرة جدًّا ستجعله يضطرب أيضًا، فيزداد انكساره بشكل مُطَّرِد، ويتعاظم انتافعه من الله أكثر فأكثر.

الانكسار الحاصل للإنسان على أثر الاستغفار يؤهّله لتلقّي النور الإلهي

إذن ما يحصل لدى الاستغفار بعد ارتكاب الذنب هو الانكسار الذي يطرأ على العبد، وإن هذا الانكسار الحاصل بعد المعصية تحديدًا هو الذي يؤهل العبد لتلقّي النور الإلهي. عن أبي عبد الله الصادق(ع) أنه قال: «أَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلى دَاوُودَ النَّبِيِّ(ع): يا داوُودُ، إِنَّ عَبدِيَ المُؤمِنَ إِذا أَذْنَبَ ذَنبًا ثُمَّ رَجَعَ وَتابَ مِن ذلِكَ الذَّنبِ وَاستَحيا مِنّي عِندَ ذِكْرِهِ غَفَرْتُ لَه» (ثواب الأعمال وعقاب الأعمال/ ص١٣٠). لكن لماذا يتدخل الله سبحانه وتعالى في قضية الذنب بنفسه أصلًا مع أن أوّل مَن يضُرّ به الذنب هو أنا شخصيًّا؟ الجواب: حتى يتولد ما يسمى «العلاقة بين العبد والمولى». بل بمستطاعنا القول: إن فلسفة الذنب هي نشوء «العلاقة بين العبد ومولاه»، مثلما أن فلسفة طاعة الله أيضًا هي تبلور هذه العلاقة نفسها. بل إننا لو رغبنا في بناء علاقة بيننا وبين الله فلا يمكن لهذه العلاقة أن تكون غير علاقة العبد بمولاه. فإن بُنِيَت هذه العلاقة في إثر المعصية والاستغفار فإننا سننظر إلى عظمة الله تعالى، وسنستحي منه بسبب ما بَدَر منا من المعصية!

ويتابع الله عز وجل قوله في الحديث: «وَأَنسَيتُهُ الحَفَظَة»؛ أي: لا أغفر له فحسب، بل أجعل المَلَكَين اللذين كتَبا ذنوبَه ينسيان هذه الذنوب! وهذا الخبر هو في منتهى الأهمية بالنسبة إلى الذين تبلورَت عندهم علاقة العبد بالمولى، وسيقولون إذا سمعوا بهذا: «إلهي، أحقًّا سينسى المَلَكان ذنوبي أيضًا؟! أي إنهم إذا نظروا إليّ لن ينظروا بعين المذنب...!» ثم تتابع الرواية: «وَأَبدَلتُهُ الحَسَنَةَ»؛ أي أكتب له عوضًا عن الذنوب حسنات! «وَلا أُبَالي، وَأَنا أَرحَمُ الرَّاحِمين».

لكن ماذا نصنع لو لم ننكسر على الرغم من طاعتنا لله واستغفاره؟

المهم في الأمر هو هذا «الانكسار» بالذات. وهو على جانب من الأهمية بحيث إنه إذا لم يتولد بسبب طاعة الله، فإنه تعالى يترك الإنسان لحاله لكي يُذنب. فماذا نعمل ليحصل لدينا هذا الانكسار؟ ماذا عسانا نصنع لو لم يتولّد فينا هذا الانكسار عبر طاعة الله تعالى واستغفاره بعد عصيانه؟ أيوجد ثمة سبيل أخرى لتذوق حلاوة ربوبية الله لنا وطعم عبوديتنا نحن تجاهه؟ يا إلهي، إنني إن لم أتكامل عبر هذا المسار الطبيعي، ولم يتولد لدي هذا الانكسار أفلا يوجد طريق أقصر لذلك تُبَيِّنه لي؟ إنْ لم أستطع التقدّم عبر هذه السبيل فهل ثمة منطق آخر يمكنني المضي به قُدُمًا؟ بلى، هناك أيضًا طريق مختصر يمكننا من خلاله تذوّق حلاوة «أن يكون لنا مولًى» دون أن نسلك سبيل العبودية وهو أن يعطينا الله عز وجل «مولًى رحيمًا»؛ مولًى رحيمًا من مثل علي بن أبي طالب(ع)، أو أبي عبد الله الحسين(ع)؛ بل إنْ كان هذا المولى مظلومًا أيضًا فسيَسهُل علينا الأمرُ؛ فحينما تَطرُق مسامعَنا قصصُ ظلامته يقول: «أَوَتطاوِعُك نفسُك أن تعصي هذا المولى؟!»

آخر خطة ينفّذها الله ليُحدث في أنفسنا انكسارًا...

إن الرب نفسَه الذي جعل الطريق إلى الجنة تمُرّ عبر العبادة والاستغفار، قَرَّرَ أن دمعةً واحدةً تذرفها على الحسين(ع) تُوجب لك الجنة: «وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّة» (هداية الأمة إلى أحكام الأئمة(ع)/ ج٥/ ص٥٠٤). على أن هذا أيضًا ليس خلافًا للقاعدة؛ إذ لا بد لانكسارالعبد هذا أمام المولى أن يحصل، وهو إنما يحصل بذرف الدموع هذا. ولذا ترى الجميع أثناء الرثاء والعزاء ينادي: «سيدي يا حسين... هذا غلامُك يا أبا عبد الله...» وهذا يعني أنهم يذوقون حلاوة أن يكون لهم مولى.

فـإن لم يسـتَقِمْ أمرُنـا مـع اثنَـي عـشر إمامًـا، هيـأ اللـه جـل شـأنه لنـا خطـة أخـرى، فجعـل في أهـل البيـت(ع) هـؤلاء أُمًّـا هـي «أم الأئمـة(ع)»! وهـي أيضًـا عصمـة اللـه الكـبرى، وهـي كذلـك حُجّـة اللـه عـلى خلقـه. وأظـن أننـا، ومـن دون سَـيرٍ وسـلوك عرفـاني، لـو عرفنـا أن عَضُـد هـذه السـيدة قـد انكسر مـن أجلنـا لانتابنـا أيضًـا انكسـار. وهـذه القضيـة تختلـف حتـى عـن قضيـة الإمـام الحسـين(ع). ولهـذا فقـد ورد عـن علمائنـا(ره) أن ندعـو بهـذا الدعـاء: «إلهـي بحـقّ فاطمـةَ وأبيهـا وبَعلِهـا وبنيهـا والـسرِّ المسـتودَع فيهـا» (عوالِـم العلـوم والمعـارف والأحـوال مـن الآيـات والأخبـار والأقـوال/ ج١١/ ص١١٤٦). وليـس لنـا عِلـم بـدور السـيدة الزهـراء(س) في عالَـم الخِلقـة، لكـن آيـة اللـه الشـيخ حسـن زادة الآمـلي، هـذا العـارف الجـلي،ل يقـول في شرح هـذه الروايـة: «سر ليلـة القـدر فاطمـة الزهـراء(س) نفسـها». ولربمـا كانـت هـذه بالـذات آخـر خُطّـة ينفذهـا اللـه جـل وعلا لبعـث الانكسـار في نفوسـنا. فإن فشـلَت الروحانيـة، والعبوديـة، وفشـل الاسـتغفار مـن المعـاصي في خلـق حالـة الانكسـار فينـا، خلقَهـا لنا سَـماعُنا لرثـاء سـيدة النسـاء فاطمـة الزهـراء(س)، ولا سـيما وأن أيـام العمليـات (أيـام الدفـاع المقـدس) كانـت تقـترن مـع أيـام الفاطميـة. فـلا أحـد بوسـعه المـرور مـن زقـاق بنـي هاشـم والغفلـةُ تُلهِـي قلبَـه....